الخلفاء الأربعة

المشهود لهم بالجنة

رضي الله عنهم وأرضاهم عنا أجمعين

تأليف
الشيخ العالم العلامة المربي الكبير
محمد عيد عبد الله يعقوب الحسيني

دار الفارابي
للمعارف

الخلفاء الأربعة

المشهود لهم بالجنة

رضي الله عنهم وأرضاهم عنا أجمعين

تأليف

الشيخ العالم العلامة المربي الكبير

محمد عيد عبد الله يعقوب الحسيني

دار الفارابي

للمعارف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣م

طِبَاعَة ـ نَشْر ـ تَرجَمَة

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ شارع مسلم البارودي ـ

ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦ فاكس: ٢٤٥٢٨٨٦

www.daralfarabi.com

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم ..

الحمد لله رب العالمين ..

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ..

وبعد..

إلى رجال قال الله تبارك وتعالى في حقهم : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ..

إلى رجال وصفهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ..

إلى رجال عرفوا كلمة التوحيد واعتقدوها ، وكانوا أوفياء لها ..

إلى رجال سَخِروا بالدنيا وما فيها ، وقالوا : نعم ، نعم لله وللرسول وللآخرة ..

إلى رجال أحببناهم والله ولَمّا نلحق بهم ..

إلى رجال عشتُ ذكراهم الليالي الطويلة مع جهادهم ، وزهدهم ، وإيثارهم ، ووقوفهم مع الكتاب والسنة في جميع أحوالهم ..

إلى رجال حلكتهم دموعي قبل قلمي لما فيهم من الصفات التي كادت أن تشبه الملائكة ..

إلى أسياد هذه الأمة وأصلها أهدي هذا الكتاب المتواضع الموجز ، علّ الله تبارك وتعالى يحشرني في زمرتهم إنه على كل شيء قدير ..

خادم العلم الشريف

محمد عيد يعقوب الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله القائل في محكم كتابه العزيز : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمَن أحبّهم فبحبي أحبّهم ، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومَن آذاهم فقد آذاني ، ومَن آذاني فقد آذى الله ، ومَن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[2] .

وبعد ،

فإن أصحاب رسول اللهﷺ هم الذين اجتمعوا بالنبيﷺ حال حياته وبعد بعثه مؤمنين به وماتوا على ذلك .

وهم أفضل هذه الأمة بعد النبيﷺ بإجماع أهل السنة والجماعة .

١- الآية (٢٩) من سورة الفتح .
٢- رواه أحمد في مسنده ، وكذلك الترمذي .

وهم فيما بينهم درجات ، فأفضلهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم باقي العشرة الذين بشرهم النبيﷺ بالجنة ، وهم : طلحة بن عبيدالله ، والزبير ابن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح .

ثم يليهم في الفضل أهل بدر ، وإن عددهمﷺ ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً من الإنس .

وقد قال النبيﷺ بحقهم : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[1] .

ولله در ابن الفارض حيث قال :

فليصنع القوم ما شاءوا لأنفسهم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

ثم يليهم في الفضل أهل أحد .

ثم أهل بيعة الرضوان ، وإن عددهمﷺ ألف وأربعمائة على أقوال في ذلك ، وقد سُمّوا بذلك لقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[2] .

ثم يليهم في الفضل الذين صلوا إلى القبلتين ، لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3] .

١- حديث حسن صحيح رواه البخاري ومسلم في قصة حاطب بن بلتعة . وكذلك أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم ، والبزار ، والطبراني في الأوسط ، وأبو يعلى ، وغيرهم .

٢- الآية (١٨) من سورة الفتح .

٣- الآية (١٠٠) من سورة التوبة .

وإن أصحاب رسول اللهﷺ هم الذين سمعوا كلام الله تبارك وتعالى غضاً طرياً ، وكلام النبيﷺ ، وعقلوا كل ما سمعوه ووعوه ، وطبقوه على أنفسهم ومجتمعهم ، ونقلوا ذلك بصدق وأمانة لمن بعدهم .

وإن الصحابة هم الذين حملوا كذلك راية الإسلام خفاقة عالية ، وأوصلوها إلى جميع أرجاء الأرض بحقبة يسيرة من الزمن ، جاعلين أرواحهم ودماءهم وأوقاتهم ثمناً لهذا الدين ، وهذه العقيدة عقيدة التوحيد ، التي ملكت منهم كل أركانهم وحياتهم ، وكانت أغلى عليهم من كل غال وثمين .

فَرَضِيَ الله تعالى عنهم وأرضاهم عنا ، آمين .

واعلم أخي القارئ أن هذا الكتاب إنما ذكرت فيه مناقب الصحابة بصورة إجمالية ، وخصصتُ فيه ذكر مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأرضاهم عنا أجمعين .

وإن الدافع لي لذلك الحالُ الذي وصل إليه الكثير من الناس من الاستهتار بذكر الصحابة ، ومن تصغير ما قاموا به من مهام كادت أن تكون من المعجزات .

وما وصل لسمعي أيضاً من أن الكثير من أبناء زماننا يجهلون الكثير من سيرة هؤلاء الرجال ، وما لهم من مناقب كثيرة ، ومواقف جليلة أرضوا بها الله تعالى والرسولﷺ . بل وصل المطاف ببعض مَن يدّعي الإسلام بزماننا أنه يتقرب إلى الله تعالى ورسوله بسب وشتم ولعن أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة الكرام ، والنيل من مكانتهم . بل بعضهم أنكر صحبة أبي بكر ، وطعن بخلافته وإمامته . كما طعن البعض الآخر بعائشة زوج النبيﷺ الطاهرة المطهرة ، والتي كما يعلم كل مسلم بأنها أحب أزواجه إليهﷺ .

ولقد حاولتُ في جلسات طويلة إقناع مَن عُمّيَ على قلبه وسمعه وبصره ، وأتيتُ لهم بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، التي تثبت مكانة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، والصحابة الكرام . غير أنهم لم يلتفتوا لهذه الأدلة ، وإن كانت من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام !

ومن المعلوم أن من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافر مرتد عن الإسلام ؛ لمخالفته القرآن الكريم حيث قال ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] .

وإن إنكار القرآن أو إنكار شيء منه كفر وخروج عن الإسلام ، حيث الآية أثبتت صحبة أبي بكر .

كما أنه يُعلم من الآية كذلك أن الله ﷻ عاتب أهل الأرض سوى أبي بكر الصديق ﷺ لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾[2] . وإن هذا العتاب كما هو واضح لم يشمل الصديق الأكبر .

وأما سب وشتم أبي بكر والصحابة جملة أو تفصيلاً فهو فسق ، حيث هم ﷺ أحباب الله سبحانه وأنصار رسوله ، وهم الذين دخلوا تحت قوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[3] .

وإن المؤسف الذي يؤلم كل مسلم صادق أن جهة معلومة هي التي تغذي بذور الفساد ، وتمدُّ مَن يتكلم ويُسيء إلى أصحاب رسول الله ﷺ مادياً ومعنوياً . كما أنَّ أجهزة مسموعة ومرئية وغيرها تحاول الطعن بأصحاب النبي ﷺ ، وبخلافة

١- الآية (٤٠) من سورة التوبة .
٢- الآية (٤٠) من سورة التوبة .
٣- الآية (٨) من سورة البينة .

أبي بكر وعمر . في هذا الوقت بالذات الذي من المفروض على الأمة أن تتناسى وتبتعد عن كل ما يفرق صفها ، ويشتت رأيها . حيث تكالبت دول الكفر بأنواعها من يهود ، وصليبيين ، ووثنيين ، وغيرهم على محاربة الإسلام ، وتعاهدوا وتعاقدوا على القضاء عليه . ولم يعد ذلك خفياً على أي مسلم ، بل أصبحت محاربة الإسلام والمسلمين بشكل علني واضح وسافِر ، كما سمعنا ذلك ممن يمثل أمريكا ، وإيطاليا ، وبريطانيا ، وغيرها من دول الكفر والطغيان .

فالواجب الإسلامي يطلب من كل مسلم صادق مهما كان موقفه أن ينسى الخلافات والمهاترات ؛ ليستطيع المسلمون أن يقفوا صفاً واحداً قوياً غير مريض ولا عليل أمام هؤلاء الأعداء الذين كشفوا الأقنعة عن وجوههم ، وبدؤوا بالفعل لمحاربة الإسلام والمسلمين .

أجل ، في هذا الوقت بالذات مطلوب من كل مسلم أن يقف مع القرآن والسنة ، والسلف الصالح الذين أوصلوا لنا هذا الدين ، لا أن نطعن بهم ونجرح بتاريخنا . بل إن الواجب الإسلامي المقدس يطلب من المسلمين أن يتناسوا كل ما يفرق ويضعف الصف المسلم ، وأن يكونوا يداً واحدة على أعداء الحق ، وأنصار الباطل الذين شغلوا شباب المسلمين وشيبهم عن كثير من أمور الإسلام ، حتى أصبح الكثير من الناس المسلمين يَتَسَمَّوْنَ بالإسلام وهم أبعد الناس عن الإسلام ؛ وذلك لاشتغالهم بهذه الأجهزة الحديثة التي ظهرت في الساحة ، وفيها من البرامج المدروسة على مستويات رفيعة جداً لإشغال المسلمين عن الإسلام والتاريخ الإسلامي الصحيح ، بل وتحريف أشياء كثيرة وغسلها من أذهان هذا الجيل المسلم الذي يعيش في زماننا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

نعم ، هذا هو الدافع لي لتأليف هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ في مناقب أصحاب النبيﷺ على الإجمال ، ومناقب الخلفاء الراشدين الأربعة على التفصيل ، راجياً من الله تبارك وتعالى أن يكون مصححاً لبعض الانحرافات الفكرية التي ظهرت في الشارع والساحة الإسلامية بعد معرفة حقيقة هؤلاء الرجال الذين وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[1] .

كما أسأل المولى الكريم أن يكون هذا الكتاب خالصاً لوجههﷻ ، وسبباً لحشري مع مَن اطلع عليه واعتقد فيه مع النخبة الأولى من هذه الأمة المباركة ، مع الصحابة الكرام الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، وغيّروا وجه التاريخ الجاهلي ، وبدّلوا الظلام بالنور ، والجهل بالعلم والمعرفة .

وأن يكون سفينة لنجاتنا يوم الدين ، والله تعالى القائل : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2] .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى أصحابه وأهل بيته أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

خادم العلم الشريف

محمد عبد يعقوب الحسيني

١- الآية (٢٣) من سورة الأحزاب .

٢- الآيتان (٨٨ - ٨٩) من سورة الشعراء .

فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ

إنَّ ربنا تبارك وتعالى اختار نبينا محمداًﷺ على الأنبياء أجمعين ، واختار كذلك أصحابه على هذه الأمة ، وجعلهم في الأرض نجوماً كنجوم السماء تضيء في الأرض . فهم بركة هذه الأمة ، بهم نمطر ، وبهم نرزق ، وبهم ينصرنا الله تعالى على أعدائنا .

وأحب أن أضع بين يديك أيها القارئ بعض اللمسات لتكون بداية لتعرف مَن هو الصحابي ؟ ومَن هم الخلفاء الراشدون المبشرون بالجنة ؟ بأسلوب سهل إن شاء الله تبارك وتعالى .

أولاً : من هو الصحابي ؟

الصحابي هو من اجتمع بالنبيﷺ حال حياته ونبوّته مؤمناً به ومات على ذلك ، ذكراً كان أو أنثى ، وإن لم يره وكان أعمى ، أو كان صغيراً .

فنخرج هنا مَن اجتمع معهﷺ من أهل الكتاب قبل نبوته : كبحيرا الراهب الذي اجتمع معه في تجارته في بلاد الشام مع عمه .

ويدخل في تعريفنا هذا أيضاً الإنس والجن والمَلَك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ

أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ۞ يهدي إلى الرشد فآمنا به ﴾[1] .

ودخل في هذا التعريف كذلك من التقى معه ﷺ حياً مِن الأنبياء : كعيسى بن مريم ، وإدريس ، وإلياس على بعض الأقوال . فهؤلاء يقال لهم : أنبياء ، ويُعتبرون من الصحابة الكرام .

وكذلك الخضر ، فنحن معشر أهل السنة نعتقد بأن الخضر لا زال حياً ، وقد التقى به كثير من الأولياء والصالحين ولا زال يلتقي ، وهو القائل : (كلما قلت : اجتمعتُ مع كل أولياء الله ، أراني الله ولياً لم أكن أعرفه) .

وإن ارتد رجل عن الإسلام ثم عاد بعد ذلك واجتمع مع النبي ﷺ فهو صحابي . وهناك عدد قرابة الأربعة يطبق عليهم هذا الشاهد ، آمنوا ثم ارتدوا ، ثم عادوا للإسلام ورووا عنه ﷺ وهم ثقة ، وماتوا على الإيمان بعد ذلك . منهم : عياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص – ويقال : العاصي – بن وائل السهمي .

هذا ما عرّفه أهل السنة في هذا المضمار .

ولا يشترط للصحابي أن يجتمع مع النبي ﷺ ويجلس في مجالسه كثيراً ، أو أن يروي عنه الحديث . فمِن هؤلاء الصحابة مَن روى عن النبي ﷺ ، ومنهم مَن حدّث عنه ، ومنهم مَن أفتى عنه .

وأكثر الصحابة رواية عنه ﷺ وفتوى سبعة هم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله ابن عمر ، وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم .

١- الآيتان (١-٢) من سورة الجن .

ثانياً : بيان فضل ومكانة الصحابة

إن الصحابة هم خيار هذه الأمة وصفوتها ، وقد مات النبيﷺ عن أربعة عشر ألفاً ومائة ألف منهم وهو عنهم راض ، بقطع النظر أنَّ هناك مَن هو أفضل مِن الآخر ، إنما حديثنا عن الصحابة إجمالاً .

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على أنه يجب على كل مسلم تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم ، والثناء عليهم ، والكَفّ عن الطعن بهم .

وقد ذكرهم رب العزة وأثنى عليهم في آيات كثيرة من كتابه ، وبيّن مكانتهم عنده وفضلهم . ومن ذلك :

❊ قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] .

فأثبت لهم سبحانه في هذه الآية الخيريةَ على سائر الأمم ، وبيّن ما انطووا عليه من الخيرات والبركات وغيرها .

❊ وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2] .

فالصحابة هم المعنيّون في هذا الخطاب ، والكلام نزل على لسان سيدنا محمدﷺ الذي بلّغنا ذلك .

وقد بيّنت الآية أن اللهﷻ خلقهم عدولاً خياراً ؛ ليكونوا شهداء على بقية الأمم .

١- الآية (١١٠) من سورة آل عمران .
٢- الآية (١٤٣) من سورة البقرة .

❊ وقال ﷻ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾[1] .

فقد أوضح الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة بأنه أمّن أصحاب نبيه مِن خزي يوم القيامة ، ولا يأمن من خزيه تعالى إلا مَن مات على الإيمان وهو عنه راض .

❊ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[2] .

هنا صرّح تعالى بأنه رضي عنهم لعقائدهم الحسنة ، رضي عنهم لانطوائهم ، رضي عنهم لسرائرهم ، رضي عنهم لوفائهم وصدقهم ، رضي عنهم لوقوفهم مع رسول الله ﷺ ، فيُقدّم الواحد نفسه ويضع صدره دون صدر رسول الله ﷺ في ساحات الوغى ، وبدون خوف أو وجل .

❊ وقال سبحانه : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[3] .

❊ وقال ﷻ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[4] .

هكذا وصفهم علام الغيوب : يلين الواحد منهم للآخر ، إنما هو شديد على الكفار . لا يريدون رياء ولا سمعة ، إنما ابتغاء مرضاة الله ﷻ . يأتون

١- الآية (٨) من سورة التحريم .
٢- الآية (١٨) من سورة الفتح .
٣- الآية (٨) من سورة البينة .
٤- الآية (٢٩) من سورة الفتح .

يوم القيامة ويمتازون عن غيرهم من باقي الأمم بالنور الذي يخرج من وجوههم من علامات السجود .

كما شبّههم تعالى بالزرع الذي يُخرج فروعه حوله فيقوّيه . فالنبيﷺ أصلهم ، وهم فروعه الذين يقوُّونه ويعزّرونه في طاعة اللهﷻ .

❋ وقال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾[1] .

فثبت أنَّ الجميع من أهل الجنة ، ولا يدخل أحد منهم النار . وهذا ما اعتقده آباؤنا وأجدادنا من قبلنا ، وما نعتقده نحن وبدون خلاف .

❋ وحدّث الإمام وكيع بن الجراح شيخ الشافعي عن سفيان الثوري يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾[2] : هم أصحاب محمدﷺ .

كذلك بيّن لنا النبيﷺ فضائل كثيرة للصحابة رضوان الله تعالى عليهم في عدة أحاديث ، منها :

❋ عن النبيﷺ قال : « لا تسبوا أصحابي ، والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه[3] »[4] .

١- الآية (١٠) من سورة الحديد .
٢- الآية (٥٩) من سورة النمل .
٣- النصيف هو النصف كالعشير في العشر ، وقيل : هو مكيال دون المُدِّ كما في مجمع بحار الأنوار .
٤- حديث صحيح رواه الإمامان البخاري ومسلم ، وكذلك رواه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد ، ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .
وسبب هذا الحديث ما كان بين خالد بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف .

وأقول : ولو أن عندك نهر من ذهب يجري وتنفق منه ليل نهار ما بلغتَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ، مهما أنفقتَ ، ومهما تصدّقتَ ، ومهما فعلتَ .

❊ وعن عمران بن الحصينﷺ يروي عن النبيﷺ أنه قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . – قال عمران : فلا أدري أذكر قرنين أو ثلاثة – . ثم إن بعدهم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ، ويَخونون ولا يُؤتمنون ، ويَنذِرون ولا يُوفون ، ويظهر فيهم السمن »[١] .

وزاد في رواية : ويَحلفون ولا يُستحلفون .

❊ وعن النبيﷺ قال : « طوبى لمن رآني وآمن بي مرة ، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات »[٢] .

❊ وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال : « صَلَّينا المغرب مع رسول اللهﷺ ، ثم قلنا : نجلس حتى نصلي العشاء . فخرج علينا رسول اللهﷺ وقال : أحسنتم – أو قال : أصبتم – ، ثم رفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يفعله ، فقال : النجوم أمَنَة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد . وأنا أمَنَة لأصحابي ، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون . وأصحابي أمَنَة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون »[٣] .

❊ وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيﷺ فسبّوهم »[٤] .

١- رواه البخاري ومسلم . وكذلك الترمذي ، والحاكم ، والنسائي ، وأبو داود .
٢- رواه البخاري في تاريخه، وأحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك ، وابن حبان.
٣- رواه مسلم وأحمد .
٤- رواه مسلم ، وكذلك الحاكم في المستدرك بلفظ آخر .

❋ وورد عنهﷺ أنه قال لأصحابه : « إنكم تتمّمون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله »[١] .

❋ وقال الصادق المصدوق : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمَن أحبّهم فبحبي أحبّهم ، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومَن آذاهم فقد آذاني ، ومَن آذاني فقد آذى الله ، ومَن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[٢] .

❋ وعن أبي الدرداء عن النبيﷺ قال : « خير أمتي أولها وآخرها ، وفي وسطها الكدر »[٣] .

❋ وعن أنسرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « إذا أراد الله برجل من أمتي خيراً ألقى حب أصحابي في قلبه »[٤] .

❋ وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى مَن رآني »[٥] .

❋ وعن بُريدة رضي الله عنه ينقل عن رسول اللهﷺ أنه قال : « ما مِن أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بُعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة »[٦] .

❋ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « إن الله تعالى اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[٧] .

١- رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة .
٢- رواه أحمد في مسنده ، وكذلك الترمذي .
٣- رواه الترمذي والحاكم .
٤- رواه الترمذي والديلمي .
٥- رواه الترمذي والضياء .
٦- رواه الترمذي والضياء .
٧- رواه الحاكم وصححه .

❊ وعن أنسﷺ عن النبيﷺ قال : « حب الأنصار آية الإيمان ، وبغض الأنصار آية النفاق »[١] .

وكان الأنصار آنذاك أكثر أصحاب النبيﷺ .

❊ وعن عمر بن الخطاب ﷺ يروي عن النبيﷺ قال : « احفظوني في أصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم يَفشو الكذب حتى يَشهد الرجل وما يُستشهد ، ويَحلف وما يُستحلف »[٢] .

❊ وعن عويمر بن ساعدة أنهﷺ قال : « إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، فجعل لي منهم وزراء ، وأنصاراً ، وأصهاراً . فمَن سبّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً »[٣] .

❊ وعن عياض الأنصاري عن النبيﷺ قال : « احفظوني في أصحابي وأصهاري ، فمَن حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة ، ومَن لم يحفظني فيهم تخلّى الله منه ، ومَن تخلّى الله منه أوشك أن يأخذه »[٤] .

❊ وقالﷺ : « إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين ، واختار لي من أصحابي أربعة – يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً – »[٥] .

❊ وعن ابن مسعودﷺ أن النبيﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم يجيى قوم لا خير فيهم »[٦] .

١- رواه النسائي وسنده ضعيف .
٢- رواه ابن ماجة .
٣- رواه الحاكم ، والطبراني ، والمحاملي .
٤- رواه الطبراني ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن عساكر .
٥- رواه البزار عن جابر مرفوعاً صحيحاً ، والطبراني .
٦- رواه الطبراني .

❊ ويقولﷺ : « أيها الناس ، احفظوني في أصحابي ، وأصهاري ، وأختاني »[١] .

❊ وروي عن علي وابن عباسرضي الله عنهما عن النبيﷺ : « مَن سبّ الأنبياء قُتل ، ومَن سبّ أصحابي جُلد »[٢] .

❊ وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال : « لعن الله مَن سبّ أصحابي »[٣] .

❊ وقالﷺ : « خير هذه الأمة أولها وآخرها ، فيهم عيسى بن مريم ، وبين ذلك نهج أعوج ليسوا مني ولست منهم »[٤] .

وهذا القسم من الناس هم الذين يسبّون الصحابة ويطعنون بهم .

❊ وعن واثلة قال : قال النبيﷺ : « طوبى لمن رآني ، ولمن رأى مَن رآني ، ولمن رأى مَن رأى مَن رآني »[٥] .

❊ وعن النبيﷺ قال : « إن الناس يكثرون ، وأصحابي يقلّون . فلا تسبّوا أصحابي ، فمن سبّهم فعليه لعنة الله »[٦] .

❊ وعن أنسرضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً ، فمَن حفظني فيهم حفظه الله ، ومَن آذاني فيهم آذاه الله »[٧] .

١- رواه الطبراني في الكبير .
٢- رواه الطبراني .
٣- رواه الطبراني .
٤- رواه أبو نعيم في الحلية مرسلا .
٥- رواه ابن عساكر بسند حسن .
٦ – رواه الخطيب عن جابر ، والدارقطني في الإفراد عن أبي هريرة .
٧- رواه الخطيب في تاريخه في ترجمة محمد بن بشير .

❋ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « إذا ظهرت الفتن – أو قال : البدع – وسُبَّ أصحابي ، فليظهر العالِم عِلْمَه . فمَن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً »[١] .

❋ وقالﷺ : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم »[٢] .

❋ وقالﷺ : « مَن حفظني في أصحابي وَرَدَ عليّ الحوض ، ومَن لم يحفظني في أصحابي لم يرد عليّ الحوض ولم يرني »[٣] .

وهذه مزية لمن أحب أصحاب النبيﷺ وعمل صالحاً ، فإنه يكون مع النبيﷺ على حوضه ، ومَن كان مع النبيﷺ على الحوض كان مِن أهل الجنة .

❋ وعن علي بن أبي طالبرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « يظهر في أمتي في آخر الزمان قوم يُسمّون الرافضة يرفضون الإسلام »[٤] .

❋ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً عن النبيﷺ قال : « يكون في آخر الزمان قوم يُسمّون الرافضة يرفضون الإسلام ، فاقتلوهم فإنهم مشركون »[٥] .

❋ وعن أنسرضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « مَثل أصحابي مَثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح »[٦] .

١- رواه وأخرجه الخطيب في الجامع .
٢- رواه الدارقطني ، وعبد بن حميد .
٣- رواه الدارقطني .
٤- أخرجه الذهبي عن إبراهيم بن حسن بن حسين عن أبيه عن جده .
٥- أخرجه الذهبي .
٦- رواه أبو يعلى .

❋ وعن عائشة رضي الله عنها عن النبيﷺ قال : « إن شرار أمتي أجرؤهم على أصحابي »[1] .

وأما ما ورد من آثار عن السلف في صفة الصحابة الكرام :

❋ فعن ابن مسعودرضي الله عنه قال : « إن الله نظر في قلوب العباد فاختار محمداًﷺ ، فبعثه برسالته وانتخبه بعِلْمِه . ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار الله له أصحاباً ، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيهﷺ . فما رآه المؤمنون حسناً فهو حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح »[2] .

❋ وعن ربعي بن حراش قال : « استأذن عبدالله بن عباس على معاويةرضي الله عنه وقد علقت عنده بطون قريش ، وسعيد بن العاص جالس عن يمينه . فلما رآه معاوية مقبلاً قال : يا سعيد ، والله لأُلقين على ابن عباس مسائل يعيى بجوابها . فقال له سعيد : ليس مثل ابن عباس يعيى بمسائلك .

فلما جلس قال له معاوية : ما تقول في أبي بكررضي الله عنه ؟ قال : رحم الله أبا بكر كان والله للقرآن تالياً ، وعن الميل نائياً ، وعن الفحشاء ساهياً ، وعن المنكر ناهياً ، وبدينه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، ومن دنياه سالماً ، وعلى عدل البرية عازماً ، وبالمعروف آمراً وإليه صائراً ، وفي الأحوال شاكراً ، ولله في الغدو والرواح ذاكراً ، ولنفسه بالمصالح قاهراً .

١- رواه ابن عدي .

٢- أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والطيالسي . كما أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب بمعناه .

فاق أصحابه ورعاً ، وكفافاً ، وزهداً ، وعفافاً ، وبراً ، وحياطة ، وزهادة ، وكفاءة ، فأعقب الله مَن ثلَبَه[1] اللعائن إلى يوم القيامة .

قال معاوية : فما تقول في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟ قال : رحم الله أبا حفص كان والله حليف الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومحل الإيمان ، وملاذ الضعفاء ، ومعقل الحنفاء . للخلق حصناً ، وللبأس عوناً . قام بحق الله صابراً محتسباً حتى أظهر الله الدين وفتح الديار ، وذكر الله في الأقطار والمناهل ، وعلى التلال ، وفي الضواحي والبقاع . وعند الخنى وقوراً ، وفي الشدة والرخاء شكوراً ، ولله في كل وقت وأوان ذكوراً ، فأعقب الله مَن يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة .

قال معاوية : فما تقول في عثمان بن عفان رضي الله عنه ؟ قال : رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الحفدة ، وأوصل البررة ، وأصبر الغزاة ، هجّاداً بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر الله ، دائم الفكر فيما يعنيه الليل والنهار ، ناهضاً إلى كل مكرمة ، يسعى إلى كل منجية فراراً من كل موبقة ، وصاحب الجيش والبئر ، وختن المصطفى على ابنتيه ، فأعقب الله مَن سبّه الندامة إلى يوم القيامة .

قال معاوية: فما تقول في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ قال: رحم الله أبا الحسن كان والله عَلَم الهدى ، وكهف التقى ، ومحل الحِجى[2] ، وطود البهاء ، ونور السرى في ظلم الدجى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، عالماً بما في الصحف الأولى ، وقائماً بالتأويل والذكرى ، متعلقاً بأسباب الهدى ، وتاركاً للجور والأذى ، وحائداً عن طرقات الرَّدى ، وخير مَن آمن واتقى ، وسيد مَن تقمّص

١- أي صرّح بالعيب فيه وتنقصَه .
٢- أي العقل .

وارتدى ، وأفضل مَن حجّ وسعى ، وأسمح مَن عدل وسوّى ، وأخطب أهل الدنيا إلا الأنبياء والنبي المصطفى ، وصاحب القبلتين فهل يوازيه موحد ؟ وزوج خير النساء ، وأبا السبطين ، لم ترَ عيني مثله ولا ترى إلى يوم القيامة واللقاء ، مَن لعنه فعليه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة .

قال : فما تقول في طلحة والزبير رضي الله عنهما ؟ قال : رحمة الله عليهما كانا والله عفيفَيْن ، برَّين ، مسلمَيْن ، طاهرَين ، متطهّرَين ، شهيدَين ، عالِمَيْن ، زلا زلة والله غافر لهما إن شاء الله بالنصرة القديمة ، والصحبة القديمة ، والأفعال الجميلة .

قال معاوية : فما تقول في العباس ؟ قال : رحم الله أبا الفضل كان والله صنو أبي رسول الله ﷺ ، وقرة عينِ صفيّ الله ، كهف الأقوام ، وسيد الأعمام ، قد علا بصراً بالأمور ، ونظراً بالعواقب ، قد زانه علمه ، قد تلاشت الأحساب عند ذكر فضيلته ، وتباعدت الأنساب عند فخر عشيرته ، ولِمَ لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم مَن دب وهب عبدالمطلب أفخر مَن مشى من قريش وركب ؟ »[1] .

فما هذه المزايا العظيمة التي وُصفوا بها ! ويكفيهم أنهم رأوا مؤمنين وجه رسول الله ﷺ ، ومَن منا يدرك هذا المقام العظيم ؟ يتمنى الواحد منا لو أنفق كل ماله وكل عمره في سبيل أن يرى النبي ﷺ يقظة مرة واحدة ، وهم قد رأوه أكثر من مرة .

١- أخرجه الطبراني .

فكيف يروق لأناس يدّعون الإسلام والإيمان سبّهم وشتمهم ، وإخراجهم عن بودقة التوحيد والفضيلة ، وهم خلاصة خلاصة هذه الأمة ؟ !

وكيف لأمة كانت قبل الإسلام تعبد الوثن ، ثم خرجت متجردة لله وموحدة له ، آمنت بنبيه ، وطعنت بغيره مما يُعبد من غيره سبحانه ، وحرّمت ما حرم الله ، وأحلّت ما أحلّ الله ، وهجرت أوطانها وبلادها وسلكت في طريقه تعالى ، وجاهدت وقاتلت ، وأحبّت الله ورسوله ، أن تلعن وتذم ؟ !

فهذا بعيد عن روح وحقيقة الإسلام ، وستسمعون ذلك بآذانكم وقد سمعتم . فإياكم أن تصغوا لكلام فيه هجوم على أصحاب النبيﷺ أو طعن بأحدهم . وإذا سمع واحد منكم مَن يسبّهم ، فعليه أن ينكر عليه ، وأن يوقفه عند حده إن استطاع .

فالصحابة أكبر من أن يُطعن بهم ، وأعلى من أن يُمس أحدهم بسوء ، والشقي المطرود هو الذي يحاول الطعن بالصحابة الأجلاء .

ثالثاً : عقيدة أهل السنة والجماعة فيما جرى بين الصحابة

لقد اتفق أهل السنة والجماعة على أنه يجب الإمساك عمّا بين الصحابة من الاختلاف ، وذلك أخذاً من قول النبيﷺ : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا »[1] .

١- رواه الطبراني في الكبير .

فنحن ما وصلنا إلى مستواهم لنحكم بينهم ، إنما الله سبحانه هو الذي يحكم بينهم .

وكما قال صاحب الزُّبد :

وما جرى بين الصِحاب نسكت عنه وأجر الاجتهاد نثبت

فهؤلاء كل واحد منهم مجتهد ، والنبيﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »[1] .

١- رواه البخاري ، والحاكم ، والدارقطني .

خليفة رسول الله

أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ

رضي الله عنه

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

صدق الله العظيم

نسبه

كان أبو بكرﷺ حسيباً نسيباً ، يلتقي نسبه بالنبيﷺ بجده مُرَّة ، فهو عبدالله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة بن كعب بن لؤي ابن غالب .

أبوه اسمه عثمان ، إنما كُني بأبي قحافة .

واسم أمه سلمى بنت صخر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة ، وكنيتها أم الخير ، وهي ابنة عم أبيه .

وقد أكرم الله تبارك وتعالى أبا بكر بأن أسلمت أمه ، وأسلم أبوه عام الفتح ، وقد قال له النبيﷺ : لو تركنا لذهبنا إليك ، فقال أبو بكر : بل هو أحق بالمجيء إليك يا رسول الله . فأحضره أبو بكر ورأسه كالثمامة من البياض ، فقال لهﷺ : غيّر لون رأسك ، فصبغه بالحناء والكتم .

وكذا كان يفعل سيدنا أبو بكر بعد ذلك ، فيصبغ لحيته وشعره بهذا .

لقبه وتسميته

كان سيدنا أبو بكرﷺ يلقب بالصديق ، وذلك لِما رُوي عن أبي وهب مولى أبي هريرة أنه قال : « لما رجع رسول اللهﷺ ليلة أسري به فكان بذي طوى ، فقال : يا جبريل ، إن قومي لا يصدقوني ، فقال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق »[1] .

ولقد سُمي كذلك بعتيق ، والسبب في ذلك مسألة خلافية :

– تقول السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبيﷺ قال لأبي بكر : يا أبا بكر ،

١- أخرجه سعيد بن منصور في سننه ، ووصله الطبراني في الأوسط .

أنت عتيق الله من النار . فمن يومئذ سُمي بعتيق[1] .

- وقيل : سُمي بعتيق لأنه عتيق من العيوب ، حيث ليس في آبائه وأجداده ولا في أصوله ما يعيب .
- وقيل : سُمي بذلك لجماله ، فهو عتيق من القبح .
- وقيل : لأنه صدّق النبيﷺ في خبر الإسراء ، فنعت يومها بالصديق وأنه عتيق من النار .

سِمَتُه ومكانته في قريش

كانرضي الله عنه أبيض ، نحيفاً ، إلى الطول أقرب .

كان وجيهاً وزعيماً من زعماء قريش ، مقدماً في الجاهلية ، ومرجعاً يُعتمد عليه في مكة .

وكان رجلاً ذا مال وتجارة مستمرة قبل إسلامه وبعد إسلامه ، يتاجر إلى بلاد الشام وإلى بلاد اليمن .

وكانت إليه الأشناق[2] فيتحمّلها ، فإذا قال : ندفع دية فلان ، لم ترد عليه قريش بكلمة سوى قول : نعم ، وتصدقه بذلك .

زوجاته وأولاده

تزوّج الصديقرضي الله عنه من أربع نسوة ، وأنجب ستاً من الأولاد .

١- قُتلة . وقيل : قتيلة . بنت عبدالعزى : تزوجها في الجاهلية ، وأنجب منها عبدالله وأسماء .

١- أخرجه الحاكم ، وكذلك الترمذي بلفظ آخر .
٢- هي الديات .

٢- أم رومان زينب بنت عامر : وقد أسلمت وهاجرت ، وتوفيت في ذي الحجة سنة أربع أو خمس ، ونزل النبيﷺ في قبرها واستغفر لها ، وقال : اللهم لم يَخفَ عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك . وروي عن رسول اللهﷺ أنه قال : « مَن سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان »[١] .

وقد ولدت له عبدالرحمن ، وعائشة .

٣- أسماء بنت عميس الخسعمية : هي أخت ميمونة زوج النبيﷺ لأمها ، وقد تزوجهاﷺ في الإسلام ، وولدت له محمد بن أبي بكر .

٤- أم حبيبة بنت خارجة الأنصارية : هي ابنة الرجل الذي آخى النبيﷺ بينهما ، فعندما جاء أبو بكر إلى المدينة سكن في السنح وتزوّج منها ، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم .

قصة إسلامه

لقد ذكرنا آنفاً أن أبا بكر كان رجلاً صاحب تجارة ، فوصل يوماً في تجارته إلى اليمن ، واجتمع هناك بشيخ من الكهان الكبار ، فسأله الشيخ عن اسمه ، ثم قال له : علمنا أنه سيظهر نبي يقال له : محمد ، يدعو إلى توحيد الله ، ويأتي بالسيف . . . وذكر له مواصفاته . ثم قال له : كأني أرى فيك صفة رجل يتبع النبي المنتظر ، فإن كنت أنت كما تفرّستُ بك فأنت أكبر أتباعه ، وأكبر أنصاره . ثم وصفه وصفاً كاملاً كأنه يعرفه ، وسمع منه أبو بكر ذلك جيداً .

وبهذه الفترة ظهر النبيﷺ بمكة وأظهر نبوّته ، ووقفت قريش في وجهه .

١- أخرجه البخاري في تاريخه وقال : فيه نظر ، ورواه ابن سعد في طبقاته .

فلما عاد أبو بكر إلى مكة من بلاد اليمن ، أتى إليه وفد من وجهاء قريش كأبي جهل وشيبة يقولون له : أما علمتَ بالنبأ العظيم ؟ قال : لا ، قالوا : إن محمد ابن عبدالله يدّعي بأنه نبي الأمة ، وبأن الله أرسله إلينا ، وإننا انتظرناه لمجيئك ، ولولاك لفعلنا وفعلنا به الكثير .

فلم يرد عليهم أبو بكر بكلمة ، غير أنه ذهب إلى بيت النبيﷺ عند خديجة ، فخرج النبيﷺ فسلّم عليه أبو بكر وقال له : إن قريشاً تقول بأنك تدّعي النبوة ؟ فقال : حقاً إن اللهﷻ أرسلني رحمة للعالمين ؛ لأقول للناس : إن الله واحد . ودعاه إلى الإسلام ، فقال أبو بكر : ما علامة ذلك ؟ قال : الشيخ الذي لقيته في بلاد اليمن وأخبرك بأني رسول الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

فأبو بكر هو أول مَن أسلم على وجه الأرض من الرجال ، وعندما أسلم رضي الله عنه أسلم عن عقيدة ، وعن دراية ومعرفة بأن محمداً رسول الله حقاً .

منذ قالها رضي الله عنه ما تردّد في الإسلام شعرة أبداً ، منذ أسلم ما قال للنبيﷺ : لا قط ، بل نعم لله وللرسول . ما شك يوماً بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ولا شك بمقالة ، أو بمعجزة من معجزاته .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال : « ما كلّمتُ في الإسلام أحداً إلا أبى عليّ وراجعني الكلام إلا ابن أبي قحافة ، فإني لم أُكلِّمه في شيء إلا قَبِلَه واستقام عليه »[1] .

١- أخرجه أبو نعيم ، وابن عساكر .

وعن النبيﷺ قال : « ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر »[1] .

كان في كل يوم يتقدّم نحو السماء ، في كل يوم يزداد إيمانه ، وكان دائماً الصخرة القوية أمام إبليس .

وعندما أسلمرضي الله عنه لم يكتف بنفسه ، بل كان يدعو الناس إلى الإسلام ، فأسلم على يديه عدد من خيار الصحابة ، منهم خمسة من أسياد هذه الأمة ، ومن العشرة المبشرين بالجنة : عثمان بن عفان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام . فكان لهم شرف الإسلام على يد الصديق الأكبر .

هجرته مع النبي صلى الله عليه وسلم

لقد أنفق سيدنا أبو بكر ماله كله في خدمة النبيﷺ والإسلام ، ولم يبق منه سوى خمسة آلاف درهم . وعندما طلب منه النبيﷺ أن يهاجر معه ، اشترى راحلتين وأعدّهما للهجرة جيداً ، ثم أتى إلى الكُوَّة التي فيها المال وأخذه بكامله وانطلق مع رسول اللهﷺ ، فأنزل الله سكينته عليهما ، وأيدهما بجنود لم يروها .

ويأتي أبو قحافة أبو أبي بكر إلى البيت ، ويقول لأسماء وأختها : أفجعكم أبوكم بذهابه ؟ أفجعكم بنفسه وماله ؟ فتقول له أسماء : لا يا أبتاه ، إنما ترك المال مكانه . وتذهب أسماء وتضع شيئاً من الحصى بصُرّة ، وتضع هذه الصُرة

١- رواه ابن إسحاق .

في الكُوَة التي فيها المال سابقاً ، ثم تأتي بجدها وكان أعمى ، وتأخذ بيده وتضعها على هذه الصرة ، فيقول : إذاً لم يظلمكم بذلك .

وعندما وصل النبيﷺ وأبو بكر الغار وكان في ليل دامس ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، انتظر ولا تدخل الغار ، فإني أخشى عليك من ثعبان أو حيوان . فدخل أبو بكر وكان كلما وجد ثغراً أو فوهة قطّع من ثوبه وسدّها ، ولا زال يقطع بثوبه حتى سدّ كل ثقب بهذا الغار ، إلا ثقباً واحداً سدّه بعقب رجله ، ثم قال : ادخل يا رسول الله .

فدخل النبيﷺ ووضع رأسه على فخذ أبي بكر ونام مطمئناً ، ولكن الثعبان خرج من هذا الثقب ولسع أبا بكر في عقبه ، فلم يشأ أبو بكر أن يصرخ أو أن يحرك قدمه لئلا يزعج النبيﷺ ، بل صبر ولكن دموعه سالت على وجه النبيﷺ ، فاستيقظ وقال : ما هذا ؟ قال : لسعتُ يا رسول الله ، فتفل لهﷺ على مكان اللسع فشفاه اللهﷻ .

وفي الصباح نظر إليه النبيﷺ وإذ رآه عارياً ، فقال : أين ثوبك يا أبا بكر ؟ قال : مزقته يا رسول الله ووضعته في هذه الثقوب .

وهذه ابنته أسماء تسير ليلاً من بيتها إلى جبل ثور لتأخذ الطعام لهما ، وأهل مكة يعرفون صعوبة شعابها وجبالها ، وكيف يستوحش الإنسان بالمسير فيها . وقد شقّت حزامها وربطت به المتاع الذي فيه الطعام ، فنعتت بعد ذلك بذات النطاقين .

وهذا ابنه عبدالله كان يبيت عند كفار قريش ، ثم يأتي بخبرهم إليهما في الغار .

وكذلك مولاه عامر بن فهيرة كان يأتيهما بغنمه يبيت على باب الغار ثلاثة أيام ؛ ليحلب منها النبيﷺ أو يذبح ما شاء . وقد كان معهما في هذه الرحلة إلى المدينة ، وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وعندما انطلقوا من الغار كان أبو بكرﷺ ساعة يسير أمام النبيﷺ ، وساعة يسير خلفه ، وساعة عن يمينه ، وساعة عن يساره ، فسأله رسول اللهﷺ في ذلك فقال : إذا تذكّرتُ الطلب سِرْتُ خلفك حتى أكون فداك لو أتوك ، وإذا تذكّرتُ أنهم يأتون من الأمام سِرتُ أمامك ، وإذا تذكّرتُ أنهم يأتون من اليمين سِرتُ عن يمينك ، وإذا تذكّرتُ أنهم يأتون من اليسار سِرتُ عن يسارك .

هكذا جنّد أبو بكر نفسه ، وولده ، وماله ، وعبده ، وكل ما يملك في خدمة النبيﷺ والإسلام .

ذكر مناقب الصديق الأكبر وفضائله

إنَّ فضائل أبي بكرﷺ أكثر بكثير من أن تحصى وتذكر ، إنما نذكر بعضاً منها لنزداد حباً له ، ومعرفة بهذا الخليفة الصالح .

منها ما نزل بحقه من آيات تنعته وتبين فضيلته :

❊ كقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] .

لهذا أجمع العلماء أنه مَن أنكر صحبة واحد من الصحابة فقد فسق، ومَن أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر وإن صلى وصام وزكى ؛ لأنه خالف نص القرآن ، فلا يقبل الله منه عبادته ، وهو مرفوض من الحضرة الإلهية .

١- الآية (٤٠) من سورة التوبة .

❊ ولقد عاتب الله ﷻ أهل الأرض سوى أبي بكر بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾[1] ؛ لأنه كان معه في الغار وفي الصحبة .

قال ﷺ للكل : هاجروا ، وقال لعلي : نم في فراشي ، وقال لأبي بكر : انتظرني في مهمة أمامك . طلب منه أن يصاحبه في هذه الرحلة التاريخية المصيرية ، وهذا دليل على ثقة النبي ﷺ به الكاملة ، فكان رفيقه في الغار .

❊ وعندما جاء مسطح وطعن بعفاف السيدة الطاهرة زوجة الطاهر ﷺ ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، فأقسم ألا ينفق عليه بعد ذلك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[2] ، فقال : بلى ، وأعاد الإنفاق على مسطح .

❊ ولقد فسّر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾[3] ، بأنه نزل بأبي بكر الصديق ﷺ .

ومن فضائله كذلك ما جاء في السنة الشريفة :

❊ فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « مَن أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله ، هذا خير لك . فمَن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة ، ومَن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومَن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرّيان ، ومَن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة . قال أبو بكر : وهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[4] .

١- الآية (٤٠) من سورة التوبة .
٢- الآية (٢٢) من سورة النور .
٣- الآيتان (٥ – ٦) من سورة الليل .
٤- رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي .

❊ ولقد كان النبيﷺ دائماً يتكلم باسم أبي بكر وعمر ؛ لأنه كان يضمنهما في ذلك ضماناً كاملاً . كلما تكلم بكلمة يقول : أنا وأبو بكر وعمر . وإذا قيل له : مَن يشهد لك بأنك رسول الله ؟ ومَن يصدقك بذلك ؟ يقول : أبو بكر وعمر .

يروى عن أبي هريرةرضي الله عنه قال : سمعت رسول اللهﷺ يقول : « بَيْنا راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاة ، فطلبه الراعي ، فالتفت إليه الذئب فقال : مَن لها يوم السبع ، يوم لا راعي لها غيري ؟ وبَيْنا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها ، فالتفتت إليه فكلمته ، فقالت : إني لم أخلق لهذا ولكني خلقت للحرث . قال الناس : سبحان الله ، فقال النبيﷺ : فإني أومن بذلك ، وأبو بكر وعمر »[1] .

❊ وعن عمرو بن العاصرضي الله عنه أنه سأل النبيﷺ قال : أيُّ الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . فقلت : مِن الرجال ؟ فقال : أبوها[2] .

❊ وعن أنسرضي الله عنه قال : « صعد النبيﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان أحداً فرجف بهم ، فضربه النبيﷺ برجله وقال : اثبت أحد ، فإنما عليك نبي ، وصديق ، وشهيدان »[3] .

❊ وروي عن أبي هريرةرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ لأصحابه – وذلك في صلاة الصبح جماعة – : « مَن أصبح منكم صائماً اليوم ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : مَن أطعم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : مَن عادَ اليوم مريضاً ؟

١- رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وأحمد .
٢- رواه البخاري ومسلم .
٣- رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد .

قال أبو بكر : أنا . قال : مَن شهد اليوم منكم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا . فقال رسول اللهﷺ : ما اجتمعت هذه الخصال في رجل قط إلا دخل الجنة »[١] .

❋ وعن أنسرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « ما قدّمتُ أبا بكر وعمر ، ولكن الله قدّمهما »[٢] .

❋ وعن أبي الدرداء قال : « كنت جالساً عند النبيﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبيﷺ: أما صاحبكم فقد غامر . فسلّم وقال : إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء ، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ ، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ ، فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر – ثلاثاً – . ثم إنَّ عمر ندم فأتى منزل أبي بكر ، فسأل : أثمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا . فأتى إلى النبيﷺ ، فجعل وجه النبيﷺ يتمعّر حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله ، أنا والله كنت أظلم – مرتين – ، فقال النبيﷺ : إن الله تعالى بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدقتَ . وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي – مرتين – . فما أوذي بعدها »[٣] .

وهكذا لم يذهب الغضب عن رسول اللهﷺ حتى أتى عمرُ بعد ذلك واعتذر من أبي بكر رضي الله عنهما .

❋ وعن أنسرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ،

١- رواه مسلم .
٢- أخرجه البخاري .
٣- رواه البخاري .

وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل . ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[١] .

❋ وعن سعيد بن زيد أن رسول اللهﷺ قال : « عشرة في الجنة : النبي في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير بن العوام في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة »[٢] .

❋ وعن أبي هريرةرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « أتاني جبريل فأخذ بيدي ، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي . فقال أبو بكر : وددتُ أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول اللهﷺ : أما إنك يا أبا بكر أول مَن يدخل الجنة من أمتي »[٣] .

❋ وعن عبدالله بن حنظلة أن رسول اللهﷺ رأى أبا بكر وعمر فقال : « هذان السمع والبصر »[٤] .

❋ وروي : « أن رسول اللهﷺ خرج ذات يوم فدخل المسجد وأبو بكر وعمر ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وهو آخذ بأيديهما وقال : هكذا نبعث يوم القيامة »[٥] .

١- أخرجه أحمد ، والترمذي ، والحاكم ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والبيهقي .
٢- أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة .
٣- أخرجه أبو داود والحاكم .
٤- أخرجه الترمذي والحاكم وصحّحه ، وكذلك الطبراني من حديث ابن عمر .
٥- أخرجه الترمذي والحاكم عن عمر، والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة .

❋ وعن جابر وأبي سعيد رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال : « سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين – يعني أبا بكر وعمر – »[١] .

❋ ولقد صحّ عن عمرﷺ أنه قال : « أمرنا رسول اللهﷺ أن نتصدّق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . فجئت بنصف مالي ، فقال رسول اللهﷺ : ما أبقيتَ لأهلك ؟ قلت : مثله . فأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال : أبقيتُ لهم الله ورسوله . فقلت : لا أسبقه إلى شيء أبداً »[٢] .

كلاهما فعل خيراً ، إنما شتان بين موقفيهما . فأبو بكر لا يطاوله أحد أبداً ، ولو مدّ يده للثريا لطالها وهو غير متعب .

❋ وعن علي كرم الله وجهه قال : « قال لي رسول اللهﷺ يوم بدر ولأبي بكر : مع أحدكما جبريل ، ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل مَلَك عظيم يشهد القتال أو يكون في الصف »[٣] .

❋ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال لأبي بكر : « أنت صاحبي على الحوض ، وصاحبي في الغار »[٤] .

فهذه بشارة أنه ممن يقدم الكووس للمؤمنين على الحوض .

١- رواه الترمذي ، وأحمد ، والطبراني في الأوسط .
٢- رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وأبو داود في سننه عن عثمان بن أبي شيبة ، والبزار عن أبي نعيم .
٣- أخرجه أحمد ، والحاكم ، والبزار ، وأبو يعلى .
٤- رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

❋ وعن أنسﷺ قال : « أن رسول اللهﷺ كان يخرج على أصحابه مِن المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع إليه أحد منهم بصره إلا أبا بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويبتسمان له ويبتسم إليهما »[١] .

❋ وعن عليﷺ أن رسول اللهﷺ قال : « رحم الله أبا بكر ، زوّجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله ، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر »[٢] .

❋ وفي رواية عن أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ قال : « ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر ، فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله »[٣] .

❋ وعنهﷺ قال : قال رسول اللهﷺ : « أبو بكر وعمر خير الأولين والآخرين ، وخير أهل السماء ، وخير أهل الأرض إلا النبيين والمرسلين »[٤] .

❋ وعنه كذلك مرفوعاً قال : قال رسول اللهﷺ : « إن في السماء الدنيا ثمانين ألف مَلَك يستغفرون اللهﷻ لمن أحب أبا بكر وعمر ، وفي السماء الثانية ثمانين ألف مَلَك يلعنون مَن أبغض أبا بكر وعمر »[٥] .

❋وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « خرج علينا رسول اللهﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس قال : رأيت قبل الفجر كأني أعطيتُ المقاليد والموازين ،

١- أخرجه الترمذي .
٢- أخرجه الترمذي .
٣- أخرجه أحمد .
٤- أخرجه الحاكم في الكنى ، وابن عدي في الكامل ، والخطيب في تاريخه .
٥- رواه الحاكم ، وابن عدي ، والدارقطني ، والذهبي ، وغيرهم .

فأما المقاليد فهي المفاتيح ، وأما الموازين فهذه التي توزن بها . فوُضعتُ في كفة ووُضعت أمتي في كفة ، فوزنت بهم فرجحتُ . ثم جيء بأبي بكر فوزن بهم فرجح . ثم جيء بعمر فوزن بهم فرجح . ثم جيء بعثمان فوزن بهم فرجح ، ثم رفعت »[١] .

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « إن الله تعالى أيدني بأربعة وزراء ، اثنين من أهل السماء : جبريل ، وميكائيل . واثنين من أهل الأرض : أبي بكر ، وعمر »[٢] .

والوزير هنا هو المعاون في شئون النبوة والرسالة ، القائم بأعباء الدعوة وتبليغها .

❊ وعنه كذلك قال :« كان النبيﷺ وأصحابه يسبحون في غدير ، فقال النبيﷺ : ليسبح كل رجل منكم إلى صاحبه . فسبح كل رجل منهم إلى صاحبه ، وبقي النبيﷺ وأبو بكر ، فسبح النبيﷺ إلى أبي بكر حتى عانقه ، وقال : أنا إلى صاحبي ، أنا إلى صاحبي »[٣] .

❊ وعن سعد بن زرارة رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال : « إن روح القدس جبريل عليه السلام أخبرني أنَّ خير أمتك بعدك أبو بكر الصديق »[٤] .

❊ وعن أبي الدرداء عن النبيﷺ قال : « اقتدوا بالَّذين مِن بعدي : أبي بكر

١- خرّجه أحمد في مسنده .
٢- رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية .
٣- رواه الطبراني في الكبير .
٤- أخرجه الطبراني في الأوسط .

وعمر . فإنهما حبل الله الممدود ، مَن تمسّك بهما فقد تمسّك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »[١] .

❋ وعن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول اللهﷺ :« أبو بكر الصديق خير الناس إلا أن يكون نبياً »[٢] .

فمن ثبتت نبوته من الأنبياء فهو خير من أبي بكر ، ومَن لم تثبت نبوته فأبو بكر أفضل منه . فهو خير إنسان على الأرض حتى في الأمم السابقة مِن عهد أبينا آدم وإلى يوم القيامة ، وهذا عطاء من اللهﷻ .

❋ وورد عن النبيﷺ أنه قال : « لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان الناس لرجح إيمان أبي بكر »[٣] .

❋ وعن حذيفةرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « إن في الجنة طيراً كأمثال البخاتي ، قال أبو بكر : إنها لناعمة يا رسول الله ، قال : أنعم منها مَن يأكلها ، وأنت ممن يأكلها »[٤] .

❋ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللهﷺ قال : « أبو بكر مني وأنا منه ، وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة »[٥] .

❋ وعن أنسرضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « أبو بكر وزيري يقوم مقامي ، وعمر ينطق

١- أخرجه الطبراني .
٢- أخرجه الطبراني ، والذهبي عن إياس بن سلمة عن أبيه بلفظ : (خير أهل الأرض).
٣- رواه البيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر ، وأخرجه ابن عدي والديلمي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ : (لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها).
٤- أخرجه البيهقي .
٥- أخرجه الديلمي .

بلساني ، وأنا من عثمان وعثمان مني ، وعلي ابن عمي وأخي وحامل رايتي . كأني بك يا أبا بكر تشفع لأمتي » [١] .

فيقف أبو بكر بمنزلة رفيعة وعالية ؛ ليشفع للعصاة من هذه الأمة .

❊ وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول اللهﷺ لأبي بكر : « يا أبا بكر ، إن الله أعطاني ثواب مَن آمن بي منذ خَلَقَ الله آدم إلى أن تقوم الساعة ، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب مَن آمن بي منذ بعثتي إلى أن تقوم الساعة » [٢] .

❊ وعن سليمان بن يسار قال : قال رسول اللهﷺ : « خصال الخير ثلاثمائة وستون خصلة ، إذا أراد اللهﷻ بعبد خيراً جعل فيه خصلة منها يدخل بها الجنة . قال أبو بكر : أفيّ منها شيء ؟ قال : نعم ، جمعاء من كل شيء » [٣] .

فماذا تقول بإنسان استوعب الخير كله ؟

❊ وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللهﷺ : « الناس كلهم يحاسبون إلا أبا بكر » [٤] .

❊ وعن أنس بن مالكرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « حب أبي بكر وشكره واجب على كل أمتي » [٥] .

١- أخرجه أبو شجاع الديلمي صاحب الفردوس بمأثور الخطاب .
٢- أخرجه الخطيب .
٣- أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ، وابن عساكر .
٤- أخرجه ابن عساكر .
٥- أخرجه ابن عساكر .

❊ وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حب أبي بكر وعمر من الإيمان ، وبغضهما كفر . وحب الأنصار من الإيمان ، وبغضهم كفر . وحب العرب من الإيمان ، وبغضهم كفر . ومَن سبّ أصحابي فعليه لعنة الله ، ومَن حفظني فيهم فأنا أحفظه يوم القيامة » [١] .

❊ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبياً » [٢] .

❊ وروي عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتاني جبرائيل فقال : يا محمد ، إن الله أمرك أن تستشير أبا بكر » [٣] .

❊ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا توذوني في صاحبي ، فإن الله بعثني بالهدى ودين الحق ، فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدقتَ . ولولا أن الله سمّاه صاحباً لاتخذته خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام » [٤] .

❊ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « كنت في المسجد أصلي ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر ، فوجدني أدعو فقال : سل تعط . ثم قال : مَن أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً فليقرأ بقراءة ابن أم عبد . فرجعتُ إلى منزلي ، فأتاني أبو بكر فبشرني ، ثم أتاني عمر فوجد أبا بكر خارجاً قد سبقه ، فقال : إنك لسبّاق بالخير » [٥] .

١- أخرجه ابن عساكر بسند ضعيف .
٢- أخرجه عبد بن حميد في مسنده ، وأبو نعيم ، وغيرهما .
٣- أخرجه الذهبي ، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان .
٤- رواه ابن عدي .
٥- أخرجه أبو يعلى وغيره بأسانيد مختلفة .

❊ وعن أبي هريرةﷺ قال : « هبط جبريل إلى النبيﷺ فوقف ملياً بناحية ، فمرّ أبو بكر الصديق ، فقال جبريلعليه السلام : يا محمد ، هذا ابن أبي قحافة . فقال : يا جبريل ، أوَتعرفونه في السماء ؟ فقال : والذي بعثك بالحق ، لهو في السماء أشهر منه في الأرض ، وإن اسمه في الأرض أشهر منه في السماء ، وإن اسمه في السماء الحليم » [١] .

❊ وعن جابرﷺ قال : قال رسول اللهﷺ : « تأتي الملائكة بأبي بكر الصديق مع النبيين والصديقين تزفه إلى الجنة زفاً » [٢] .

وأقول : مَن نازعه هذا فقد اعترض على اللهﷻ ، فيسلب الله منه الإيمان والخير .

❊ وروي عن ابن أبي أوفى في حديث طويل قال : « خرج علينا رسول اللهﷺ فقال : يا أصحاب محمد ، لقد أراني اللهﷻ منازلكم الليلة ، وقرب منازلكم من منزلي . ثم التفت إلى علي وقال : يا علي ، أما ترضى أن يكون منزلك بحذاء منزلي كما يتواجه منزل الأخوين ؟ قال : بلى يا رسول الله ، ثم بكى . ثم أقبل على أبي بكر وقال : إني لأعرف اسم رجل ، واسم أبيه ، واسم أمه ، إذا دخل الجنة لم يبق غرفة من غرفها ، ولا شرفة من شرفها إلا قالت : مرحباً مرحباً . فقال سلمان : يا رسول الله ، إن هذا لغير خائب ، قال : ذاك أبو بكر بن أبي قحافة . . . » [٣] .

١- رواه الطبري في الرياض النضرة .
٢- خرجه الطبري في الرياض النضرة .
٣- خرّجه القاضي أبو بكر يوسف بن فارس ، والطبري في الرياض النضرة .

وأما ما ورد عن بعض الصحابة من آثار في ذكر فضل أبي بكر :

❊ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « كنا في زمن رسول اللهﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي لا نفاضل بينهم »[١] .

❊ وعن عمرﷺ قال : « أبو بكر سيدنا وأحبنا إلى رسول اللهﷺ »[٢] .

❊ وقد ورد عن محمد بن سيرين أنه قال : « ذكر رجال على عهد عمرﷺ ، فكأنهم فضّلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما . قال : فبلغ ذلك عمرﷺ فقال : والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر . . . »[٣] .

❊ وعن أبي هريرةﷺ قال : « كنا معاشر أصحاب رسول اللهﷺ ونحن متوافرون نقول : أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ، ثم نسكت »[٤] .

❊ وعن سويد مولى عمرو بن حريث قال : « سمعت علي بن أبي طالب يقول على المنبر : إن أفضل الناس بعد رسول اللهﷺ : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان »[٥] .

❊ وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : « لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري »[٦] .

١- رواه البخاري في صحيحه .
٢- أخرجه الترمذي والحاكم .
٣- هو حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ، وأخرجه الحاكم في المستدرك .
٤- أخرجه ابن عساكر .
٥- أخرجه أبو نعيم في الحلية .
٦- أخرجه أبو عمر عن الحكم بن جحل ، وفي رواية : (حد المفتري) .

فكان في خلافته ﷺ يرد على كل من يحاول إنزال مرتبتي أبي بكر وعمر ، وكان يجلدهم ويقيم عليهم حد الفرية .

❋ وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : « ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه ، ولوددت أني شعرة في صدر أبي بكر »[1] .

فالطبع في الإنسان ليس كالتطبع ، وفعلِ الخيرات كان مجبولاً بدم أبي بكر ﷺ منذ خلقه الله تعالى ، ولقد حاول عمر مراراً سباقه فما استطاع أن يشق غباره أبداً .

ومن ذلك ما أخرجه الخطيب أن عمر كان يتعاهد عجوزاً عمياء في حواشي المدينة من الليل ، فيستسقي لها ويقوم بأمرها . وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت . فجاءها غير مرة فلا يُسبق إليها ، فرصده فإذا هو بأبي بكر الصديق ﷺ الذي يأتيها وهو خليفة ، فقال عمر : أنت لعمري ؟

❋ وقد أنشد حسان بن ثابت أبياتاً في أبي بكر ، فقال :

إذا تذكرتَ شجواً مِن أخ ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلَ
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوقاها بما حملَ
ثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس حقاً صَدَّقَ الرسلَ

❋ وهو كذلك الصديق الذي كُتب اسمه في التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والكتب السماوية .

١- أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب .

❋ وكُتب اسمه كذلك على سفينة سيدنا نوح تحت اسم النبيﷺ مباشرة .

❋ وطينتهرضي الله عنه قريبة من طينة النبيﷺ ، والدليل على ذلك أن ضريحه بالقرب من ضريح النبيﷺ في الروضة الشريفة ، تحت قدميه عليه الصلاة والسلام .

❋ وكانرضي الله عنه بعهد النبيﷺ مرجعاً للصحابة بعد رسول اللهﷺ .

فقد أجمعت الأمة على أن أبا بكر أفضل هذه الأمة بعد النبيﷺ ، وأن آثاره باقية إلى يوم القيامة .

فما هذه الفضائل الكريمة التي اتصف بها أبو بكر ؟ وما بالك برجل كانت له هذه المزايا العظيمة ؟ إنها عطية من الله ، وإنها هبة السماء ، رضي الله عنك يا أبا بكر .

فعجباً لأناس يدّعون الإسلام وأنهم أحباب الله والرسول ويسبّون هذا الشيخ الجليل أو يطعنون فيه ! وليت شعري كيف يروق لأناس يقولون : (لا إله إلا الله) أن يكرهوا أبا بكر ويعادوه ، ثم يأتوا بأحاديث موضوعة ومكذوبة ؟ ! فكيف يفسّرونها وكيف يؤوّلونها ؟ ! فإنهم بذلك يطعنون الإسلام بصدره وهم يظنون أنهم على شيء ، وهم ليسوا على الحق بل على ضلال مبين .

إن هذا افتراء كبير ، ونعرة طائفية ما قالها أحد من أجدادنا . وهؤلاء إنما وصلوا عن طريق إبليس إلى النار ، إبليس يلقي إليهم وهم يطبقون قوله ، وهم يعلمون حق العلم أن الأمة الإسلامية فضّلت أبا بكر ؛ لأن الله تعالى ونبيه فضّلاه .

ذكر لي في بلاد الشام أنه دخل رجل إلى حمام السوق ، فجلس عند جرن وطلب مَن يُغَسّلُه ، فجاء المغسل وبدأ بتغسيله ، وعندما وصل إلى قدميه رأى على أحد أخمصَيه مكتوباً أبا بكر ، وعلى الآخر عمر . وهذا المغسل مع فسقه – حيث إنه ينظر إلى العورات – لم يستطع أن يتحمّل هذه الوقعة ، فأخذ الجرن ورمى به على رأس هذا الرجل ، فقتله أمام الناس ثم غطّاه بالإزار . فهرب الناس كلهم وقالوا : قَتَلَ قتيلاً ، ولم يعرفوا السبب . وجاءت الشرطة وألقت القبض عليه ، فقال : أنا رأيت خنزيراً فقتلته ولم أقتل قتيلاً . فدخلوا ورفعوا الإزار عن المقتول ، وإذ قَلَبَه الله تعالى بقدرته خنزيراً .

فهنا أكرم الله هذا المغسل وتاب ، وأعفي عنه ببركة حبه ودفاعه عن الصديق الأكبر .

فأبو بكر الصديق له شأن كبير عند ملك الملوك ربنا ، وكل مَن يُنزل من فضيلته فهو نازل من عين الله تعالى ، ويأتي يوم القيامة وهو موثق ، ويحاسب أمام الله وإن صلى وصام .

وهنا أقول : إياك أيها القارئ الكريم أن تصغي لمن يتعرض لأبي بكر بسوء وتسكت ، فإذا سكتّ كنتَ شيطاناً أخرسَ ينزل عليك غضب الله . فلا بد لك من أن تغادر المجلس ، أو تنكر على مَن ذمّ ، أو أن تقول : اللهم إن هذا منكر لا أرضى به . فسبّ أبي بكر فسق وخروج عن الطاعة ، وعن مرضاة اللهﷻ ومقام الصالحين .

فأبو بكر هو حبيب الله ، وحبيب النبيﷺ . كان دائماً مع القرآن ومع النبيﷺ ، ناصراً للإسلام بماله ، ونفسه ، ووقته ، وكله .

فله فضل كبير على كل مَن يقول : لا إله إلا الله ، فإذا سمع المسلم مناقبه وذكره ﷺ ، ترضّى عنه وقال : جزاه الله عن المسلمين خيراً .

ونحن دائماً مع أبي بكر حرباً على أعدائه ، نحبه ونحب عترته ، ونسأل الله أن يعرفنا حقيقته حتى نلقاه في رحاب الله تعالى ، وعلى حوض نبيه محمدﷺ .

البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة

ذكر ما ورد من نصوص تشير إلى خلافة أبي بكر :

هناك نصوص صريحة وأحاديث صحيحة استدل بها سلفنا الصالح على خلافة أبي بكر الصديق بعد رسول اللهﷺ ، منها :

❊ ما قاله الإمام الجليل فخر الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[1] : الذين أنعم عليهم أولهم أبو بكر .

❊ ويروى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن أبيه عمر أن النبيﷺ قال : « أريتُ في المنام أني أنزع بدلو بَكْرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْباً[2] ، فلم أر عبقرياً[3] من الناس يَفْري فَرِيهُ[4] حتى رَوِيَ الناسُ وضربوا بعَطَن[5] »[6] .

١- الآية (٦) من سورة الفاتحة .
٢- أي دلواً عظيماً .
٣- هو الرجل الحاذق بعمله .
٤- أي يعمل عمله .
٥- هو ما تناخ الإبل فيه إذا رويت .
٦- رواه البخاري ومسلم .

❋ وعن جبير بن مطعم قال : « أتتِ امرأة إلى النبيﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : أرأيت إن جئتُ ولم أجدك ؟ قال : إن لم تجديني فائت أبا بكر . قالت : فإن لم أجد أبا بكر ؟ قال : فائت عمر »[1] .

وهذا الحديث فيه ترتيب الخلافة من بعدهﷺ ، وهذا ما أخذ به إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى .

❋ وروي عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال : « خطب رسول اللهﷺ الناس وقال : إن الله تبارك وتعالى خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله . فبكى أبو بكر وقال : بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول اللهﷺ عن عبد خيّره الله ، فكان رسول الله هو المُخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول اللهﷺ : إن مِن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقينّ باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر »[2] .

ومن هنا أخذ أهل السنة أنه لا بد للخليفة مِن أن يكون له باب خاص يدخل منه إلى المسجد .

❋ ومنها أن النبيﷺ قدّمه للصلاة بالمسلمين في حياته .

فعن أبي موسى الأشعريرضي الله عنه قال : « مرض النبيﷺ فاشتد مرضه ، فقال : مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . قالت عائشة : يا رسول الله ، إنه رجل رقيق

١- أخرجه البخاري ومسلم .

٢- رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية للبخاري وأحمد : (سدوا عني كل خوخة غير خوخة أبي بكر) .

إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس . فقال : مُري أبا بكر فليصلِّ بالناس ، فعادت فقال : مُري أبا بكر فليصلِّ بالناس ، فإنكن صواحب يوسف . فأتاه الرسول ، فصلى بالناس في حياة رسول اللهﷺ »[١] .

❋ وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيﷺ قال : « لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمّهم غيره »[٢] .

❋ وعن حذيفةرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « اقتدوا بالَّذين مِن بعدي : أبي بكر ، وعمر »[٣] .

❋ وكذلك حديث أنس بن مالكرضي الله عنه وهو أفضح للموضوع وأوضح ، يقول فيه : « بعثني بنو المصطلق إلى رسول اللهﷺ أنْ سله : إلى من ندفع صدقاتنا بعدك ؟ فأتيته فسألته ، فقال : إلى أبي بكر »[٤] .

ومن لازم دفع الصدقة إليه كونه الخليفة ، إذ هو المتولي قبض الصدقات .

❋ وعن سفينة مولى رسول اللهﷺ قال : « لما بنى رسول اللهﷺ مسجد المدينة ، وضع في البناء حجراً . فقال لأبي بكر : ضع حجرك إلى جنب حجري ، ثم قال لعمر : ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر ، ثم قال لعثمان : ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال : هؤلاء الخلفاء بعدي »[٥] .

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- رواه الترمذي .
٣- أخرجه أحمد وحسّنه ، وابن ماجة ، والحاكم وصحّحه .
٤- أخرجه الحاكم وصحّحه .
٥- رواه البيهقي وصحّحه في الدلائل ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ، وابن حبان ، وقال أبو زرعة : إسناده لا بأس به .

❊ ويروى عن ابن أبي مُلَيْكة قال : « قال النبيﷺ في مرضه الذي مات فيه : ادعوا لي أبا بكر ، فقالت عائشة : إن أبا بكر يغلبه البكاء ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب . قال : ادعوا لي أبا بكر ، قالت : إن أبا بكر يَرِق ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب . فقال : إنكن صواحب يوسف ، ادعوا لي أبا بكر وابنه فليكتب إن يطمع في أمر أبي بكر طامع أو يَتمَنَّ مُتَمَنٍّ . ثم قال : يأبى الله ذلك والمؤمنون ، يأبى الله ذلك والمؤمنون . قالت عائشة : فأبى الله ذلك والمؤمنون ، فأبى الله ذلك والمؤمنون »[١] .

❊ وروي عن قيس بن عبّاد قال : قال لي علي بن أبي طالبرضي الله عنه : « إن نبيكمﷺ نبي الرحمة ، لم يُقتل قتلاً ، ولم يمت فجأة . مرض ليالي وأياماً يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة ، فيقول : ائت أبا بكر فليصلِّ بالناس . فلما قُبض رسول اللهﷺ ، نظرتُ في أمري فإذا الصلاة عَلَم الإسلام وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا مَن رضيه رسول الله لديننا ، فبايعنا أبا بكر »[٢] .

وهناك أحاديث كثيرة في هذا المجال ، إنما أردتُ أن أجعلها دليلاً لخلافة سيدنا أبي بكر بعد خلافة رسول اللهﷺ . فلا مجال لخارجي مِن الخوارج أن يطعن أو أن يتكلم بخلافة أبي بكر ، بل كانت من الله قبل أن يوجد أبو بكر الصديق .

١- رواه ابن سعد في طبقاته .
٢- أخرجه ابن سعد في طبقاته ، والطبري في الرياض النضرة ، وأبو عمر وابن السمان ما معناه عن الحسن البصري .

اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة :

إن وفاة النبيﷺ كانت صدمة كبيرة للمسلمين ، وفاجعة عظيمة . ما مِن مسلم يومها إلا وصُدم ، ذوو النهى والعقول هم الذين تتعتعوا . يومها عمر أخذ سيفه وقال : مَن قال إن محمداً قد مات لأضربن عنقه ، إنما سيعود وسيضرب أعناقاً ورقاباً قالت ذلك . وهذا علي بن أبي طالب قد شُلَّ تماماً ولم يستطع أن ينطق وأن يقف على قدميه .

هكذا الرجال الكبار ، لم يجرؤ يومها على قول الحقيقة سوى أبي بكر الصديق . فقد أتى من السنح بعد أن أرسل إليه ، ودخل وقبل النبيﷺ بين عينيه ، ثم خرج وأسكت عمر الذي كان كالجمل الهائج ، ووقف قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد أيها الناس ، مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] . عمر يومها وكأنه يستيقظ من رقاده ويسأل عبدالرحمن بن عوف : ناشدتك الله ، أهذا الذي يقرؤه من كتاب الله ؟ قال : ويحك نعم .

فالمسلم الآن إذا سمع ذلك تحرّك وارتجف قلبه ، وجوارحه ، ومشاعره . فما بالك بأصحاب كانوا يحبونه أكثر مما نحبه ، وكانوا يفتدونه بكل ما عندهم من ثمين وغال ؟

١- الآية (١٤٤) من سورة آل عمران .

الأنصار كذلك من أوس وخزرج صُدموا كغيرهم ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وقالوا : نولي هذا الأمر بعد وفاة رسول اللهﷺ سعد بن عبادة . وأخرجوه من بيته مريضاً محمولاً ، وهو الذي كان كذلك يحث على البيعة للأنصار .

فمع صدمتهم ومع هذه الأعجولة ذهلوا ولم يتذكروا تلك الساعة كلام النبيﷺ بأن الخليفة بعده أبو بكر الصديق ، وصاروا في مجرة ثانية ، توفي النبيﷺ ولا بد من خليفة له .

ولما اجتمعوا وامتلأت السقيفة ، قال سعد لأبيه أو لبعض بني عمه : إني لا أقدر أن أسمع القوم كلامي ، ولكن تلقّى مني قولي فأَسْمِعْهُمُوه . فكان سعد يتكلم ويحفظ الرجل قوله ، فيرفع به صوته فيسمع أصحابه .

فحمد سعد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وقال : يا معشر الأنصار ، إنَّ لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إنَّ محمداًﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم لعبادة الرحمن ، وإلى خلع الأوثان ، فما آمن به مِن قومه سوى رجال قليل . والله ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسوله ، ولا أن يُعزوا دينه ، ولا أن يدافعوا عن أنفسهم فيما عُمُّوا به . حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنعة له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه . فكنتم أشد الناس على عدوه مِن غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيدُ المقادة صاغراً داخراً[1] ، وحتى أثخن الله لرسوله بكم الأرض ، ودانت

١ـ أي ذليلا .

بأسيافكم له العرب ، وتوفّاه الله إليه وهو عنكم راض ، وبكم قرير العين . استبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم : يا سعد ، قد وُفقتَ في الرأي ، وأصبتَ في القول ، ولن نعدو ما رأيتَ ، نوليك هذا الأمر فإنك فينا رفيع ، ولصالح المؤمنين رضاً .

ثم إنهم ترادّوا الكلام فقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقال المهاجرون : نحن المهاجرون وصحابة رسول اللهﷺ الأَوَّلون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعونا الأمر من بعده ؟ فقالت طائفة منهم : فإنا نقول إذاً : فمنا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا أبداً . فقال سعد عندما سمعها : هذا أول الوهن .

البيعة الخاصة لأبي بكر :

كان علي والعباس وعدد من الآل يشتغلون بجهاز وتغسيل رسول اللهﷺ . ويأتي يومها الخبر إلى عمر بن الخطاب : إلحق الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، فإنهم اتفقوا على أن يولوا سعد بن عبادة هذا الأمر . وكأنه ضربَ على رأسه بصاعقة ، فيهرول إلى بيت رسول اللهﷺ وهو مسجًّى بَعْدُ ، ويرسل خلف أبي بكر : أن اخرج إليّ . فأرسل إليه أبو بكر : إني منشغل ، فأرسل إليه عمر : إنه حدث أمر لا بد لك من حضوره . فخرج إليه أبو بكر ، فقال عمر : أما علمتَ أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم رأياً يقول : منا أمير ومنكم أمير ؟

فخرجا حالاً مسرعين نحو سقيفة بني ساعدة ، فلقيا في طريقهما أبا عبيدة ابن الجراح ، فتماشوا إليهم ثلاثتهم . فلقيهم عاصم بن عدي ، وعُوَيم بن ساعدة ،

وهما من الأنصار كانا في السقيفة فخرجا . فقالا لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد إخواننا هؤلاء مِن الأنصار ، قالا : فاقضوا أمركم بينكم فإنه لم يكن إلا ما تحبون . ولكنَّ عمر يرفض ذلك ويقول : يجب أن نجلس مع إخواننا وأن نتبادل أمورنا ، مَن هو الذي يجب أن يكون أميراً ؟ فقالا : لا تفعل ، فقال عمر : فأرجو أن أنال بها القوة والحقيقة ، والله لنأتينهم .

يقول عمر : فأتيناهم وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة ، وإذا بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت : مَن هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة . قلت : فما شأنه ؟ قالوا : وَجع .

ثم قام رجل منهم وهو الحُباب بن المنذر – وهو من أهل بدر – ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : فنحن الأنصار ونحن كتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهطنا ، وقد دفت إلينا من قومكم دافة . ثم قال بعد أن تكلم كثيراً : فإن أبت قريش فاطردوها من بلدكم واقتلوا هؤلاء . وتكلّم بكلمات لم تكن في محلها ، إنما كانت عن أمر أراده اللهﷻ .

فقال عمر : فلما رأيتهم يريدون أن يبعدونا عن هذا الأمر ، وقد كنت زوّرتُ في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر ، كنت أداري منه بعض الحدّ ، وهو كان أوقر مني وأحلم . فلما أردت أن أتكلم قال لي أبو بكر : على رسلك ، وكرهتُ أن أغضبه . فقام فحمد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئاً زوّرتُ في نفسي أن أتكلم به لو تكلمتُ إلا قد جاء به أو بأحسن منه .

وقال : أما بعد ، يا معشر الأنصار ، إنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا أنتم منه أهل ، وإنَّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط

العرب داراً ونسباً ، وإني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم . وأخذ بيد عمر ، وبيد أبي عبيدة .

يقول عمر بعد ذلك وهو على المنبر : وإني والله ما كرهتُ من كلام أبي بكر شيئاً غير هذه الكلمة ، أن كنت أقدّم فتضربَ عنقي أحب إلي من أن أؤمّر على قوم فيهم أبو بكر .

قال عمر : فلما قضى أبو بكر كلامه ، قام الحباب فقال : أنا جُزَيلها[1] المحكّك ، وعُذَيقها المُرَجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش . وارتفعت الأصوات وكثر اللغط ، فلما أشفقتُ الاختلاف قلت لأبي بكر : ابسط يدك لنبايعك ، فبسط يده فبايعته ، وبايعه المهاجرون والأنصار . ثم نزَوْا على سعد حتى قال قائلهم : قتلتم سعد بن عبادة ، فقلت : قتل الله سعداً . وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر ، إنا خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدِثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى ، أو نخالفهم فيكون فشل .

وفي رواية ثانية : قام الحباب بن المنذر وأراد أن يثيرها عشيرية ، فطلب من الأنصار التمسك بالإمارة وأن يقاتلوا دونها ، وأن يطردوا قريشاً من ديارهم إن أبت ذلك . فقام بشير بن سعد وكان وجيهاً في الأنصار ، فتكلم بما يرضي الله والرسول وقال : يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أوْلى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبيناﷺ ، والكدح لأنفسنا . ما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس وإلا كان رياء ، ولا نبتغي من الدنيا به عرضا ، فإن الله ولي المِنّة علينا . ألا إن محمداً من قريش ، وإن قومه أحق به

١ـ الجُزَيل هو الشاب الفتى .

وأوْلى . وَيمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم هذا الأمر . فقال أبو بكر عند ذلك : هذا عمر وأبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول اللهﷺ على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدّمك أو يتولَّى هذا الأمر عليك ، ابسط نبايعك يا أبا بكر .

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد الأنصاري ، فكان أول مَن بايع . فناداه الحُباب بن منذر : يا بشير بن سعد ، عَقَقْتَ عَقاق ، أنفسْتَ[1] على ابن عمك الإمارة ؟ قال : لا والله ، ولكن كرهتُ أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

فلما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعوا إليه قريش ، قاموا إلى أبي بكر فبايعوه ، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم .

وكانت هذه هي البيعة الأولى لأبي بكر .

البيعة العامة لأبي بكر :

كانت في اليوم الثاني ، والنبيﷺ لا زال مسجّى في حجرته لم يُصَلَّ عليه ، حيث رفضوا دفنه حتى تتم البيعة للخليفة . وهذا هو الحق وإلا لو دُفن النبيﷺ

١- بمعنى : أبَخِلتَ ؟

ولم يبايع خليفة ، لتفرّقت كلمة المسلمين ولما اجتمعت إلى يوم القيامة ، ولما وصل إلينا الدين أبداً .

فأتى الناس يومها من الأمصار ومن كل مكان ، واجتمع الصحابة وكانوا أكثر من مائة ألف ، فجلس أبو بكر على المنبر على الدرجة الأقل مِن درجة النبيﷺ ، وقام عمر وتكلّم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وقال : أيها الناس ، إني قد كنت قلت لكم مقالة بالأمس ما كانت إلا عن رأي ، فإني أعتذر لها . ثم قال : أيها الناس ، إن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوا .

فبايع الناس أبا بكر بالإجماع ، ولم يتخلّف أحد عن بيعته خلافاً للأقوال التي تقول : إنَّ سعد بن عبادة ، وعلي بن أبي طالب ، والعباس ، والزبير تخلّفوا عن البيعة .

وقيل : كانوا يتردّدون على بيت السيدة فاطمة ، فدخل عليها عمر وقال : والله يا ابنة رسول الله ، إن أباك كان أحب إلينا من أنفسنا ، وأنتِ بعده أحب إلينا من أنفسنا ، فلا يتردّدون عليك ، فإن رأيتهم يتردّدون عليك قمتُ ففعلتُ وفعلتُ . فأخبرتهم ، فقاموا وبايعوا .

وما نعتقده غير ذلك . فعلي عندما بلغه أن الناس يبايعون أبا بكر وكان يجهز النبيﷺ في البيت ، هرول وعليه قميص بدون إزار ورداء وبايع ، ثم أتي له بإزاره وردائه . وقيل : إنه بايع بعد الناس , وقيل : بعد شهرين .

وبعد أن بايع كرم الله وجهه رقى المنبر ، ومدح أبا بكر أمام الأشهاد وقال : أشهد أنه أفضل الناس بعد رسول اللهﷺ .

خطبة أبي بكر بعد البيعة :

بعد أن بويع سيدنا أبو بكرﷺ صعد المنبر وتكلّم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم[1] يرحمكم الله .

تحوله للإقامة بالمدينة :

عندما ولي أبو بكرﷺ الخلافة كان بيته بالسنح وهو بعيد عن المدينة ، فكان يأتي كل يوم ليصلي بالمسلمين على راحلته ويرجع إلى بيته . بقي على ذلك ستة أشهر ، ثم قال : لا يستقيم أمر المسلمين على هذا ، فتحوّل إلى المدينة .

وكان قد جعل بيت المسلمين بجنبه في السنح ، فلما تحوّل إلى المدينة حوّله إلى بيته . وقد طلبوا منه أن يجعل حارساً على بيت المال ، فقال : هو فارغ ، أنحرس لا شيء ؟

---

١ - يعني بالصلاة هنا الصلاة على رسول اللهﷺ ، حيث خطبة أبي بكرﷺ هذه كانت قبل دفنهﷺ .

ذكر تسميته خليفة رسول الله :

يروى في سبب تسميته بخليفة رسول الله ، أنه جاءه رجل وقال له : يا خليفة الله ، فقال : لست خليفة الله ، ولكن أنا خليفة رسول الله . فنعت من يومها بالخليفة ، وهو راض بذلك .

ثم كانت بعد البيعة أمور كثيرة وصعاب واجهها أبو بكر ، لا يدري مِن أين يتلقاها : العرب ارتدوا حول المدينة ومنعوا الزكاة ، وقالوا : نصلي ولا نزكي ، كنا ندفع الزكاة لمن كانت صلاته سكناً لنا ، والذي كانت صلاته سكناً لنا قد مات . وهذا مسيلمة الكذاب قد ارتد ومعه بنو حنيفة وأهل نجد بكاملها ، وأرادوا أن يهاجموا المدينة . وهذا العَنْسي الذي قتل أمراء رسول اللهﷺ الذين كانوا قد عُيّنوا في اليمن . وسَجاح التي كانت قد جمعت جيشاً وأرادت أن تقاتل المسلمين في المدينة .

الأمور بأكملها كانت مهتزة حوله وفي غليان تام ، إنما في الحقيقة مع نحافة جسمه ومع تواضعه كان أقوى من الجبال الراسخة ، فالعبرة ليست بالطول والعرض ، إنما العبرة بقلب الإنسان وإيمانه .

فكان خليفة رسول اللهﷺ بجدارة ، ولقد ملأ مركزه إيمانياً وروحانياً ، كما ملأه اجتماعياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، وعسكرياً ، وفي شتى المجالات .

إنفاذ جيش أسامة

بعد أن بويع سيدنا أبو بكر بالخلافة من قِبَل الأمة ، نظر إلى الأعباء التي ألقت بثقالها وحملها عليه . فرأى أسامة بن زيد الحب ابن الحب ، وكان النبيﷺ قبل موته

قد عقد له لواء أمّره على المهاجرين الأولين والأنصار ، عمر ومَن دونه ليذهب إلى بلاد الشام ليقاتل المشركين ، وليرد على مقتل أبيه زيد بن حارثة يوم مؤتة . وعندما وصل أسامة وجيشه إلى الجرف ، جاءهم نبأ وفاة الرسولﷺ ، فكانت صدمة للجيش كله وتوقف عن المسير .

وبعد أن فرغ المسلمون من تجهيز رسول اللهﷺ والصلاة عليه ، كان أول عمل قام به أبو بكر بعد البيعة أن أمر منادياً ينادي في الناس : لا يَبقينّ في المدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف . فينطلق عمر ليكون جندياً تحت راية أسامة بن زيد ، وهنا يتلقى رسالة من الجيش ومن أسامة ، أن يطلب من الخليفة أن يبقوا في المدينة ليدافعوا عنها . ثم قال له الأنصار : فإن أبى خليفة رسول الله ذلك ، اطلب منه أن يعين لنا أميراً غير أسامة ، رجلاً كبيراً مجرباً في الحرب .

فيحمل عمر الرسالة ، ويأتي إلى أبي بكر مبلغاً له ذلك . فقال له : يا خليفة رسول الله ، إن هؤلاء جُل المسلمين والعرب ، وهؤلاء العرب على ما ترى قد نقضوا العهد ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنا جماعة المسلمين وأن ترسلها إلى الشام ، ليبقى هذا الجند هنا ليدافع عن المدينة وهي قاعدة الخلافة . فيومها يقول أبو بكر الصديق : والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننتُ أن السباع تخطفني لأنفذتُ بعث أسامة كما أمر رسول اللهﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذت جيش أسامة ، والله لا أخفض راية رفعها رسول اللهﷺ . وفي رواية أخرى قال : والله لو خطفتني الكلاب أو الذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول اللهﷺ .

ثم طلب منه عمر تغيير أسامة ، فأخذ أبو بكر بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول اللهﷺ وتأمرني أن أنزعه . أخوّار

في الجاهلية جبان في الإسلام ؟ أتردّ عليهم وأنت مقتنع بقولهم ؟ ورجع عمر إلى أسامة وجيشه ، وأدّى الرسالة عليهم ، وذكر لهم ما لقي من خليفة رسول اللهﷺ .

ثم خرج أبو بكر إلى الجرف ، وشيّع جيش أسامة وهو ماش على قدميه وأسامة راكب ، وعبدالرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر . فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لَتركبنّ أو لأنزلنّ ، فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدميّ في سبيل الله ساعة ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وتمحى عنه سبعمائة خطيئة كذلك . ثم أنت أمير بعثك رسول اللهﷺ ، فأنا أسير تحت رايتك امتثالاً لقول النبيﷺ . ثم قال أبو بكر لأسامة : إن أردتَ أن تعينني بعمر فافعل ، فأذن له أسامة بعمر .

ثم وقف أبو بكر يخطب بالناس فقال : أيها الناس ، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا . ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة . ولا تعقروا[1] نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم للعبادة بالصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وسوف تلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيوف خفقاً . اندفعوا باسم الله .

١- عقر النخلة : قطعها من أصلها .

ثم أوصى أسامة أن يفعل ما أمره به رسول اللهﷺ ، فقال له : يا أسامة ، إياك أن تترك حرفاً مما أمرك به الرسول إلا فعلته .

وسار جيش أسامة في مهمته وكانوا أكثر من سبعمائة .

يقول المؤرخون والعسكريون : إن إرسال جيش أسامة كان خطة عسكرية عفوية من أبي بكر . حيث قصد أبو بكر اتباع السنة ، ولكن العرب كلهم عندما سمعوا بإرسال جيش أسامة قالوا : لولا أن عندهم ما هو أكثر لما أرسلوا هذا الجيش إلى بلاد الشام ، فكانوا بعد ذلك يرتجفون خوفاً .

كان بين المدينة وبلاد الشام قبائل كثيرة قد ارتدّت ، فكان أسامة كلما مرّ على قبيلة ورأت الجيش الكبير معه ، كانت ترجع إلى الإسلام . والذي لم يرجع كان أسامة يقاتلهم ويأخذ منهم الأموال ، حتى وصل إلى بلاد الشام وقام بمهمته حق القيام . فقاتل الروم ، وأخذ الغنائم ، وحمل الزكاة التي كانت قد مُنعت من العرب الذين ارتدوا عن الإسلام ، وعاد إلى المدينة منتصراً بعد أربعين يوماً ، وقيل : سبعين يوماً ، ورأيت روايات تقول غير ذلك . فكانت مهمته محقِقة لما كان مُؤَمّلاً عليها وزيادة .

أخبار من ادّعى النبوة من الكذابين وما كان من أمرهم

قال المؤرخون : كان قد ادّعى النبوة في حياة رسول اللهﷺ ثلاثة ، وهم : الأسود العنسي ، وطليحة الأسدي ، ومسيلمة الكذاب . وادّعت النبوة كذلك سَجاح بنت الحارث التميمية .

ذكر خبر طليحة الأسدي :

لقد بدأ أمر طليحة الأسدي في حياة رسول اللهﷺ حين ارتدّ عن الإسلام وادّعى النبوة . فلما ظهر أمره وجّه رسول اللهﷺ ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد ، وأمرهم بمقاتلة طليحة ومن ارتد معه . ونزل المسلمون بواردات ، ونزل المشركون بسُمَيراء ، فضعف أمر طليحة . وما زال المسلمون في نماء والمشركون في نقصان ، حتى همّ ضرار بن الأزور أن يسير إلى طليحة ، ولم يبق أحد إلا أخذه سلماً .

ولا زال أمر المسلمين يزداد حتى ورد الخبر بوفاة رسول اللهﷺ ، وبعد ذلك كثر جمع طليحة ، واستطار أمره ، وأمر الناس بترك السجود في الصلاة ، وادّعى أن جبريل يأتيه ، وسجع للناس الأكاذيب .

وكان مما أتى به من أكاذيبه قوله : (والحمامِ واليمامِ ، والصُّرد الصُوّامِ ، قد ضمن قبلكم بأعوامِ ، لَيَبْلُغنّ ملكنا إلى العراق والشامِ) .

وقد تبعه كثير من العرب ، وكان أكثر أتباعه من قبيلة أسد ، وغطفان ، وطَيِّء . وانضمت إليه عبس ، وذبيان بعد انهزامهما بجيوش المسلمين . وأرسل طليحة إلى جُدَيْلة والغوث – وهما حيان من طيّء – أن ينضموا إليه ، فتعجّل إليه الناس من الحَيَّيْن ، وأمروا قومهم باللحاق بهم ، فقدموا على طليحة وكانوا معه .

ولقد بعث أبو بكر الصديقرضي الله عنه بعد ذلك عدي بن حاتم الطائي قبل أن يوجه خالد بن الوليد إلى قومه ، وقال : أدركهم لا يؤكلوا . فخرج عدي إليهم ، واستطاع أن يقنعهم بالعودة إلى الإسلام .

وخرج خالد بن الوليد في أثره ، وأمره أبو بكر رضي الله عنه أن يبدأ بطيّء على الأكناف ، ثم أن يكون وجهه إلى البذاخة ، ثم يثلّث بالبطاح ، ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له .

فخرج خالد فازْوارّ عن البذاخة ، وجنح إلى أجَأٍ ، وأسلمت طيّء .

ثم سار خالد إلى طليحة ، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد جعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمْرُهُ إلى خالد .

فلما دنا خالد من القوم ، بعث عكاشةَ بن محصن ، وثابت بن أقرم بن ثعلبة العجلاني حليف الأنصار طليعةً له . حتى إذا دنوا من القوم ، خرج طليحة وأخوه سلمة ينظران ويسألان ، فلقياهما . فبرز سلمة لثابت ، وبرز عكاشة لطليحة . فأما سلمة فلم يمهل ثابت أن قتله ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه : أن أعنّي على الرجل فإنه آكل . فتعاونا على عكاشة فقتلاه ، ثم رجعا .

وأقبل خالد بالناس ، فمرّوا بثابت بن أقرم قتيلاً ، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطي بأخفافها ، فكَبُرَ ذلك على المسلمين . ثم نظروا فإذا هم بعكاشة صريعاً . فجزع لذلك المسلمون وقالوا : قُتل سيدان من سادات المسلمين ، وفارسان من فرسانهم .

ثم التقى المسلمون بعد ذلك بطليحة ومَن معه على بُذاخة ، واقتتلوا أشد قتال ، وطليحة متلفّف في كسائه بفناء بيته يتنبّأ لهم بزعمه . وكان عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة ، وكان يقاتل قتالاً شديداً . فلما اشتد القتال كرّ عيينة على طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعدُ ؟

قال : لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ضرس القتال وهزّته الحرب ، كرّ على طليحة قائلاً له : لا أبا لك ، هل جاءك جبريل بعدُ ؟ قال : لا ، فقال عيينة : حتى متى ؟ قد والله بلغ منا . ثم رجع فقاتل حتى إذا أرهق كرّ على طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعدُ ؟ قال : نعم ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال لي : (إنَّ لك رَحىً كَرَحاهُ ، وحديثاً لا تنساه) . فقال عيينة : قد عَلِمَ الله أن سيكون لك حديث لا تنساه. ونادى عيينة بقومه : يا بني فزارة ، هكذا فانصرفوا ، فهذا والله كذاب .

فانصرفوا وانهزم الناس ، ومرّوا على طليحة وهم يقولون : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعدّ فرسه وراحلته عنده ، فلما غشيه الناس قام ووثب على فرسه ، وحمل امرأته النوّار على الراحلة ، فنجا بها وقال للناس : مَن استطاع أن يفعل مثل ما فعلته وينجو بأهله فليفعل .

فارفضّ جمعه ، وقتل الله مَن قتل منهم ، وأتت قبائل سُليم ، وهوازن ، وفزارة ، وأسد ، وغطفان ، يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله وبرسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وفي أنفسنا . فبايعهم خالد بن الوليد على الإسلام .

وقال ابن الأثير هنا : وكانت بيعته : (عليكم عهد الله وميثاقه لَتؤمننّ بالله ورسوله ، ولَتقيمنّ الصلاة ، ولَتؤتنّ الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم) ، فيقولون : نعم .

وإن خالد بن الوليد رضي الله عنه لم يقبل من أحد منهم هذه البيعة إلا أن يأتوا بالذين حرقوا ، ومثلوا ، وعدوا على المسلمين في حال ردّتهم . فأتوه بهم ، فقبل منهم

إلا قُرّة بن هبيرة سيد بني عامر ونفراً معه ، أوثقهم ومَثل بالذين عدوا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورماهم بالحجارة ، وألقى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار .

وبعث بقُرّة والأسرى إلى أبي بكر الصديق ، وكتب إليه : إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت في الإسلام بعد تربص . وإني لم أقبل من أحد سألني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين ، فقتلتهم كل قتلة ، وبعثتُ إليك بقُرّة وأصحابه .

أما طليحة وما آل إليه أمره ، فإنه لحق بالشام ثم نزل على كلب ، فأسلم حين بلغه إسلام أسد وغطفان . ولم يزل في بني كلب حتى مات أبو بكر الصديقﷺ .

ويروى أنه خرج في خلافة أبي بكرﷺ من الشام إلى مكة معتمراً بعد أن أسلم ومرَّ بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة ، فقال : ما أصنع به ؟ خلوا سبيله فقد هداه الله للإسلام . فمضى نحو مكة ، فقضى بها عمرته .

ثم أتى عمرَ بن الخطابﷺ للبيعة حين استخلف ، فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ، والله لا أحبك أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، ما تنقم من رجلين أكرمهما الله بيدي ، ولم يُهنّي بأيديهما ؟ فبايعه عمر ، ورجع طليحة إلى دار قومه ، فأقام حتى خرج إلى العراق .

ذكر خبر مسيلمة الكذاب :

يروى أنه لما قدم وفد بني حنيفة إلى رسول اللهﷺ ، كان مسيلمة في رحالهم . فلما أجازهم رسول اللهﷺ قالوا : يا رسول الله ، خلفنا صاحباً لنا في رحالنا

يُبصرها لنا ، وفي ركابنا يحفظها علينا . فأمر له رسول اللهﷺ بمثل ما أمر لأصحابه ، وقال : ليس بشَرِّكُم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم .

وبعد أن رجع القوم إلى مسيلمة ، ذكروا له مقالة رسول اللهﷺ بحقه ، فقال : عرف أنَّ الأمر إليّ مِن بعده ، ثم ادّعى النبوة بعد ذلك .

وبعد أن قُبض رسول اللهﷺ قويت شوكة مسيلمة ، واشتدّ أمره ، وكثرت جموعه . وضرب حرماً باليمامة ، فكان مُحَرَّماً عندهم . وادّعى بأنه ينزل عليه الوحي ، ومن ذلك : (والليل الأطْحَم[1] ، والذئب الأدْلَم[2] ، ما انتهكت أسَيِّدُ من مَحْرَم) .

ثم عادوا للغارة والعُدوى[3] . ثم قال إنه نزل عليه : (والليل الدامس ، والذئب الهامس[4] ، ما قطعت أسَيِّدُ من رطب ولا يابس) .

ومما كان يدّعي كذلك : (والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاةِ السوداء واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض وقد حُرِّم المذق فما لكم تمْجَعون) .

ومن كلامه أيضاً : (والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً) . ونسي عدو الله أن يقول : والآكلات أكلاً .

وقد أتته امرأة فقالت : إنَّ نخلنا لسُحق ، وإنَّ آبارنا لجُرُز ، فادعُ الله لمائنا ونخلنا كما دعا محمد لأصحابه . ففعل كما فعل رسول اللهﷺ ودعا للنخل ، وتمضمض من الماء ومجّه في الآبار ، فيبس النخل ، وغارت الآبار .

١- الطحمة : سواد الليل .
٢- هو الأسود الطويل .
٣- هي العدوان والظلم .
٤- أي الشديد .

وإن مسيلمة الكذاب قد قتله وحشي في حديقته بعد معركة كبيرة ، مَن أراد ذكرها فليرجع إلى المراجع الواسعة . وقتل المسلمون معه أكثر من ثلاثين ألفاً من العرب المرتدين عن الإسلام من أتباعه وأنصاره .

ذكر خبر سجاح وما كان من أمرها مع مسيلمة :

كانت سَجاح راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم نصارى تغلب الكثير .

وكانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة ، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة ، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى أبي بكر الصديق ، ومنهم مَن توقّف حتى ينظر في أمره .

فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سُوَيد بن غطفان التغلبي من الجزيرة ، وقد ادّعت النبوة ومعها جنود من قومها ومَن انضم إليهم من العرب ، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فلما مرّت ببلاد بني تميم ، دعتهم إلى أمرها فاستجابوا لها عامة . وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي ، وعطارد بن حاجب ، وجماعة من سادات أمراء بني تميم .

وتخلّف عدد من بني تميم عنها ، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهما . إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ، ثناها عن عودها وحرّضها على بني يربوع . ثم اتفق الجميع على قتال الناس ، وقالوا : بمن نبدأ ؟ فقالت لهم فيما تسجعه : (وأعِدُّوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغِيروا على الرِّباب ، فليس دونهم حجاب) . ثم إنهم تعاهدوا على نصرها .

وبعد ذلك قصدت سجاح بجنودها اليمامة لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب ، فهابه قومها وقالوا : إنه قد استفحل أمره وعظم ، فقالت لهم فيما تقوله : (عليكم باليمامة ، دُفوا الرفيق الحمامة ، فإنها غزوة صِرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة) . ثم عمدوا إلى مسيلمة الكذاب .

فلما سمع مسيلمة بمسيرها إليه خافها على بلاده ، حيث إنه كان مشغولاً بمقاتلة ثمامة بن أثال . وبعث إليها يستأمنها ، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت عن مقاتلته .

فلما أتت بلاده ونزلت به ، أغلق مسيلمة الحصن دونها . فقالت له : انزل ، قال : فَنَحّي عنك أصحابك ، ففعلت . فقال مسيلمة لأصحابه : اضربوا لها قبة وجَمّروها لعلها تذكر الباه ، ففعلوا .

فلما دخلت سجاح القبة ، نزل مسيلمة فقال لأصحابه : ليقف ههنا عشرة . ثم دارسها فقالت له : ما أوحي إليك ؟ فقال : (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحُبلى ، أخرج منها نسَمة تسعى ، مِن بين صِفاق وحشىً) . قالت : وماذا أيضاً ؟ قال : قد أوحي إلي : (إن الله خلق النساء أفراجا ، وجعل الرجال لهنّ أزواجاً ، فنولج فيهن قُعْسا إيلاجا ، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً ، فينتجن لنا سِخالاً إنتاجا) . فقالت سجاح : أشهد أنك نبي ، قال : هل لكِ أن أتزوّجك وأذل بقومي وبقومك العرب ؟ قالت : نعم .

ولقد جرى بينهما ما يُندى له جبين ذي مروءة ، فكيف بمن يدّعي الدين والصلة برب العالمين ؟ ! ومَن أراد تفصيلا لذلك فعليه بالمراجع الكبيرة فإنها وافية بالإيضاح .

ولقد أقامت سجاح عند مسيلمة ثلاثة أيام ، ثم انصرفت إلى قومها . فقالوا لها : ما عندك ؟ قالت : كان على حق فاتبعته فتزوّجته . قالوا : هل أصْدَقَكِ شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : فارجعي إليه ، فقبيح على مثلك أن ترجع بغير صداق .

فرجعت ، فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال : ما لكِ ؟ قالت : أصدقني صداقاً ، قال : مَن مؤذنك ؟ قالت : شبث بن رِبْعي ، قال : عليّ به . فأتاه فقال : نادِ في أصحابك : إن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة الفجر ، وصلاة العشاء الآخرة .

فانصرفت سجاح ومعها أصحابها ، ومنهم رجل يقال له : عُطارد بن حاجب ، فقال :

أمست نبيّتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وقيل : إنها اتفقت مع مسيلمة على أن يحمل لها النصف من غلاّت اليمامة .

ثم بعد ذلك لم تزل سجاح بالجزيرة في أخوالها من بني تغلب حتى نقلهم معاوية ابن أبي سفيان عام الجماعة ، وجاءت معهم سجاح مسلمة وحَسُن إسلامها كما حسن إسلامهم ، وانتقلت إلى البصرة وماتت بها .

ذكر خبر الأسود العنسي :

اسمه عَبْهَلة بن كعب بن غوث . كان يلقب ذا الخمار ؛ لأنه كان متخمّراً أبداً . وقيل له ذا الحمار ؛ لأنه كان له حمار معلم يقول له : اسجد لربك فيسجد ، ويقول له : ابرك فيبرك .

وكان الأسود كاهناً مشعبذاً[1] ، وكان بشعبذته يُري قومه الأعاجيب ، ويسبي قلوب مَن سمع منطقه .

كانت ردّته أول ردّة كانت في الإسلام باليمن ، ولقد غلب على صنعاء وبلاد اليمن إلى عمان ، وإلى الطائف .

وكان أول ما خرج أن خرج من كهف خُبّان في سبعمائة مقاتل ، وكانت موطنه وداره ، وبها وُلد ونشأ . وكتب إلى عمال النبيﷺ : أيها المتمردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به .

فكاتبته مَذحِج وواعدوه نجران ، فوثب عليها وأخذها بعد حصار عشر ليال ، وأخرج عمرو بن حزم ، وخالد بن سعيد بن العاص .

ثم قصد إلى صنعاء ، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا ، فغلبه الأسود فقتله . واحتل صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه .

وعندما سمع معاذ بن جبل بخبر الأسود العنسي ، فرّ من هنالك واجتاز بأبي موسى الأشعري ، فذهبا إلى حضرموت . وانحاز عمال رسول اللهﷺ إلى الطاهر إلا عمراً وخالداً ، فإنهما رجعا إلى المدينة ، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي .

وجعل أمره يقوى ويستفحل في بلاد اليمن ، ولقد ارتدّ خلق من أهل اليمن . وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية ، وتحمّلوا أذى كثيراً من العنسي وجماعته المرتدين .

١- الشعبذة : أخذ كالسحر يُرى فيه الشيء بغير ما هو عليه .

وقد جعل على جماعته أمراء يؤيدونه ، منهم : قيس بن عبد يغوث – وهو قيس بن مكشوح – ، وقد أسند إليه أمر جنده . ومعاوية بن قيس ، ويزيد بن محرم بن حصن الحارثي ، ويزيد بن الأثكل الأزدي ، وفيروز الديلمي ، وداذويه .

ولقد تزوّج بامرأة شهر بن باذام واسمها آزاد ، وكانت امرأة حسناء . وهي مع ذلك كانت من الصالحات المؤمنات بالله تعالى ، وبرسوله محمدﷺ .

ولما علم رسول اللهﷺ بخبر الأسود العنسي ، بعث كتاباً مع رجل يقال له : وبر بن يحنث الديلمي إلى بلاد اليمن ، يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته .

وما أن وصل كتاب رسول اللهﷺ بلاد حضرموت وقرأه معاذ بن جبل ، حتى قام بهذا الكتاب أتم القيام .

وكان معاذ قد تزوّج من امرأة من السُّكون يقال لها : رملة ، وهذه القبيلة لا يستهان بها في تلك الديار . فقامت زوجة معاذ وجمعت قبيلتها على أمر رسول اللهﷺ ، حتى قاموا جميعاً مع معاذ وبلّغوا هذا الكتاب إلى عمال النبيﷺ الذين انحازوا آنذاك إلى أماكن آمنة في بلاد اليمن ، وإلى مَن قدروا عليه كذلك من الناس .

ولقد اتفق اجتماع بعض رؤساء السكون بقيس بن مكشوح أمير جند الأسود العنسي ، وكان قد غضب على الأسود واستخفّ به وهمّ بقتله . وكذلك كان أمر فيروز الديلمي قد علم من العنسي الكذب ، وكذلك داذويه .

وكان وبر بن يحنث الديلمي الذي حمل كتاب رسول اللهﷺ إلى بلاد اليمن قد اجتمع كذلك بقيس بن مكشوح ، وتباحثا في أمر العنسي .

وبعد اقتناع قيس بفساد رأي العنسي وضلاله وتدجيله ، وأنه شيطان يأتيه شيطان . وافقه على الفتك بالأسود ، وتوافق المسلمون في تلك الناحية على قتل الأسود العنسي ، وتعاقدوا عليه .

وهنا يتدخل شيطان العنسي ، ويخبره بما أجمع عليه المسلمون ، وأنَّ قيس ابن مكشوح قد تواطأ معهم على ذلك . عندها استدعى العنسي قيس بن مكشوح وقال له : يا قيس ، ما يقول هذا ؟ قال : وما يقول ؟ قال : يقول : عمدتَ إلى قيس فأكرمته ، حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، تآمر عليك مع عدوك على استيلاء ملكك ، وأضمر على الغدر . إنه يقول : يا أسود ، يا أسود . يا سوأة ، يا سوأة . اقْطُفْ قُنته وخذ من قيس أعلاه ، وإلا سلبك أو قطف قُنتك . فحلف له قيس بأيامين ابتدعها العنسي بأنه لا يعرف ذلك ، ولا ينوي له غدراً ولا سوءً . ثم قال : لأنت أعظم في نفسي وأجل عندي مِن أن أحدّث نفسي بك ، فقال له الأسود : لا تستطيع أن تكذب الملك ، فقد صدق الملك وعرفتُ الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك .

ثم خرج قيس من بين يديه ، فجاء إلى أصحابه : فيروز وداذويه وغيرهما ، وأخبرهم بما قال له العنسي وبما ردّ عليه ، فقالوا : كلنا على حذر .

فبينما هم يتشاورون ، إذ جاءهم رسول العنسي فأحضرهم إليه . ثم قال لهم : ألم أشَرّفكم على قومكم ؟ قالوا : بلى . قال : فماذا يبلغني عنكم ؟ قالوا : أقِلْنا مرّتنا هذه ، فقال : لا يبلغني عنكم بعد اليوم ما لا أحب .

وبعد ذلك يقول قيس : فدخلت على امرأة العنسي آزاد فقلت : يا ابنة عم ، قد عرفتِ بلاء هذا الرجل ، وعلمتِ أنه قتل زوجك ، وطأطأ في قومك القتل ،

وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ؟ فقالت : على أي أمره ؟ قلت : إخراجه ، فقالت : أو قتله . قلت : أو قتله ؟ قالت : نعم ، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه . ثم قالت : والله إنه لا يقوم لله على حق ، ولا ينتهي له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأخبروني أعلمكم بما في هذا الأمر .

ولقد اجتمع رأي المسلمين على قتل الأسود العنسي بعد ذلك ، وشيطان العنسي يخبره بما يدور حوله ، فصمّم العنسي أن يقتل قيس بن مكشوح ومَن معه ، واتفق مع بعض أعوانه أن ينفذ ذلك بعد يومين . وسمع قيس ذلك حيث كان داخلاً عليه ، وأخبر بذلك أصحابه المسلمين ، وقرّر الجميع مسابقته الأمر .

فدخل قيس بن مكشوح على زوجة العنسي ، فقالت بعد أن أعلمها بالأمر : إنه ليس في الدار بيت إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق . فإذا أمسيتم فانقبوا عليه من دون الحرس ، وليس من دون قتله شيء ، وإني واضعة في البيت سراجاً وسلاحاً .

فلما خرج قيس مِن عند المرأة ، تلقّاه الأسود فقال له : ما أدخلكَ على أهلي ؟ وأمسك رأسه بشدة وكان شديداً ، فصاحت المرأة فأدهشته عنه ، ولولا ذلك لقتله . وقالت : ابن عمي جاءني زائراً ، قال : اسكتي لا أبا لك ، فقد وهبته لك .

فخرج قيس على أصحابه فقال : النجاءَ النجاءَ ، وأخبرهم الخبر . فحاروا ماذا يصنعون ، فبعثت المرأة إليهم تقول لهم : لا تنثنوا عما كنتم عازمين عليه . فدخل عليها قيس فاستثبت منها الخبر ، ودخل بعض المسلمين إلى ذلك البيت فنقبوا من داخله وطائنه ؛ ليهون عليهم النقب مِن خارج .

ثم جلس قيس عند زوجة العنسي جهرة كالزائر ، فدخل عليه الأسود فقال : وما هذا ؟ قالت : إنه أخي من الرضاع ، وهو ابن عمي . فنهره وأخرجه ، فرجع إلى أصحابه وأخبرهم بما حصل معه .

وانتظروا حتى الليل ، ثم أتوا بيت الأسود فنقبوه من الطريق ، فدخلوا فوجدوا فيه سراجاً تحت جفنة . فتقدّم إليه فيروز والأسود نائم على سرير من حرير ، قد غرق رأسه في جسده وهو سكران يغط ، والمرأة جالسة عند رأسه . فلما قام فيروز على الباب ، أجلس الأسودَ شيطانه ، وتكلّم على لسانه وهو مع ذلك يغط في نومه . فقال الشيطان : ما لي ومالك يا فيروز ؟ فخشي فيروز إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة ، فعاجله فخالطه وهو مثل البعير ، فأخذ رأسه فدق عنقه ، ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله . ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم ، فأخذت المرأة بذيله وقالت : أين تدعني؟ – ظانة أن الأسود لم يقتل – ، فقال : أخرج لأُعلم أصحابي بقتله .

فدخلوا عليه ليحتزوا رأسه ، فحرّكه شيطانه فاضطرب ، فلم يضبطوا أمره حتى جلس اثنان على ظهره ، وأخذت المرأة بشعره ، وجعل يربر[1] . فاحتز رأسه واحد ممن دخل عليه من المسلمين ، فخار كأشد خوار ثور سُمع قط . فابتدر الحرس إلى المقصورة ، فقالوا : ما هذا ، ما هذا ؟ فقالت المرأة : النبي يوحى إليه ، فرجعوا .

وجلس قيس ، وداذويه ، وفيروز ، يأتمرون كيف يُعلمون أشياعهم ، فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح ينادون بشعارهم الذي بينهم وبين المسلمين .

١- بربر بلسانه : أي خلط في الكلام مع غضب ونفور .

فلما كان الصباح ، قام قيس على سور الحصن فنادى بشعارهم ، فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن ، فنادى قيس – ويقال : وبر بن يحنث – الأذان : (أشهد أن محمداً رسول الله ، وأن عَبْهَلَة كذاب) ، وألقى إليهم رأسه .

فانهزم أصحاب الأسود ، وتبعهم الناس يأسرونهم ويرصدونهم في كل طريق ، وظهر الإسلام وأهله ، وتراجع نواب رسول اللهﷺ إلى أعمالهم ، واستتبّ أمر المسلمين بعون الله وبحمده ، وقد اتفق المسلمون على معاذ بن جبل يصلي بالناس في بلاد اليمن .

وكتبوا بالخبر إلى رسول اللهﷺ ، فوصلت البشارة إلى المدينة صبيحة توفي رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . علماً أن الله تبارك وتعالى أطلع رسوله على خبر مقتل العنسي من ليلته ، وأخبر النبيﷺ أصحابه بأن العنسي قتل البارحة ، وقال : قتله رجل مبارك من أهل بيت المباركين ، قيل : ومَن هو ؟ قال : فيروز فيروز .

وفي رواية عن سيف بن عمر عن المستنير عن عروة عن الضحّاك عن فيروز قال : قتلنا الأسود وعاد أمرنا في صنعاء كما كان ، إلا أنا أرسلنا إلى معاذ بن جبل فتراضينا عليه ، فكان يصلي بنا في صنعاء . فوالله ما صلى بنا إلا ثلاثة أيام حتى أتانا الخبر بوفاة رسول اللهﷺ ، فانتقضت الأمور وأنكرنا كثيرا مما كنا نعرف .

وقيل : إن خبر مقتل العنسي جاء إلى الصديق في أواخر ربيع الأول بعدما جهّز جيش أسامة ، والله أعلم .

وقد قيل : إن مدة ملك العنسي منذ ظهر إلى أن قُتل كانت ثلاثة أشهر ، وقيل : أربعة أشهر ، والله أعلم بذلك .

وقد روى أبو عمر بن عبد البر بسند يرفعه إلى شرحبيل بن مسلم الخولاني : أن الأسود بعث إلى أبي مسلم عبدالله الخولاني ، فلما جاءه قال : أتشهد أني

رسول الله ؟ قال : ما أسمع . قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . فردّد ذلك عليه ، كل ذلك يقول مثل ذلك . قال : فأمر بنار عظيمة فأُجّجَت ، ثم ألقي فيها أبو مسلم الخولاني فلم تضره شيئاً . فقيل للأسود : انفه عنك وإلا أفسد عليك مَن اتبعك ، فأَمَرَه بالرحيل .

فأتى أبو مسلم المدينة وقد قُبض رسول اللهﷺ واستخلف أبو بكر الصديقرضي الله عنه ، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد وقام فصلى إلى سارية. وبصر به عمر بن الخطابرضي الله عنه فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل اليمن ، قال : ما فعل الذي أحرقه الكذاب بالنار ؟ قال : ذاك عبدالله بن ثوب ، قال : أنشدك الله ، أنت هو ؟ قال : اللهم نعم . قال : فاعتنقه عمر فبكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر ، ثم قال : الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى في أمة محمدﷺ من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله .

وبعد وفاة رسول اللهﷺ اضطربت الأمور من جديد في بلاد اليمن ، ثم قام أبو بكر الصديقرضي الله عنه وتصدّى لكل من تزعزع إيمانه ، وأعاد الأمور إلى نصابها في بلاد اليمن وغيرها وذلك بتوفيق اللهﷻ ، والحمد لله على نعمة الإسلام .

ذكر غزوة أبي بكر وقتاله أهل الردة وعبس وذُبيان

قال المؤرخون : لما قُبض رسول اللهﷺ ارتدّ العرب إلا قريشاً وثقيفاً ، وأتت وفود العرب إلى أبي بكر الصديقرضي الله عنه مرتدين ، يُقِرُّون بالصلاة ويمنعون الزكاة ، فلم يقبل ذلك منهم وردّهم .

وروي عن أبي هريرةﷺ قال : « لما توفي رسول اللهﷺ واستخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبي بكر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول اللهﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : (لا إله إلا الله) عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله . فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . والله لو منعوني عقالاً[1] كانوا يؤدونه إلى رسول اللهﷺ لقاتلتهم على منعه . فقال عمر بن الخطاب : فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق »[2] .

وخرج أبو بكر الصديق في جمادى الآخرة ، واستخلف على المدينة أسامة ابن زيد ، وقيل : سِناناً الضمري . وسار فنزل بذي القَصّة[3] ، وكان رسول اللهﷺ بعث نوفل بن معاوية الديلمي على الصدقة ، فلقيه خارجة بن حصن بالشربة[4] ، فأخذ ما في يده وردّه على بني فزارة ، ورجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة .

فأول حرب كانت في الردة بعد وفاة رسول اللهﷺ حرب العنسي في اليمن ، ثم حرب خارجة بن حصن ومنظور بن ذبان بن سيّار في غطفان والمسلمون غارّون[5] . فانحاز أبو بكر إلى أكمة فاستتر بها ، ثم هزم الله المشركين .

وروي أن أول غزاة غزاها أبو بكر كانت إلى عبس وذبيان ، وأنه قاتلهم وهزمهم ، واتبعهم حتى نزل بذي القصة ، وكان ذلك أول الفتح . ووضع أبو بكرﷺ

١- العقال هو الحبل الذي يُعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة .
٢- رواه مسلم عن قتيبة بن سعيد ، وأخرجه الطبري في الرياض النضرة .
٣- هو موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا .
٤- هي موضع في بلاد نجد .
٥- بمعنى غافلون .

بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة ، فوثب بنو عبس وذبيان على مَن فيهم مِن المسلمين فقتلوهم ، فحلف أبو بكرﷺ ليقتلن في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة .

وقَدِمت رسل رسول اللهﷺ من اليمن واليمامة وبلاد بني أسد ، ووفود مَن كان كاتبه النبيﷺ . وأمِرَ أمرُه في الأسود ، ومسيلمة ، وطليحة بالأخبار والكتب . فدفعوا كتبهم إلى أبي بكر وأخبروه الخبر ، فقال لهم : لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمرّ بانتقاد الأمور . فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبيﷺ من كل مكان بانتقاد من ارتد على المسلمين بأنواع الميل والحجج .

فحاربهم أبو بكرﷺ بما كان النبيﷺ يحاربهم ، حاربهم بالرسل . فردّ رسلهم وأتبع الرسل رسلاً من عنده ، وانتظر لمصادمتهم قدوم أسامة بن زيد من بلاد الشام . وطرقت المدينة صدقاتُ نفر كانوا على الصدقة ، وهم : صفوان ابن صفوان ، والزرقان بن بدر ، وعدي بن حاتم ، فازداد المسلمون قوة .

ثم قدم أسامة بن زيد ، فاستخلفه أبو بكرﷺ على المدينة ومعه جنده ليستريحوا ، ثم خرج بمن كان معه من المسلمين ، فناشده المسلمون ليقِم ، فأبى وقال : لأُواسينكم بنفسي .

فسار إلى حُثَىً وذي القصّة حتى نزل بالأبرق ، فقاتل مَن به من المشركين فهزمهم ، وأخذ الخُطَيْأة أسيراً . وأقام بالأبرق أياماً ، ثم رجع إلى المدينة ولحق مَن انهزم من عبس ، وذبيان ، وطليحة .

ذكر عقد أبي بكر الألوية وتجهيز الجيوش لقتال أهل الردة وما عهد لأمرائه

قال شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبري في تاريخه ما مختصره : لما رجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المدينة ، وأراح أسامةُ وجندُه ظهرهم وتنشّطوا ، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية ، فكانوا أحد عشر لواء :

١- لواء خالد بن الوليد : وأمره بطليحة ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطحاء إن أقام له .

٢- لواء عكرمة : وأمره بمسيلمة الكذاب باليمامة .

٣- لواء المهاجر بن أبي أمية : وأمره بجنود العنسي ، ثم يمضي بعد ذلك إلى كِندة بحضرموت .

٤- لواء خالد بن سعيد بن العاص : وبعثه إلى الحَمْقَتين من مشارف الشام .

٥- لواء عمرو بن العاص : وأرسله إلى جماع قضاعة ، ووديعة ، والحارث .

٦- لواء حذيفة بن محصن الغلفاني : وأمره بأهل دبا .

٧- لواء ابن هرثمة : وأمره بمَهْرة . كما أمره وحذيفة أن يجتمع كل واحد منهما بعمله .

٨- لواء شرحبيل بن حسنة : وبعثه في أثر عكرمة بن أبي جهل ، وقال : إذا فرغتَ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة .

٩- لواء معن . وقيل : طريفة . بن حاجز : وأمره ببني سليم ومَن معه مِن هوازن .

١٠- لواء سُوَيد بن مقرن : وأمره بتهامة اليمن .

١١- لواء العلاء بن الحضرمي : وأمره بالبحرين .

ففصلت الأمراء من ذي القصة ، ولحق بكل أمير جنده . وكان عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إليهم هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى فلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سرِّه وعلانيته .

وأمره بالجدِّ في الله ، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام . فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم وبالذي لهم ، ويأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، ولا يُنظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم .

فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قُبلَ ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله .

وإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه فيما استتر به . ومن لم يُجب داعية الله قُتِلَ وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه[1] .

ولا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قُبل منه وعَلَّمَه ، ومن أبى قاتله . فإن أظهره الله عليهم قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسّم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يُبَلِّغُناه .

وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد . وألا يدخل فيهم حشوة حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، ولا يكون عيوناً ، ولئلا يُؤتى المسلمون من قبلهم .

وأن يقتصر بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ، ولا يعجل بعضهم على بعض .

ويستوصي بالمسلمين في حُسْنِ الصحبة ، ولين القول .

والله تعالى أعلم بالصواب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد .

١- المراغم هي المهرب ، والمذهب ، والحصن .

وكتب كذلك إلى سائر من ارتد نسخة واحدة ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول اللهﷺ إلى مَن بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه :

سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدي إلى الضلالة والعمى .

فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأقر بما جاء به .

أما بعد ،

فإن الله أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ؛ لينذر مَن كان حياً ويحق القول على الكافرين . فهدى الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسول اللهﷺ بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً . ثم توفي رسول اللهﷺ وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمته ، وقضى الذي عليه . وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] .

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾[2] .

وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[3] .

فمن كان إنما يعبد محمداًﷺ ، فإن محمداً قد مات . ومَن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد ، حي قيوم لا يموت ، ولا تأخذه سِنة ولا نوم ، حافظٌ لأمره ، منتقمٌ من عدوه يُجْزِيه .

١- الآية (٣٠) من سورة الزمر .
٢- الآية (٣٤) من سورة الأنبياء .
٣- الآية (١٤٤) من سورة آل عمران .

وإني أوصيكم بتقوى الله ، و حظكم ونصيبكم من الله ، و ما جاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل مَن لم يهده الله ضالٌّ ، وكل مَن لم يعافه الله مبتلى ، وكل مَن لم يُعِنْهُ الله مخذول .

فمن هداه الله كان مهتدياً ، و من أضله الله كان ضالاً ، فإنه قال : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1] . ولم يُقبل منه في الدنيا عمل حتى يقرّبه ، ولم يُقبل له في الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغني رجوع مَن رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام ، وعمل له اغتراراً بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابة للشيطان .

و قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾[2] .

و قال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[3] .

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، وأمرته ألاّ يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقرّ ، وكفّ وعمل صالحاً ، قُبلَ منه وأعانه عليه . و من أبى أمرتُ أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ، وأن يقتلهم كل قتلة ، ويسبي النساء والذراري ، ولا يقبل مِن أحد إلا الإسلام . فمن اتبعه فهو خير له ، ومَن تركه فلن يُعجز الله .

وقد أمرت رسلي أن يقرؤوا كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان . فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم . وإن أذنوا اسألوهم : ما علّتهم ؟ فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم .

١- الآية (١٧) من سورة الكهف .
٢- الآية (٥٠) من سورة الكهف .
٣- الآية (٦) من سورة فاطر .

ثم نفذت الرسل بالكتب أمام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم العهود .

وركب يومها أبو بكر جواده وأراد أن يذهب مقاتلاً لهؤلاء ، فقال له علي ابن أبي طالب : يا خليفة رسول الله ، لا أقول لك إلا كما قال لك رسول اللهﷺ يوم بدر : يا أبا بكر متعنا بنفسك ، فإنك لو قُتلتَ لما استقام الأمر لأحد بعدك .

فرجع يومها أبو بكر ، وأرسل مَن قام بالمهمة حق القيام . وجد رجالاً مسلمين مؤمنين ، وقفوا وقفة الأسود ، وقاتلوا أعداء الله حتى أعادوا الحق إلى نصابه .

وكانت المعركة النهائية بين جيوش المسلمين وبين المرتدين ، قاتلهم المسلمون وقتلوهم ، ومنهم مَن فرّ إلى الجبال ثم عاد وأسلم .

وهكذا بفترة وجيزة دانت الحجاز والجزيرة العربية بكل أطرافها لهذا العبد الذي سار على قدم سيدنا رسول اللهﷺ . وجد أمامه أعباء ثقيلة ، ولكنه تحمّلها بإيمان أقوى منها .

وهذا إنما يدل على تمسك أبي بكر بسنة النبيﷺ وبأوامره ، وأنه ما التفت إلى مواطن الضعف والوهن ، ولا إلى أقوال الآخرين . إنما كان يصر لأن رسول اللهﷺ قال ذلك . بقي على طريق النبيﷺ شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، ما زاغ شعرة واحدة ، وبهذا انتصر .

ومن هنا أقول : لو اتبع المسلمون في زماننا هذا خطة أبي بكر وسنة نبيهمﷺ لما وصلوا إلى ما نراه من الضعف والهوان ، ولو تمسّكنا بديننا لبقي الله معنا في أمورنا كلها ، ولكنا أكرم أمة .

ذكر أخلاق أبي بكر وحياته في خلافته

إنَّ ما ذكرناه من مناقب وحياة الصديق الأكبر كان نبذة لنتذكر بعض أخلاقه ، وكان عبارة عن طرف خيط نتمسّك به علّنا نقتدي به .

ولو قرأتَ القرآن لوجدته مطبقاً له على نفسه رضي الله عنه وأرضاه عنا آمين .

كانﷺ مَلَكاً يسير على الأرض ، إيمانه أقوى من الجبال الراسخة . سخره الله ليكون مصدقاً للنبيﷺ ، وخادماً للإسلام .

عمل وكان يقصد بعمله وجه الله ، لا الأجر من فلان أو آخر ، إنما الأجر والثواب من ملك الملوك سبحانه .

❋ ورعه وخشيته من الله :

هو مِن الذين قال الله تعالى بحقهم : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ، فهو من أسياد مَن خشي الله .

وهو الذي كان يأنف أن يتناول خمراً ، وحرّمه على نفسه جاهلية وإسلاماً .

فقد قيل لأبي بكر في مجمع من الصحابة : هل شربتَ الخمر في الجاهلية ؟ فقال : أعوذ بالله . فقيل : ولِمَ ؟ قال : كنت أصون عرضي ، وأحفظ مروءتي ، فإنَّ مَن شرب الخمر كان مُتضيّعاً في عِرضه وفي مروءته . فبلغ ذلك رسول اللهﷺ فقال : صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر[1] .

١- أخرجه ابن عساكر ، وهو حديث مرسل .

❋ حلمه ورحمته :

كان ﷺ حليماً ، شهماً ، حلمه دائماً يسبق غضبه فيعفو عمّن جهل عليه ، لا يقابل السيئة بالسيئة .

وهو الذي اقترح على النبي ﷺ يوم بدر عندما استشاره بالأسرى ، بقوله : يا رسول الله ، إنهم أولاد عمك وقرابتك ، فلو عفوتَ عنهم عفا الله عنك . وهذا مما يدل على رحمته ﷺ .

❋ حبه للنبي ﷺ :

إنه رجل كان صديق النبي ﷺ في الإسلام وقبل الإسلام ، وهو الذي قال ليلة الإسراء والمعراج : صدقتَ يا رسول الله .

كان دائماً عن يمين النبي ﷺ ، عاش ومات وحب النبي في قلبه ، وعيونه ، وذراته كلها .

ولقد شارك النبي ﷺ في جميع غزواته وبدون استثناء .

وكان دائماً يدافع عنه في الحل وفي السفر .

يروى عن عروة بن الزبير قال : « سألت عبدالله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ، قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً . فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ »[1] . فتركوا يومها النبي ﷺ وبدؤوا يضربون أبا بكر .

١- رواه البخاري .

❋ زهده وتواضعه :

كانﷺ العابد ، البكاء ، التقي ، الزاهد .

أسلم ومعه أربعون ألفاً من الدراهم ، فأنفقها كلها على النبيﷺ وعلى الإسلام ، ولم يترك لنفسه ولا لأولاده شيئاً .

يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « كنت عند النبيﷺ وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال ، فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال ؟ فقال النبيﷺ : أنفق ماله عليّ قبل الفتح . قال : فإن الله يقرأ عليه السلام ويقول : قل له : أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أسْخَطُ على ربي ؟ أنا عن ربي راض ، أنا عن ربي راض ، أنا عن ربي راض »[1] .

وكانﷺ يدخل السوق ويبيع ويشري ، فقال : لا والله لا تصلح التجارة أمورَ الناس ، وما يُصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ، ولا بد لعيالي مما يصلحهم . فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يُصلحه ويُصلح عياله يوماً بيوم ، ويحج ويعتمر ، وقَبلَ بعيش زهيد بعد أن كان تاجراً كبيراً . وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم .

وكان كلما جاءه أموال لم يبت حتى يوزعها . ومن ذلك أن ظهر في عهده منجم ومعدن بني سلمة ، فكان يأخذ منه ويوزع على المسلمين .

١- أخرجه ابن عساكر والبغوي ، وهو حديث ضعيف جداً .

كما كان عنده غنيمات يرعاها في بعض الأوقات ، وفي بعضها يرسل راعياً مع غنمه .

وعندما ولي الخلافة كانﷺ يعس وينظر أحوال المسلمين ليل نهار ، يمر على الأرامل ، والثكالى ، واليتامى ، وعلى كل محتاج . يسير إلى بيوت الضعفاء والفقراء ليواسيهم ، يحمل إليهم الدقيق على كتفه ، ويحمل الطعام والسمن من بيت مال المسلمين ، وإذا وجد حاجة غير ذلك قدّمها ، ويقول : أنا أولى بخدمة المسلمين من غيري . ما رأى نفسهﷺ يوماً أفضل من أي مسلم آخر .

وكانﷺ يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية مِن الحي : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا . فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمري لأحلبنّها لكم ، وإني لأرجو ألا يُغيّرني ما دخلت فيه عن خلُق كنت عليه .

الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر

❊ ❊ فتوح العراق ❊ ❊

إرسال خالد بن الوليد إلى العراق :

كان إرسال خالد بن الوليد إلى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة من الهجرة النبوية .

وكان الذي هيّج أبا بكرﷺ لذلك ما حكاه أبو عمرو بن عبد البر من حديث الأصمعي عن سلمة بن بلال عن أبي رجاء العطاردي ، قال : إنَّ المثنى بن حارثة الشيباني كان يُغِير على أهل فارس بالسواد ، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره ، فقال عمر بن الخطابﷺ : مَن هذا الذي تأتينا مواقعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال

قيس بن عاصم : أما إنه غير خامل الذِكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل العمارة[1] ، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني .

ثم قدم المثنى على أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله ، ابعثني على قومي أقاتل بهم أهل فارس . ففعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ذلك ، وقدِم المثنى إلى العراق ، فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحي السواد حولاً كاملاً .

ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يسأله المدد ، ويقول : إنْ أمددتني وسَمِعَتْ بذلك العرب أسرعوا إليّ ، وبذلك يُذل الله المشركين ، مع أني أخبرك يا خليفة رسول الله أنَّ الأعاجم تخافنا وتتقينا . فقال يومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ، ابعث خالد بن الوليد مدداً للمثنى بن حارثة يكون قريباً من أهل الشام ، فإن استغنى عنه أهل الشام ألح على أهل العراق حتى يفتح الله عليه .

وقد كتب بعدها أبو بكر الصديق رضي الله عنه كتاباً إلى المثنى بن حارثة الشيباني يقول فيه : إني قد ولّيتُ خالد بن الوليد فكن معه . وكان المثنى بسواد الكوفة ، فخرج خالد فتلقاه .

موقعة ذات السلاسل وفتح الأُبُلَّة :

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل : أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق ، وأوصاه أن يبدأ بمنطقة الأُبُلّة ، وأن يتألف أهل فارس وكل مَن كان في ملكهم من الأمم .

١- هي الحي العظيم .

فسار خالد حتى نزل بيانقْيا ، وباروسْما ، وأليس . فصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار .

ثم سار خالد لقتال هرمز . فلما سمع هرمز بالمسلمين ، كتب إلى أزدَشير بالخبر واستمدّه . وحصل اللقاء بعد ذلك ، وخرج هرمز ودعا خالداً للبراز ، ووطّأ أصحابه على الغدر بخالد إذا خرج .

فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلاً ، وبرز هرمز واقتتلا ، فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز ، فما شغله ذلك عن قتله . وحمل القعقاع بن عمرو ، فأنهى أهل فارس وركبهم المسلمون .

وسُمّيت هذه الوقعة بذات السلاسل ، وكانت عدة أصحاب خالد ثمانية عشر ألفاً . ونجا قُباذ وأنوفيجان ، وأخذ خالد سلب هرمز وهو قلنسوته ، وقد قدرت بمائة ألف دينار يومها . ثم بعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ثم سار خالد حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة ، وبعث المثنى ابن حارثة في آثارهم .

وبعث مُقَرّنَ إلى الأُبُلّة ففتحها ، وجمع الأموال بها والسبي .

وقيل : إن الأُبُلّة فُتحت في خلافة عمر ، والله أعلم .

ذكر وقعة الثّنى :

قال ابن الأثير : ولما وصل كتاب هرمز إلى أزدشير بخبر خالد بن الوليد ، أمدّه بقارن بن قريانس . فلقيه المنهزمون ، فرجعوا معه وفيهم : قباذ وأنوفيجان ، فنزلوا منطقة الثنى وهو النهر .

وسار إليهم خالد بن الوليد ، والتقوا هناك واقتتلوا . فبرز قارن فقتله معقل بن الأعشى ، وقتل عاصم أنوفيجان ، وقتل عدي قباذ ، وقُتل من الفرس يومها قتلة عظيمة يبلغون ثلاثين ألفاً سوى من غرق في الماء .

فقسّم خالد بن الوليد الفيء بعد أن خمسه ، وأرسل بالأخماس إلى المدينة ، وأعطى الأسلاب مَن سلبها – وكما يلاحظ كانت غنيمة عظيمة – ، ثم أخذ الجزية من الفلاحين .

ذكر وقعة الولجة وأليس :

كانت وقعة الولجة في صفر سنة اثنتي عشرة من الهجرة ، فأصاب خالد ابناً لجابر بن بُجَيْر ، وابناً لعبد الأسود بن بكر بن وائل .

ثم وقعت وقعة أليس في شهر صفر كذلك من نفس التاريخ السابق ، وانتصر خالد فيها نصراً بليغاً ، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً .

وقعة الفرات وفتح الحيرة :

كان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول ، وقد كتب لهم خالد كتاباً . فلما كفر أهل السواد ضيّعوا الكتاب ، ثم افتتحها المثنى ثانية .

وافتتحها سعد بن أبي وقاص ثالثة بعد أن نكثوا ، ووضع عليهم أربعمائة ألف .

فتح الأنبار وعين التمر :

كان فتح الأنبار وبعدها عين التمر على يد خالد بن الوليد .

ثم أرسل إلى أبي بكر بالخبر ، والخمس ، والسبي ، فكان أول سبي قدم المدينة من العجم .

وجعل خالد بن الوليد على عين التمر عويمراً السُّلَمي .

وقعة دومة الجندل :

بعد أن فتح خالد بن الوليد عين التمر ، أتاه كتاب عياض بن غنم يستمده على مَن بإزائه من المشركين . فسار إليه خالد ، وبعد معارك انتصر جيش المسلمين ، وفُتحت دومة الجندل ، وأقام خالد بها .

موقعة مُصَيَّخ :

قال ابن الأثير : ولما انتهى خبر تجمع المشركين في مُصَيَّخ إلى خالد ، كتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى ، وواعدهم بوقت معلوم يجتمعون في المُصَيَّخ لقتال هذيل بن عمران ومن معه . فأغاروا عليه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فقتلوهم ، وأفلت الهذيل في نفر قليل .

فتح الثنى والزميل :

ثم سار خالد إلى الثنى والزميل – وهما شرقي الرصافة – ، فأصاب خالد غنائم كثيرة وسبياً كبيراً ، وبعث بالخبر والخمس إلى أبي بكر .

وكان في السبي بنت ربيعة بن بُجَيْر التغلبي ، فاشتراها علي بن أبي طالب ، فولدت له عمر ورقية .

موقعة الفراض :

ثم سار خالد بن الوليد إلى الفِراض وهي تخوم الشام والجزيرة ، وصادف فيها شهر رمضان ، فأفطر مع مَن معه لاتصال الغزوات .

ويومها حميت الروم واستعانوا بمن يليهم من الفرس فأعانوهم ، واجتمع معهم تغلب ، وإياد ، والنمر .

وحصل يومها قتال شديد انتهى عن قتل الروم ومن معهم . وأمر يومها خالد بتتبع المنهزمين منهم ، وألا يُرفع عنهم السيف . فقتل في المعركة وفي الطلب مائة ألف .

وأقام خالد على الفِراض عشراً ، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة من الهجرة الشريفة .

وخرج من الفِراض سراً ومعه عدة من أصحابه ، فعسفوا[1] البلاد حتى أتى مكة ، فحجّ ورجع . وكانت غيبته عن الجند يسيرة ، ولم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك .

❊ ❊ فتوح الشام ❊ ❊

قال ابن الأثير :

وفي سنة ثلاث عشرة وجّه أبو بكر رضي الله عنه الجنود إلى الشام بعد منصرفه من مكة إلى المدينة . فبعث عمرو بن العاص قِبَل فلسطين . وبعث يزيد بن أبي سفيان ،

١- بمعنى ضربوا فيها سيراً .

وأبا عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من علياء الشام .

وقيل : أول لواء عقده أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند توجيهه الجنود إلى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص ، ثم عزله قبل أن يسير وولّى يزيد بن أبي سفيان ، وكان عزله عن رأي عمر بن الخطاب .

ثم قدم عكرمة بن أبي جهل على أبي بكر فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين ، فجعل أبو بكر عكرمة رداء للناس .

وبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل ، فخرج حتى أتى حمص فأعدّ لهم الجنود . وأرسل أخاه إلى عمرو بن العاص ، فخرج نحوه في تسعين ألفاً فهابهم المسلمون .

وكان يومها جميع فرق المسلمين واحداً وعشرين ألفاً سوى عكرمة ومن معه ، فإنه كان في ستة آلاف . فكتبوا إلى عمرو بن العاص : ما الرأي ؟ فكاتبهم أنَّ الرأي الاجتماع ، وذلك أنَّ مثلنا إذا اجتمع لا يُغلب من قلة . فابتعدوا اليرموك ليجتمعوا به .

وكان المسلمون قد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كتبوا به إلى عمرو بن العاص ، فجاءهم كتاب الصديق بمثل ما رأى عمرو بن العاص .

ولقد بلغ ذلك هرقل ، فكتب إلى بطارقته : أن اجتمعوا لهم ، وانزلوا بالروم منزلاً واسع المطرد ضيق المهرب . ففعلوا ونزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك ، وصار بعد ذلك الوادي خندقاً لهم .

وأقبل المسلمون فنزلوا عليهم بجذائهم ، فأقاموا صفر وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء . حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول ، كتبوا إلى أبي بكر

يستمدّونه ، فكتب إلى خالد بن الوليد يطلب منه أن يلحق بهم ويسير في نصف العسكر ، وأن يستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى الشام :

ما أن وصل كتاب الصديق الأكبر إلى خالد حتى قام بتنفيذه وسار بتسعة آلاف مقاتل ، وبين العراق والشام صحراء واسعة لا ماء ولا طعام فيها ، ويحتاج من يسلك طريقها إلى الكثير من الماء . فقام هذا البطل المجرب ذو الحنكة العسكرية وعَطّشَ الإبل كثيراً ، ثم أوردها الماء حتى أصبح كل بعير عبارة عن خزان كبير من الماء . ثم سار في تلك الصحراء الواسعة يقطعها ومعه دليل بتلك الأرض ، وكان كلما سار مرحلة نحر ما احتاج من الإبل ، فأكل مع جيشه واستعملوا الماء الذي كان في أجوافها .

وهكذا استطاع أن يسير بإبله حتى وصل إلى بلاد الشام ، ومرّ على عدة بلاد منها : سُوى ، وأرَك ، وتدمر ، والقريتين ، وحُوارين من قرى حلب . ثم نزل بالقرب من دمشق في ثنية العُقاب ناشراً رايته السوداء[1] التي كانت قبل ذلك لرسول الله ﷺ .

ثم أتى مرج راهط بنواحي دمشق ، فأغار هناك على قبيلة غسان ، فقتل وسبى .

ثم أرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة الشرقية بدمشق ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء .

١- كانت تسمى بالعُقاب ، ثم سميت بالثنية باسم هذه البلدة .

فتح بُصرى :

ثم سار خالد حتى وصل بُصرى ، وقد سبقه عليها أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان محاصرين لها ، وقد جمع لهم صاحب بُصرى جمعاً كبيراً .

فسار إليه خالد وأبو عبيدة بمن معهما ، فلقيهم خالد فظفر بهم وهزمهم . فدخلوا حصنهم وطلبوا الصلح ، فصالحهم على كل رأس دينار في كل عام وجريب حنطة . وبعث خالد الأخماس إلى الخليفة الصديق .

فكانت بُصرى أول مدينة فتحت في بلاد الشام على يد خالد بن الوليد وأهل العراق ، كما ظفر بكل مَن مرّ عليه في طريقه من العراق إلى الشام .

وقعة أجنادين :

لما قدم خالد بن الوليد بُصرى وعليها أبو عبيدة ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، صالح أهلها على الجزية على ما تقدّم ، ثم ساروا إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص وهو مقيم بالعربات من أرض فلسطين .

واجتمعت الروم يومها بأجنادين[1] ، يقودهم تذارق أخو هرقل عظيم الروم لأبويه ، وقيل : كان على الروم القُبْقَلار .

وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين ، فلقيهم فنزلوا بأجنادين . فبعث القُبْقَلار عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم . فعاد إليه ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال : رأيتهم بالليل رهباناً ، وبالنهار فرساناً . ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ،

١- هي بين اليرموك وبين جبرين من أرض فلسطين .

ولو زنى رجموه لإقامة الحق فيهم . فأجابه القُبقَلار : إن كنتَ صدقتني ، فبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

ثم التقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية الشريفة ، وظهر المسلمون عليهم وانهزم الروم ، وقُتل قائدهم تذارق أو القُبقَلار ، واستشهد رجال من المسلمين .

معركة اليرموك :

بعد هزيمة الروم في معركة أجنادين ، استنجد رومان الشام بهرقل ، فجمع جموعاً كبيرة وأتوا من جميع بلاد الصليبيين يحملون رايات الكفر ، يسيرون الشريط الساحلي حتى وصلوا اليرموك ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة . وقد بلغ عددهم مليوناً من الروم ، وستين ألفاً من العرب المتنصرة على رواية الواقدي .

وعلى رواية ابن الأثير : كان عدد الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل ، منهم : ثمانون ألف مُقَيَّد ، وأربعون ألف مسلسل للموت ، وأربعون ألفاً مربوطون بالعمائم ، وثمانون ألف راجل .

أما جيش المسلمين فقد تكامل عدده في معركة اليرموك وأصبح ستاً وثلاثين ألفاً ، منهم جيش خالد تسعة آلاف ، وجيش عكرمة بن أبي جهل ستة آلاف ، . . . وغير ذلك .

ولقد قام خالد بن الوليد قبيل المعركة خطيباً في المسلمين ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : إنَّ هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ، فأخلِصوا جهادكم ،

واقصدوا الله بعملكم ، ولنتعاون الإمارة . فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلكم ، ودعوني أميركم اليوم . فأمّروه وهم يرون أن الأمر أطول مما صاروا إليه .

وهنا تفصيل وروايات كثيرة في هذا المجال ، فمن أراد ذلك فليرجع إلى فتوح الشام ، أو الكتب الأصول في هذا المجال .

واختصار هذه الروايات أن خالد بن الوليد قاتل ومَن معه مِن المسلمين في معركة اليرموك قتالاً عنيفاً ، وانتهت المعركة بهزيمة الروم هزيمة شنعاء ، حتى لحق بعضهم بهرقل وهو دون مدينة حمص ، ثم سار منها إلى أن وصل أنطاكيا .

فكانت معركة اليرموك المعركة الكبرى بين المسلمين والروم ، ولقد اعتبرها المؤرخون أم معارك الشام ، حيث هي التي مهدّت فتوح غالب بلاد الشام بعد ذلك .

ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر من غير ما ذكرناه

❋ فيها كانت وفاة سيدتنا فاطمة بنت رسول اللهﷺ رضي الله عنها ، وذلك في ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان ، وهي يومئذ ابنة تسع وعشرين سنة أو نحوها .

وقيل : توفيت بعد رسول اللهﷺ بثلاثة أشهر ، وهذا ما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه .

وقد غسّلها علي بن أبي طالب ، وأسماء بنت عميس . وصلّى عليها العباس بن عبدالمطلب . ودخل قبرها العباس ، وعلي ، والفضل بن العباس كما قال الواقدي .

قال أبو عمر في الاستيعاب : فاطمة الزهراء هي أول مَن غُطِّيَ نعشها من النساء في الإسلام ، وذلك أنها قالت لأسماء بنت عميس : يا أسماء ، إني قد استقبحتُ ما يُصنع بالنساء ، إنه يُطرح على المرأة الثوب فيَصِفُها . فقالت أسماء : يا ابنة رسول الله ، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة ؟ فدعت بجرائد رطبة فضمّتها ، ثم طرحت عليها ثوباً . فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وما أجمله ! تعرف به المرأة من الرجل ، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت وعليٌّ ، ولا تدْخِلي عليَّ أحداً .

فلما توفيت جاءت عائشة تدخل ، فقالت أسماء : لا تدخلي . فشكت إلى أبي بكر وقالت : إن هذه الخسعمية تحول بيننا وبين بنت رسول اللهﷺ ، وقد جعلت لها مثل هودج العروس .

فجاء أبو بكرﷺ فوقف على الباب ، فقال : يا أسماء ، ما حملك أن منعتِ أزواج رسول اللهﷺ أن يدخلن على بنت رسول اللهﷺ ، وقد جعلتِ لها مثل هودج العروس ؟ قالت : أمرتني ألاّ يدخل عليها أحد ، وأريتها هذا الذي صنعته وهي حية ، فأمرتني أن أصنع ذلك لها . قال أبو بكر : فاصنعي ما أمرتكِ ، ثم انصرف .

❋ وفي سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية الشريفة انصرف معاذ بن جبل عن اليمن .

❋ وفي هذه السنة استقضى أبو بكر عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ﷺ ، فكان يُرجع إليهم في الشئون الدينية .

❋ وفي نفس السنة أمّر أبو بكرﷺ على الموسم عتاب بن أسيد ، وقيل : بل حجّ بالناس عبدالرحمن بن عوف عن تأمير أبي بكر إياه .

❋ وفي سنة اثنتي عشرة من الهجرة مات أبو مَرْثد الغنوي ، واسمه كناز بن محصن – ويقال : حصين – . وكان حليف الحمزة بن عبدالمطلب . وكان قد صحب رسول اللهﷺ هو وابنه مرثد وابن مرثد أنيس . وشهد بدراً هو وابنه مرثد . وشهد هو كذلك المشاهد كلها مع رسول اللهﷺ . ومات وهو ابن ست وستين سنة .

❋ وفي مثل هذه السنة في ذي الحجة مات أبو العاص بن الربيع ، واختلف في اسمه فقيل : لَقِيط ، وقيل : مُهشم ، وقيل : هُشَيْم ، والأكثر على أنه لقيط ابن الربيع بن عبدالعزى بن عبدمناف بن قصي القرشي . وهو صهر رسول اللهﷺ على ابنته زينب . وأمه هالة بنت خويلد أخت سيدتنا خديجة أم المؤمنين . وأوصى إلى الزبير بن العوام . وتزوّج بعد ذلك علي بن أبي طالب ابنته .

❋ وحجّ أبو بكر الصديق بالناس في هذه السنة ، واستخلف على المدينة عثمان ابن عفان رضي الله عنهما . وقيل : بل حج عمر بن الخطابﷺ ، والله أعلم بالصواب .

وفاة أبي بكر الصديق

لم يطل حكم أبي بكر رضي الله عنه حيث دام السنتين ، ولكنه بهاتين السنتين فعل الأعاجيب ، واستطاع باتباعه للرسول ﷺ أن يحرر البلاد والأمصار .

وأما سبب وفاته رضي الله عنه فقد قيل فيها أقوال منها : أنه اغتسل في يوم بارد وخرج ، فأصيب بحمة شديدة ، فتمرّض خمسة عشر يوماً ثم مات على أثرها .

وقيل : إنَّ اليهود قدّموا له السم فأكل منه وهو لا يدري ، فمات بعد عام من ذلك .

وقيل غير ذلك ، إنما المعتمد هو القول الأول .

ولم يشأ أبو بكر أن يموت وبعنقه درهم واحد للمسلمين . فلمّا حضرته الوفاة ، أحضر ابنته عائشة وابنه عبدالرحمن وقال : رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً . وإنَّ أَرْضِيَ التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم .

وفي رواية أخرى قال : انظروا كم أنفقت منذ وُلِّيتُ من بيت المال فاقضوه عني ، فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته .

ثم إن أبا بكر يرفض كذلك أن يناله شيء من ثيابه ، فقال لابنته : هذه راحلتي وهذا ثوبي كنت أخذتهما من مال المسلمين ، فبعد أن أموت يُردّان إلى بيت مال المسلمين .

ثم وصّى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس التي كانت مقدمة عنده ، على أن يساعدها ولده عبدالرحمن . وقال : كفنوني بثوبيّ هذين ، ثم أضيفوا ثوباً ثالثاً ، فالحي أحق بالجديد من الميت ، إنما الكفن للصديد والدم .

وكان آخر ما نطق بهﷺ : توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين .

ثم مات وحُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول اللهﷺ وهو سرير السيدة عائشة ، ودُفن ليلاً بعد العشاء وقد جعلوا لحده بقرب لحد النبيﷺ ، وجعلوا رأسه عند كتفيه عليه الصلاة والسلام .

فكان بهذه الحالة بأن أكرمه الله تعالى بأن كان صاحباً لرسول اللهﷺ في مماته ، كما كان صاحباً له في حياته ، وهو صاحبه على الحوض ، وصاحبه في الجنة كذلك .

وقد دخل في قبره عمر بن الخطاب ، وعبدالرحمن بن أبي بكر ، وعثمان ابن عفان ، وطلحة بن عبيدالله .

وكانت وفاتهﷺ في السنة الثالث عشرة من الهجرة النبوية الشريفة ، وانتهت سنه عند وفاته إلى سن رسول اللهﷺ ثلاث وستين .

ولم يمتﷺ حتى استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب .

روى الطبري في تاريخه عن أسماء بنت عميس قالت : دخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر الصديق وهو في مرضه فقال : استخلفتَ على الناس عمر وقد رأيتَ ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ؟ فقال أبو بكر وكان مضطجعاً : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال لطلحة : أبالله تخوّفني ، إذا لقيتُ الله ربي فسألني قلت : استخلفتُ على أهلك خير أهلك .

وهكذا توفي رضي الله عنه وهو قرير العين بأن وطّد البلاد ، وقد حقق الله له الآمال على يديه ، وجعل المسلمين إخوة متواسين ، وأعطى كل ذي حق حقه .

ولو ألف المسلمون مجلدات كثيرة عنه لما أعطوه حقه .

رحمه الله تعالى وأرضاه عنا ، وجعلنا دائماً على طريقه إنه سميع مجيب .

أمير المؤمنين الفاروق

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

رضي الله عنه

قال رسول الله ﷺ :

﴿ يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك

شيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك ﴾

نسبه

هو عمر بن الخطاب بن نوفل بن عبد العزى بن رباح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي . ويجتمع نسبه مع النبيﷺ عند كعب بن لؤي ، فهو إذاً ابن عم النبيﷺ .

أمه هي حمنة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية ، قيل: هي أخت أبي جهل عمرو بن هشام ، وقيل : ابنة عمه هاشم وهذا ما تدل عليه أكثر النصوص . فمن قال : إن أبا جهل كان خال سيدنا عمر استند إلى رواية ، ومَن قال : إنه كان ابن عم أمه استند كذلك إلى رواية أصح .

كنيته ومولده

كانرضي الله عنه يُكنى بأبي حفص .

وقد سمّاه النبيﷺ بالفاروق ؛ لأن الله تعالى فرّق به بين الحق والباطل .

وقد وُلدرضي الله عنه بعد الفجار الأعظم بأربع سنين ، وذلك قبل مبعث النبيﷺ بثلاثين سنة .

وذكر بعضهم أنه وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة .

صفته الذاتية

كانرضي الله عنه أبيض ، شديد الحمرة ، ويميل للشقرة .

وعلى معتمد الأقوال أنه بقي على ذلك حتى عام الرمادة ، فتغيّر لونه من الشقرة إلى السمرة الشديدة ، بسبب تركه أكل اللحم والمغذيات .

كان طويلاً ، جسيماً ، ليس بمتين اللحم ، وفي عارضيه خفة .
وكان شديد صلع الرأس ما كان ينبئ عن ذكائه ، وله سابلان .

زوجاته وأولاده

تزوج سيدنا عمر رضي الله عنه في الإسلام كما تزوج في الجاهلية ، ولكن زواجه لم يكن ليشغله عن الحق شيئاً ، إنما كان يتزوج ليكثر من النسل المحمدي .

فكانت زوجاته رضي الله عنه ثمانية ، وهن على الترتيب :

١- زينب بنت مظعون بن حبيب : تزوّجها في الجاهلية ، وأنجب منها : عبدالله ، وحفصة ، وعبدالرحمن .

٢- مُليكة بنت جرول الخزاعية : تزوّجها في الجاهلية ، وولدت له عبيدالله ، ففارقها في الهدنة .

٣- قريبة بنت أبي أمية المخزومية .

٤- أم حكيم : تزوّجها في الإسلام ، وولدت له ابنته فاطمة .

٥- جميلة بنت عاصم بن ثابت الأوسية : تزوّجها في المدينة بعد أن هاجر ، وولدت له عاصم .

٦- أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : وولدت له رقية ، وزينب .

٧- امرأة من اليمن اسمها لُهَيّة ، وقيل : لُهْبة .

٨- عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نوفل .

وكان عنده أم ولد فكيهة ، وهي التي ولدت له زينب أصغر أولاده .

قصة إسلامه

لقد كان إسلام عمر رضي الله عنه فتحاً للإسلام والمسلمين .

يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله ﷺ قال : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام ، وكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب »[١] . فكانت السعادة لعمر ، وأصابته دعوة رسول الله ﷺ .

وعن شريح بن عبيد قال : قال عمر : « خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ ، فوجدته سبقني إلى المسجد فقمت خلفه . فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلتُ أتعجب مِن تأليف القرآن فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش . قال : فقرأ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[٢] . فقلت : كاهن ، قال : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٣] حتى ختم السورة . قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع »[٤] .

وقال ابن إسحاق ومحمد بن سعد في طبقاته في سيرة إسلام عمر : خرج عمر ابن الخطاب من بيته متوشحاً بسيفه كأنه ذاهب إلى حرب ، وكان يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ولم يهاجروا إلى الحبشة . وفي الطريق لقيه رجل من قبيلته اسمه نعيم بن عبدالله النحام من بني عدي بن كعب ، وكان ممن أسلم سراً وكتم إيمانه خوفاً من تعذيب

١- أخرجه أبو يعلى وعبد بن حميد من طريق أبي عامر .
٢- الآيتان (٤٠ ـ ٤١) من سورة الحاقة .
٣- الآية (٤٢) من سورة الحاقة .
٤- أخرجه أحمد من رواية صفوان بن عمرو .

قريش . فقال له : أين يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ، فأريد أن أقتله . فقال له نعيم وأراد أن يأخذ من حِدّته وأن يحوّله إلى جهة أخرى : يا عمر ، لقد عزتك نفسك ؟ أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض بعد أن تقتل محمداً ؟ فقال عمر : ما أراك إذاً إلا قد صبئتَ وتركتَ دينك الذي أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب ؟ قال عمر : نعم ، قال : إن ختنك وأختك قد صبئا وتركا دينك الذي أنت عليه ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقوّمهم قبل أن تذهب إلى محمد ؟ قال : مَن تريد من أهل بيتي ؟ قال : قلتُ لك : إنَّ ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة قد أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما قبل أن تذهب إلى محمد .

عند ذلك ترك عمر طريقه إلى الصفا ورجع عامداً أختَه وختنه ، وكان عندهما يومها خباب بن الأَرَتّ ومعه صحيفة فيها سورة طه ، يقرؤها عليهما ويُعلّمهما أحكامها . فلما وصل عمر قرع الباب فسمعوا حسه ، فقام الخباب وتغيّب في حجرة أخرى ، ثم فُتح الباب لعمر .

فلما دخل عمر قال : ما هذه الهيمنة التي سمعتُ ؟ قالا : ما سمعتَ شيئاً ، قال : بل والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما دين محمد ، فقال له ختنه ولم يُكذب ذلك : أرأيتَ يا عمر إن كان الذي جاء به محمد الحق من غير دينك ؟ فوثب عمر عليه فبطش به ، ووطئه وطئاً شديداً بأقدامه ، فقامت إليه أختَه فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها عمر فشجّها شجة نكراء وسال دمها . فقالا يومها وبكل قوة : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك يا عمر .

فلما رأى عمر بأخته ما رأى ، أخذته العاطفة والحنان وندم على ما صنع ، وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفاً ؛ لأنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، فقال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليَرُدَّنها إذا قرأها إليها . فطمعت فاطمة في إسلامه وقالت له : يا أخي ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر واغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع خباب منه ذلك ، خرج إليه وقال له : يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإني سمعته بالأمس يقول : (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمرو بن هشام أو بعمر بن الخطاب) ، فالله الله يا عمر . قال عمر : دلني على محمد حتى آتيه فأُسْلِم ، فقال خباب : هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه ، في بيت الأرقم بن الأرقم .

فأخذ عمر سيفه متوشحاً ، ثم عمد إلى رسول اللهﷺ وأصحابه . فضرب عليهم الباب ، فنظر أحد المسلمين من خلل من الباب ، فرآه وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بسيفه . فقال الحمزة شيخ شباب قريش للنبيﷺ : فائذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول اللهﷺ : ائذن له بالدخول .

فقام الرجل وفتح الباب ، ونهض رسول اللهﷺ من مكانه في داخل البيت حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بحُجْزته ثم جَبَذه جَبْذة شديدة وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة كما أنزلها بالوليد ابن المغيرة . فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله ورسوله ، وبما جئتَ به

من الحق . وكان يومها قلبه يضرب ضربات شديدة ، يريد أن يتخلص من ثوبه الوسخ الذي لبسه في الشرك . فكبّر النبيﷺ تكبيرة سمعها كل أهل الدار ، وعلموا منها بإسلام عمر .

يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « لما أسلم عمر نزل جبريل فقال : يا محمد ، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر »[1] .

ولم يكتف عمر بإسلامه هكذا ولم يكن كغيره ، إنما ذهب إلى رجل من قريش يقال له : جميل بن معمر الجمحي ، وقال له : يا جميل ، أعلمتَ ؟ قال : ماذا ؟ قال : لقد أسلمتُ . وهو يريد أن يرد عليه ضرباً لو قال : لا ، ولكن جميل لم يرد عليه بحرف واحد ومشى .

فمشى عمر خلفه حتى وصلا الكعبة ، وصاح جميل بملء صوته : يا معشر قريش ، إن عمر بن الخطاب ممن صبأ ، فقال عمر : لا كذبتَ ، بل أسلمتُ لله رب العالمين . فسمع كل القوم بذلك ولم يستطيعوا أن يقولوا له شيئاً ، ولكنهم أتوا مهرولين من كل مكان هم فيه وبدؤوا يضربونه ويضربهم حتى أنهكت قواه ، وهو يقول : نعم ، أسلمت لله رب العالمين .

يقول عبدالله بن عمر : كنت طفلاً صغيراً رأيت عمر مع انتهاك قواه يتحدّاهم ويقول : نعم ، أسلمت لله رب العالمين ، فافعلوا ما شئتم أيها الكافرون المشركون . ويقول : يأتي شيخ كبير عليه حلة وحبرة وهو العاص بن وائل السهمي يقول : ماذا ؟ فيقولون : هذا عمر قد صبأ ، فقال : وما عليكم إذا أسلم ، وماذا تفعلون بآل عدي إذا قتلتم عمر ؟ فانفضوا عنه كما ينشلح الثوب عن صاحبه ، وبقي عمر يعلن عقيدته الإسلام .

١- روه ابن ماجة والحاكم .

ثم رجع عمر إلى الدار وقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال : بلى . فصفّ عمر المسلمين صفين وساروا إلى الكعبة ، عمر بأول الصف ، والحمزة بآخره ، والنبيﷺ بين الصفين . وأظهر النبيﷺ يومها خفاء أمره ، وقال القوم عندما رأوا الحمزة وابن الخطاب : قد انتصف القوم منا .

عن ابن مسعودرضي الله عنه قال : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر »[١] .

وعن حذيفة قال : « لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة ، فلما قتل عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً »[٢] .

وقال أيضاً : « كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة . ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي إلى البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا وسبيلنا »[٣] .

وروي عن صهيب الرومي قال : « لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودُعِيَ إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت وانتصفنا . فمن غلظ علينا رددنا عليه بعض ما يأتي به »[٤] .

وقد كان إسلام عمررضي الله عنه على رأس الأربعين ، وقيل : على رأس الثمانين . إنما الروايات الأكثر تدل بأنه أسلم بعد البضع والأربعين ، عشرة نسوة وقرابة خمس وأربعين رجلاً كانوا قد أسلموا قبل عمر : كابن مسعود ، والحمزة رضي الله عنهم أجمعين .

١- رواه البخاري .
٢- أخرجه ابن سعد والحاكم .
٣- رواه ابن سعد في طبقاته .
٤- رواه ابن سعد في طبقاته .

هجرته إلى المدينة

أخرج ابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : ما علمتُ أحداً هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه ، وتنكّب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها . فطاف سبعاً ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، مَن أراد أن تثكله أمه ، ويُيَتم ولده ، وترَمَّلَ زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي . فما تبعه منهم أحد ، وقد قالها في وقت كان لا يستطيع واحد أن يجهر بها في مكة .

وكان قد اتفق مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص أن يلتقيا بمكان معين خارج مكة ، وأن ينتظر بعضهم البعض الآخر إلى وقت معين ، فإن تأخر كان قد حبسه قومه .

وهكذا سار عمر بعد مقالته إلى المكان المتفق عليه ، وحُبس عنه هشام بن العاص ، حيث منعه قومه ووثقوه بالحديد ، وأجبروه على الردة فارتد عن الإسلام ، حتى نزل فيه قرآن من السماء وهو قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1] . فكتب عمر النص وأرسله إليه ، فآمن وأتى إلى المدينة .

ذكر بعض مناقبه وفضائله

إن عمر بن الخطاب هو صفوة الصفوة ، هو تلميذ من تلاميذ رسول الله ﷺ ، حظي به دنيا وأخرى . فمهما ذكرنا من مناقبه وأخلاقه ، فهي ذرة في بحر النبوة .

١- الآية (٥٣) من سورة الزمر .

وقد ذكره النبيﷺ في كثير من المواطن بذكر حسن مبيناً فضائله ، منها ما تقدم ذكره آنفاً في بيان فضائل الصديق أبي بكر ، ومنها كذلك :

❋ قولهﷺ : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر »[١] .

❋ وعن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال : سمعت رسول اللهﷺ يقول : « بَيْنا أنا نائم ، رأيت الناس عُرضوا عليّ وعليهم قُمص ، فمنها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما يبلغ دون ذلك . وعُرض علي عمر وعليه قميص يجره . قالوا : فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : الدّين »[٢] .

❋ وعن أبي هريرةرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « بَيْنا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلتُ : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرتُ غيرته فوليّت مدبراً . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ »[٣] .

❋ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال : « بَيْنا أنا نائم شربت[٤] حتى أنظر إلى الرّيّ يجري من أظفاري ، ثم ناولته عمر . قالوا : فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : العلم »[٥] .

❋ وعن سعد بن أبي وقاصرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك شيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك »[٦] .

١- رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة ، ومسلم والنسائي وابن ماجة عن عائشة .
٢- رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائي ، وكذلك الترمذي بلفظ مختلف .
٣- رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري .
٤- يعني اللبن .
٥- رواه الشيخان البخاري ومسلم .
٦- رواه البخاري ومسلم .

❊ وقال رسول اللهﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب »[١] .

❊ وقال ﷺ : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »[٢] .

فكانرضي الله عنه دائماً ناطقاً بالحق ، ومَن كان كذلك كان إنساناً روحانياً .

❊ وقالﷺ : « يا بلال ، بما سبقتني إلى الجنة ؟ ما دخلتُ الجنة قط إلا سمعتُ خشخشتك أمامي ، فأتيتُ على قصر مربع مشرف من ذهب ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لرجل من العرب . قلت : أنا عربي ، لمن هذا القصر ؟ قالوا : لرجل من قريش . قلت : أنا من قريش ، لمن هذا القصر ؟ قالوا : لرجل من أمة محمد . قلت : أنا محمد ، لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ابن الخطاب »[٣] .

❊ وقالﷺ : « أول مَن يصافحه الحق يوم القيامة عمر بن الخطاب ، وأول مَن يسلم عليه ، وأول مَن يأخذ بيده فيدخله الجنة »[٤] .

وإياك أن تتصوّر الله جسماً هنا ، فالمصافحة هنا هي كناية عن فريد الإنعام ، والإقبال عليه بعد أن يكون أبو بكر قد دخل الجنة .

❊ وقالﷺ : « الحق بعدي مع عمر حيث كان »[٥] .

١- رواه أحمد والترمذي والحاكم وصحّحه عن عقبة بن عامر ، ورواه الطبراني عن عصمة بن مالك .
٢- رواه الطبراني عن بلال ، وأحمد والترمذي عن ابن عمر ، وأبو داود والحاكم عن أبي ذر ، والحاكم كذلك عن أبي هريرة .
٣- أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم عن بريدة .
٤- رواه ابن ماجة والحاكم .
٥- رواه الطبراني والديلمي .

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى النبيﷺ قال : « أتاني جبريل فقال : أقرئ عمر السلام وقل له : إنَّ رضاه حكم ، وإنَّ غضبه عز »[١] .

❊ وعن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « مَن أبغض عمر فقد أبغضني ، ومَن أحب عمر فقد أحبني . وإنَّ الله باهى بالناس عشية عرفة عامة ، وباهى بعمر خاصة . وإنه لم يبعث الله نبياً إلا كان في أمته محدث ، وإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر . قالوا : يا رسول الله ، كيف محدث ؟ قال : تتكلم الملائكة على لسانه »[٢] .

❊ وعن النبيﷺ قال : « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خرّ لوجهه »[٣] .

❊ وقالﷺ : « عمر سراج أهل الجنة »[٤] .

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « ما في السماء مَلَك إلا وهو يوقر عمر ، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر »[٥] .

❊ وعن عمار بن ياسر قال : قال رسول اللهﷺ : « أتاني جبريل آنفاً فقلت : يا جبريل ، حدثني بفضائل عمر بن الخطاب . فقال : لو حدثتك بفضائل عمر منذ ما لبث نوح في قومه ما نفذت فضائل عمر ، وإنَّ عمر حسنة من حسنات أبي بكر »[٦] .

١- رواه الطبراني في الأوسط ، والحكيم في نوادر الأصول ، والضياء .
٢- أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن .
٣- رواه الطبراني عن طريق سديسة عن حفصة .
٤- رواه البزار عن ابن عمر ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .
٥- أخرجه ابن عساكر وابن عدي .
٦- أخرجه أبو يعلى .

وأما ما ورد عن الصحابة ، فقد كانت لهم تصريحات كثيرة تدل على فضل عمر ومكانته ، من ذلك :

❋ ما روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قالا : « ما كنا نبعد أنَّ السكينة[١] تنطق على لسان عمر »[٢] .

❋ وعن عبدالله بن مسعود قال : « إني لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم ذهب عمر »[٣] .

❋ وعنهرضي الله عنه قال : « لو وُضع علم عمر في كفة ، وعلم أهل الأرض في كفة ، لرجح علم عمر »[٤] .

فقد كان عمر ضليعاً في العلم ، وهو الذي استلم القضاء في عهد الخليفة أبي بكر الصديق كما مر ذكر ذلك قبلُ .

❋ وعنه أيضاً قال : « لمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة »[٥] .

❋ وعمررضي الله عنه هو صاحب مجلس الشورى ، وكان قد جمع فيه رؤساء المسلمين ذوي العدول والخبرة : كعبدالرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام . وكان في كل فترة يلتقي بهم ويستشيرهم في أمور المسلمين .

❋ وفي سنة أربع عشرة من الهجرة أمر عمر بقيام رمضان، وكتب كتاباً إلى الأمصار في كل أنحاء بلاد الإسلام أن يصلوا التراويح عشرين ركعة بإمام يصلي بهم .

١- يقصد الإلهام الرباني .
٢- رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن .
٣- أخرجه الطبراني .
٤- أخرجه ابن سعد في طبقاته .
٥- ذكره أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال ج٢١ ص٣٢٥ .

يروى عن عبدالرحمن بن عبدالقاري قال: « خرجت مع عمر في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : إني لأرى لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد كان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب . قال : ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، فقال عمر : نِعْمَ البدعة هذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون . يريد آخر الليل ، وكان الناس يقومون أوله »[1] .

وهذا بإجماع الصحابة ، فمن خالف ذلك في عصرنا إنما ينقض إجماع المسلمين . وإجماع المسلمين يعتبر عندنا قاعدة من قواعد الأصول ، والنبيﷺ قال: « لا يجمع الله أمتي على الضلالة ، ويد الله مع الجماعة »[2] .

❁ وهو الذي أمر كذلك بإنارة المساجد .

أخرج ابن السمان عن علي كرم الله وجهه أنه مرّ على المساجد في شهر رمضان وفيها القناديل فقال : نوّر الله على عمر في قبره كما نوّر علينا مساجدنا .

فبخ بخ لك يا عمر على ما نلتَ من هذه المزايا الطيبة عند اللهﷻ . وليت شعري أين عقول هؤلاء الذين يحقرون عمر والله يريد إعزازه ؟!

١- رواه البخاري .

٢- رواه الترمذي عن ابن عمر ، ورواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي نصر الغفاري في حديث رفعه : (سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة) ، ورواه ابن أبي عاصم في السنة عن أنس مرفوعاً : (لا تجتمع أمتي على ضلالة) .

ذكر موافقة عمر للقرآن الكريم

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا أنزل القرآن على نحو ما قال عمر »[١] .

وقد ذكر ابن حجر موافقة عمر للقرآن في اثنتي عشرة مرة .

وأما السيوطي فقال : إنه وافق القرآن في إحدى وعشرين مرة .

وإليكم بعض ما نزل من آيات في عدة مواطن تويد رأي عمر رضي الله عنه :

* عن سالم بن عبدالله بن عمر عن عمر قال : « وافقت ربي في ثلاث : في الحجاب ، وفي أسارى بدر ، وفي مقام إبراهيم »[٢] .

* وعن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : « وافقت ربي في ثلاث : فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[٣] . وآية الحجاب ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾[٤] . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكنّ أن يُبدله أزواجاً خيراً منكنّ ، فنزلت هذه الآية »[٥] .

١- رواه أحمد والترمذي .
٢- رواه البخاري ومسلم .
٣- الآية (١٢٥) من سورة البقرة .
٤- الآية (٥٩) من سورة الأحزاب .
٥- رواه البخاري والبيهقي .

❋ وعن عبدالله بن مسعود قال : « فُضِّلَ عمر بن الخطاب على الناس بأربع : بذكر الأسرى يوم بدر ، أمر بقتلهم فأنزل اللهﷻ : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] . وبذكر الحجاب ، أمر نساء النبيﷺ أن يحتجبن ، فقالت له زينب : وإنك علينا يا ابن الخطاب ، والوحي ينزل في بيوتنا ؟ فأنزل اللهﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[2] . وبدعوة النبيﷺ : اللهم أيد الإسلام بعمر . وبرأيه في أبي بكر ، كان أول مَن بايعه »[3] .

❋ ويروى أنهﷺ استشار أصحابه في الخروج إلى بدر ، فأشار عمر بالخروج ، فنزل قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾[4] .

❋ وروى الطبراني في الكبير والأوسط أنَّ رسول اللهﷺ استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، استحي قومك وخذ منهم الفداء فاستعن به . وقال عمر : اقتلهم ، فقال : لو اجتمعتما ما عصيناكما . فأخذ رسول اللهﷺ بقول أبي بكر ، فأنزل اللهﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ[5] فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[6] .

١- الآية (٦٨) من سورة الأنفال .
٢- الآية (٥٣) من سورة الأحزاب .
٣- رواه أحمد ، والبزار ، والطبراني .
٤- الآية (٥) من سورة الأنفال .
٥- الإثخان هو المبالغة في القتل .
٦- الآية (٦٧) من سورة الأنفال .

❊ وكذلك روى الطبراني أن رجلاً دخل على رسول اللهﷺ فأطال الجلوس ، فخرج النبيﷺ ثلاثاً لكي يتبعه فلم يفعل . فدخل عمر فرأى الكراهية في وجه رسول اللهﷺ بمقعده ، فقال : لعلك آذيتَ النبيﷺ . ففطن الرجل فقام ، فقال النبيﷺ : لقد قمتُ ثلاثاً لكي تتبعني فلم تفعل . فقال عمر : يا رسول الله ، لو اتخذتَ حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء ، وهو أطهر لقلوبهن . فأنزل الله : ﴿ يَآ أيها الَّذِينَ ءَامَنواْ لاَ تدخُلُواْ بُيوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ . . . ﴾ الآية[1] .

❊ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر قال : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت الآية[2] .

فكان بعد ذلك الذي يطوف حول البيت سبعاً يُسن له أن يصلي خلف المقام ركعتين ، فإن لم يستطع فبالمسجد كله ، فإن لم يستطع فبمكة .

❊ وعن حارثة بن مضرب قال : « قال عمر بن الخطاب : اللهم بَيّن لنا في الخمر ، فنزلت : ﴿ يَآ أيها الَّذِينَ ءَامَنواْ لاَ تقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تعْلَمُواْ مَا تقُولُونَ ﴾[3] . فدعا النبيﷺ عمر فتلا هذه الآية ، فكأنها لم توافق مِن عمر الذي أراد فقال : اللهم بَيّن لنا في الخمر . فنزلت : ﴿ يَسْئَلُونكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْميْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[4] ، فدعا النبيﷺ عمر فتلاها عليه ، فكأنها لم توافق منه الذي أراد فقال : اللهم بَيّن لنا

١- الآية (٥٣) من سورة الأحزاب .
٢- رواه الطبراني في الكبير .
٣- الآية (٤٣) من سورة النساء .
٤- الآية (٢١٩) من سورة البقرة .

في الخمر . فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾[1] . فتلاها عليه ، فقال عمر : انتهينا يا رب »[2] .

فالخمر كانت مباحة قبل الإسلام ، وعندما جاء الإسلام لم يحرمها دفعة واحدة ، إنما نزل تحريمها على دفعات .

ذكر الطبري في تفسيره عن محمد بن قيس قال : لما قدم رسول اللهﷺ المدينة ، أتاه الناس وقد كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ . فقالوا : هذا شيء قد جاء فيه رخصة ، نأكل الميسر ونشرب الخمر ونستغفر من ذلك . حتى أتى رجل صلاة المغرب فجعل يقرأ : (قل يا أيها الكافرون ، أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) . فجعل لا يجود ذلك ولا يدري ما يقرأ ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ . فكان الناس يشربون الخمر حتى يجيء وقت الصلاة فيَدَعون شربها ، فيأتون الصلاة وهم يعلمون ما يقولون . فلم يزالوا كذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ

١- الآيتان (٩٠ - ٩١) من سورة المائدة .
٢- حديث صحيح الإسناد ، رواه الطبراني في الأوسط .

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ . فقالوا : انتهينا يا رب .

ونادى منادي رسول الله ﷺ : أيها المسلمون ، ألا إنَّ الله قد حرّم الخمرة البتة . فكانت يومها الخمور تراق وتسيل في أزقة المدينة كما يسيل السيل في الشتاء ، وهم يقولون : انتهينا يا رب ، انتهينا يا رب ، انتهينا يا رب .

فالنفس تطلب ولكنها لا تعطى كل ما تطلب ، الصحابة عندما آمنوا بالله والرسول ، كانت هناك عادات كثيرة متأصلة بهم ، كانوا يعيشون مجتمعاً جاهلياً بعيداً كل البعد عن الخير والنور ، فعندما جاء الإسلام نهاهم عن هذا كله ، فتركوه وكان متأصّلاً بدمائهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم .

كان يومها مَن يشرب الخمر يُجلد من أربعين إلى ثمانين جلدة ، وما جُلد سوى أفراد . جَلَدَ عمر ولده في إمارته ، وجُلِدَ أبو دجانة جلدة ثم فرّ إلى القادسية ، وقاتل هناك مع سعد بن أبي وقاص في الفتوحات .

❊ وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لّما أكثر رسول الله ﷺ من الاستغفار لقوم من المنافقين ، قال عمر : سواء عليهم أستغفرتَ لهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[1] .

❊ ولقد وافق عمر ربه كذلك بأنّ مَن عادى جبريل فقد عادى الله سبحانه .

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما من طرق عديدة عن عبدالرحمن ابن أبي ليلى أن يهودياً لقي عمر فقال : إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو

١- الآية (٦) من سورة المنافقين .

لنا ، فقال عمر : مَن كان عدواً لله ، وملائكته ، ورسله ، وجبريل ، وميكال ، فإن الله عدو للكافرين . فنزلت على لسان عمر الآية الكريمة : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[1] .

❊ وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال : اختصم رجلان إلى النبيﷺ فقضى بينهما ، فقال الذي قضى عليه : رُدَّنا إلى عمر بن الخطاب. فأتيا إليه ، فقال الرجل : قضى لي رسول اللهﷺ على هذا ، فقال : رُدَّنا إلى عمر . فقال : أكذاك ؟ قال : نعم ، فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما . فخرج إليهما مشتملاً على سيفه ، فضرب الذي قال : رُدَّنا إلى عمر فقتله . وأدبر الآخر فقال : يا رسول الله ، قتل عمر والله صاحبي . فقال ﷺ : ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2] . فأُهدر دم الرجل ، وبرئ عمر من قتله .

❊ وروي عن عمررضي الله عنه قال : لما توفي عبدالله بن أبي ، دُعِيَ رسول اللهﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فقمتُ حتى وقفت في صدره فقلت : يا رسول الله ، أعَلى عدو الله ابن أبي القائل يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[3] .

١- الآية (٩٨) من سورة البقرة .
٢- الآية (٦٥) من سورة النساء .
٣- الآية (٨٤) من سورة التوبة .

ذكر بيعة سيدنا عمر بالخلافة

كانت خلافة سيدنا عمرﷺ من قِبل الصديق الأكبر . فقد ورد أن أبا بكر لما مرض دعا عبدالرحمن بن عوف وقال له : أخبرني عن عمر ، فقال : إنه أفضل مَن رأيتُ بعد رسول اللهﷺ وبعدك ، إلا أن فيه غلظة . فقال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رفيقاً ورقيقاً ، فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه ، وإذا لنت لآخر أراني الشدة عليه ، ولو أفضتُ الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه .

ثم دعا عثمانَ بن عفان فقال له : أخبرني عن عمر ، فقال : سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله .

ثم قال لهما : لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ، ولو تركته ما عدوتُ عثمان ، ولا أدري لعله تارك ذلك ، والخيرة له ألا يَليَ من أموركم شيئاً ، ولوددت أني كنت من أموركم خلوة ، ولكن قدّر الله أني وُلّيتُ أموركم ، وكنت فيمن مضى ممن سلف .

ثم أحضر أبو بكر عثمان بن عفان خالياً ، وقال له : اكتب . فأخذ وكتب : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين ، أما بعد) ، ثم أغمي عليه . فكتب عثمان : (فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلِ لكم خيراً منه) . ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ عليّ ما كتبتَ ، فقرأ عليه فكبّر أبو بكر وقال : خفتَ أن يختلف الناس إن مِتُّ في غشيتي ؟ قال : نعم ، فقال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهل الإسلام .

فلما كُتب العهد أمر به أبو بكرﷺ أن يُقرأ على الناس ، فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر ، فكان عمر يقول للناس وهو لا يعلم عنه شيئاً :

أنصتوا حتى نسمع وصية خليفة رسول الله ، فإنه لم يأتكم نصحاً . فسكت الناس ، فلما قرئ عليهم الكتاب قالوا : سمعنا وأطعنا .

ثم أشرف أبو بكر عليهم وهو في مرضه وقال لهم : أترضون بمن استخلفتُ عليكم ؟ فإني ما استخلفت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عليكم عمر ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني والله رأيته أفضل الناس للخلافة ، وما آلوت من جهد الرأي . فقالوا : سمعنا وأطعنا .

ثم أحضر أبو بكر عمر فقال له : قد استخلفتك على أصحاب رسول اللهﷺ يا عمر . وأوصاه بتقوى الله والعمل الصالح ، وأن يكون ساهراً على رعيته .

ثم قال : يا عمر ، إن لله حقاً بالليل لا يقبله في النهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله في الليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق ، وحق الموازين لا يوضع فيه غداً إلا أن يكون ثقيلاً ؟ ألم تر يا عمر أنما خفت موازين مَن خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ؟ ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً ؟ ألم تر يا عمر أنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلتَ : إني لأرجو ألا أكون منهم ؟ وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ؛ لأنه تجاوز لهم ما كان مِن شيء ، فإذا ذكرتهم قلتَ : أين عملي من أعمال أهل الجنة ؟ ثم قال له : فإن حفظتَ وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت يا عمر ، وإذا تذكرتَ الموت قمت بمصالح رعيتك ، ولست بمعجزه يا عمر .

فلما دفن أبو بكرﷺ ، صعد عمر المنبر فخطب بالناس وقال بعد أن حمد

الله وأثنى عليه : إنما مثل العرب مثل جمل أنف[1] فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق .

وصدق عمر بعد ذلك ، فإنه حملهم على الطريق الصحيح .

ثم قال : أيها الناس ، إني داعٍ فهيمنوا . فيقول في دعائه : اللهم إني غليظ فليّني ، وشحيح فسخني ، وضعيف فقوّني . فاستجاب لهﷻ .

ذكر خبر تسميته بأمير المؤمنين :

يروى أن عمر بن عبدالعزيز سأل أبا بكر سليمان بن أبي خيثمة عن سبب تسمية عمر بأمير المؤمنين ، فقال : حدّثني الشفاء أن أبا بكر كان يكتب : (مِن خليفة رسول الله) ، وكان عمر يكتب : (مِن خليفة خليفة رسول الله) ، حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم . فقدما المدينة ودخلا المسجد ، فوجدا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتما والله أصبتما اسمه . فدخل عليه عمرو فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بدا لك في هذا الاسم ؟ لتخرجن مما قلتَ . فأخبره وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ[2] .

ولقد استعمل عمر على بيت المال زيد بن الأرقم .

أما كتابه فكانا : عبدالله بن خلف الخزاعي ، وزيد بن ثابت .

وكان نقش خاتمهﷺ : (كفى بالموت واعظاً يا عمر) ؛ ليتذكر الموت دائماً .

١- هو بعير بخشمه حلقة فيها جنزير ، يشده صاحبه فينجاب معه تألماً .

٢- أخرجه الحاكم والطبراني في الكبير من طريق ابن شهاب .

نبذة عن أخلاقه وحياته في خلافته

إن عمر بن الخطاب رجل ذاب ذوباناً كاملاً بحب النبيﷺ والإسلام ، منذ قال للنبيﷺ : أنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبيّ كان صادقاً بهذا ، فأعطى الإسلام كله وبدون هوادة .

وفي ليلة فتح مكة عندما أراد عمر قتل أبي سفيان ، قام العباس وقال لعمر : مهلاً يا عمر ، والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا ، ولكنك قد عرفتَ أنه من رجال بني عبدمناف . فقال : مهلاً يا عباس ، لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحب إلى رسول اللهﷺ من إسلام الخطاب .

فكان رجلاً قد طلب الآخرة بصدق ، وأكرمه الله بأن تجرّد عن نفسه تماماً وأعطى كله للآخرة . لم يعط نفسه حظها ، ولا ولده ، ولا عشيرته ، إنما أعطى الإسلام .

وكان دائماً يقول : رحم الله رجلاً أهدى إلي عيوبي .

كانرضي الله عنه شديداً جباراً في الجاهلية ، فعمل سفيراً لقريش في الحروب .

وبعد أن أسلم كان دائماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، ملازماً ومرضياً عند سيدنا رسول اللهﷺ .

❋ تفقده لأحوال رعيته :

بعد أن بويع سيدنا عمررضي الله عنه بالخلافة ، رقى المنبر ورفض أن يجلس على الدرجة التي كان يجلس عليها أبو بكر الصديق ، فوقف أدنى درجة من درجة

أبي بكر وقال : أيها الناس ، ماذا تصنعون بعمر إذا اعْوَجّ عمر ؟ فقام بدوي وقال : والله يا عمر ، لو رأينا منك اعوجاجاً لقوّمناه بشطرات سيوفنا . فقال عمر مشجعاً له وللمسلمين : الحمد لله الذي وُجد في عهد عمر مَن يُقوّم عمر إذا اعوج عمر .

ومن هذه النقطة انطلق سيدنا عمر ، كان يريد الإنصاف ويريد الحق ، وَلِيَ الخلافة ليكون خادماً للمسلمين ، ومقالته معروفة : والله لو عطشت شاة على شاطئ الدجلة لسئل عنها عمر يوم القيامة . لا يجب عليها أن تنزل إلى النهر ، بل يجب على الخليفة أن يغرف لها الماء ويوصله إلى فمها .

فبعد أن ولي رضي الله عنه الخلافة هجر النوم وكان يهجع قليلاً ، ثم يسير في أزقة وطرقات المدينة وبين بيوتاتها ، يتفقد الأرامل والثكالى ، والضعفاء والعاجزين ، فمن كان بحاجة أوصل إليه حاجته .

يحمل الدقيق على كتفه إلى بيوت الأرامل ليلاً ، ويقول لمن أراد أن يحمل عنه شيئاً : ويحك ، أتحمل عن عمر أوزاره يوم القيامة ؟ مَن وَلِيَ أمور المسلمين أحق أن يقوم بخدمة المسلمين .

يروى عن أنس بن مالك قال : بينما أمير المؤمنين عمر يعس ذات ليلة ، إذ مرّ بأعرابي جالسٍ بفناء خيمة ، فجلس إليه يحدثه ويسأله : ما أقدمك هذه البلاد ؟ فبينما هو كذلك إذ سمع أنيناً من الخيمة فقال : مَن هذا الذي أسمع أنينه ؟ فقال : أمر ليس من شأنك ، امرأة تمخض . فرجع عمر إلى منزله وقال : يا أم كلثوم ، شدي عليك ثيابك واتبعيني .

قال : ثم انطلق حتى انتهى إلى الرجل فقال له : هل لك أن تأذن لهذه المرأة أن تدخل عليها وتونسها ؟ فأذن لها فدخلت ، فلم تلبث أن قالت : يا أمير

المؤمنين ، بَشّرِ صاحبك بغلام . فلما سمع قول : (أمير المؤمنين) وثب من حينه ، فجلس بين يديه وجعل يعتذر إليه فقال : لا عليك ، إذا أصبحتَ فائتنا . فلما أصبح أتاه ، ففرض لابنه في الذرية وأعطاه .

وروى الإمام مالك في الموطأ عن عبدالله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل ، فسمع امرأة تقول :

لقد طال هذا الليل واسودّ جانبه ... وليس إلى جنبي خليل أداعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه ... لزُحْزحَ من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنهما : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ قالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

وروى ابن سعد في طبقاته عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبدالرحمن : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما . فسمع عمر بكاء صبي ، فتوجّه نحوه فقال لأمه : اتق الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه . فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه .

فلما كان من آخر الليل ، سمع بكاءه فأتى أمه ، فقال لها : ويحك ، إني لأراك أم سوء ، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله ، قد أبرمتني[1] منذ الليلة ، إني أربعه على الفطام فيأبى . قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للمُفْطَم . قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، قال : ويحكِ لا تعجليه .

١- بمعنى أضجرتني .

فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته مِن غلبة البكاء ، فلما سلّم قال : يا بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر منادياً ينادي : أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق : أن يُفرض لكل مولود في الإسلام .

وروي أنه عسّ ليلة من الليالي فأتى على امرأة وهي تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت : لا أفعل ، فإن أمير المؤمنين نهى عن ذلك . قالت : ومن أين يدري هو ؟ قالت : فإن لم يعلم هو فإن رب أمير المؤمنين يرى ذلك .

فلما أصبح عمر قال لابنه عاصم : اذهب إلى مكان كذا وكذا فإن هناك صبية ، فإن لم تكن مشغولة فتزوّج بها لعل الله أن يرزقك منها نسمة مباركة . فتزوّجها عاصم ، ومن نسلها كان عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين .

ويروى عن الأوزاعي أن عمر بن الخطاب خرج في سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتاً ، ثم دخل بيتاً آخر . فلما أصبح طلحة ذهب إلى البيت ذلك ، وإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل الذي يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ، ويُخرج عني الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع ؟

هكذا كان عمل عمر دائماً ، يدل الناس على الله وعلى الطريق الصحيح الذي يجب على كل مسلم أن يسلكه . رسّخ هذه العقائد والأخلاق في أذهان رعيته . علّمهم الاستقامة ، والأمانة ، والثبات على الحق. فهذه رعية لا تراقب الحاكم بل تراقب الله ﷻ ، فتستحق النصر والحياة ، وتستحق أن تستلم سدة الأمم وقيادتها .

❋ زهده في الدنيا :

كانﷺ زاهداً ، ورعاً ، مُعرضاً عن الدنيا ، لا عن كلام إنما كان عن حقيقة .

عن مالك بن دينار عن الحسن قال : « خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة »[١] .

وقال أنسﷺ : « رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع في قميصه »[٢] .

وعن طلحة بن عبيدالله قال : « ما كان عمر بأولنا إسلاماً ، ولا أقدمنا هجرة ، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا ، وأرغبنا في الآخرة »[٣] .

وورد عن عمرﷺ أنه قال : « ألا إني أنزلت نفسي مِن مال الله منزلة الولي من مال اليتيم ، إن استغنيتُ استعففتُ ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف ، فإذا أيسرتُ قضيتُ »[٤] .

وأخرج ابن سعد عن الأحنف بن قيس قال : كنا جلوساً بباب عمر ، فخرجت جارية فقلنا : سرية عمر . فقالت : إني لست سرية لعمر ، إني لا أحل لعمر ، إني من مال الله . فتذاكرنا بيننا ما يحل له من مال الله .

قال : فرقي ذلك إليه ، فأرسل إلينا فقال : ما كنتم تذاكرون ؟ فقلنا : خرجت علينا جارية فقلنا : هذه سرية عمر ، فقالت : إنها ليست بسرية عمر ، إنها لا تحل لعمر ، إنها من مال الله . فتذاكرنا ما بيننا ما يحل لك من مال الله .

١- رواه أحمد ، وأبو نعيم في الحلية .
٢- رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وابن سعد في طبقاته .
٣- أخرجه الفضائلي .
٤- رواه ابن حجر وقال : إسناده صحيح ، وذكره الطبري في تفسيره .

فقال : أنا أخبركم بما أستحل من مال الله : حلة الشتاء والقيظ ، وما أحج عليه وما أعتمر عن الظهر ، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، أنا رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم .

وأخرج كذلك في طبقاته أنَّ عمر خرج يوماً حتى أتى المنبر ، وقد كان اشتكى شكوى له فنعت له العسل وفي بيت المال عُكّة ، فقال : إن أذنتم لي فيها أخذتها ، وإلا فإنها عليّ حرام . فأذنوا له فيها .

وروى البيهقي في سننه أن حفصة ، وابن مطيع ، وعبدالله بن عمر كلّموا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالوا له : لو أكلتَ طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق ، قال : أكلكم على هذا الرأي ؟ قالوا : نعم ، قال : قد علمتُ أنه ليس منكم إلا ناصح ، ولكني تركتُ صاحبيّ على جادة ، فإن تركتُ جادتهما لم أدركهما في المنزل .

وأخرج الطبري والفضائلي عن قتادة قال : قدم بريد ملك الروم على عمر ، فاستقرضت امرأة عمر ديناراً ، فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير ، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم . فلما أتاها فرّغتهنّ وملأتهنّ جواهر ، وقالت : اذهب به إلى امرأة عمر .

فلما أتاها فرّغتهنّ على البساط ، فدخل عمر فقال : ما هذا ؟ فأخبرته . فأخذ عمر الجوهر فباعه ، ودفع إلى امرأته ديناراً ، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين .

وروى الطبري في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح الشام ، فقال : إني كنت امرأ تاجراً يغني الله

عيالي وقد شغلتموني بأمركم ، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعليٌّ ساكت ، فقال : ما تقول يا علي ؟ فقال : ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا المال غيره . فقال القوم : القول قول ابن أبي طالب .

وأخرج عن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت : دخل عليّ عمر فقدّمتُ إليه مرقة باردة وصببتُ عليها زيتاً ، فقال : إدامان في إناء واحد ، لا أذوقه أبداً حتى ألقى الله .

وروى كذلك عن سالم بن عبدالله قال : لما وُلِّيَ عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له فكان بذلك ، فاشتدت حاجته فاجتمع نفر من المهاجرين منهم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير . فقال الزبير : لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه ، فقال علي : وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا . فقال عثمان : إنه عمر ، فهلموا نأتي حفصة فنسألها .

فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر ، ولا تسمّي له أحداً إلا أن يَقبل ، وخرجوا من عندها .

فلقيت عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه ، فقال : مَن هؤلاء ؟ قالت : لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك . فقال : أنت بيني وبينهم ، أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول اللهﷺ في بيتك مِن الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشوقين كان يلبسهما للوفد ، ويخطب فيهما للجمع . قال : فأي الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : خبزنا خبزة شعير ، فصببنا عليها وهي حارة أسفل عُكّة لنا فجعلناها

دسمة ، فأكل منها وتطعم منها استطابة لها . قال : فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء لنا ثخين كنا نرقعه برقعة في الصيف فنجعله تحتنا ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه الآخر . قال : يا حفصة ، فأبلغيهم عني أن رسول اللهﷺ قدّر فوضع الفضول مواضعها ، وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها . وإنما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزوّد زاداً فبلغ المنزل ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه . ثم اتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي لحق بهما وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

وروى ابن المبارك في كتاب الزهد أنَّ عمر دخل يوماً على ابنه عاصم وهو يأكل لحماً ، فقال : ما هذا ؟ قال : قَرِمنا[1] إليه ، قال : أوكلما قَرِمتَ إلى شيء أكلته ؟ كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى .

وروى عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : لما قدم عمر بن الخطاب الشام ، صُنع له طعام لم يرَ قبله مثله . قال : هذا لنا ؟ فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ فقيل : لهم الجنة . فاغرورقت عينا عمر وقال : لئن كان حظنا من هذا الحطام وذهبوا بالجنة لقد بانوا بوناً عظيماً .

وعند فتح بيت المقدس استقبله أبو عبيدة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وخالد ابن الوليد ، وقالوا له : غيّر قميصك فإنه خشن ، وقد اقتنع لقولهم . فخلع قميصه المرقع ولبس قميصاً ناعماً ، فشعر بأن قلبه الذي يعرفه ذهب عنه ، فقال لهم :

١ـ القرم هو شدة شهوة اللحم .

رُدُّوا عليّ قميصي يرحمكم الله . ثم قال بعد أن لبس المرقع : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة بغير ما أعزنا الله أذلنا الله .

فكان حالاً يشعر قلبه بالقساوة إذا خالف شيئاً فيه ميلان لهذه الدنيا ، ولهذه الحياة الفانية .

هكذا كان عمر رضي الله عنه منذ عهدت له الخلافة ، عقد أن يمنع نفسه من الدنيا تماماً ، ولم يدخلها كما دخلها أي مسلم آخر، طعاماً ، وشراباً ، ولباساً ، ونكاحاً .

* شدة خوفه من الله تعالى :

كان رضي الله عنه قد بُشّرَ بالجنة أكثر من مرة ، والقرآن نزل مؤيداً له في عدة مواضع ، ومع هذا كان شديد الخوف من الله سبحانه وتعالى ، كان يرتجف ارتجاف المحموم إذا ذكر الله .

وكان في وجهه بعد أن استلم الخلافة خطان أسودان من كثرة البكاء ، ومن خشية الله تعالى .

وقد روي عنه أنه كان يمر بالآية في ورده فتخنقه ، فيبكي حتى يسقط مريضاً ، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضاً .

وكان دائماً يقول : « والله لو دخلت رجلي الجنة وسمعتُ كلمة : اخرج ، لَما ظننت إلا لعمر » .

ويقول كذلك : « لو نادى مناد من السماء : أيها الناس ، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً ، لخفت أن أكون هو . ولو نادى مناد : أيها الناس ، إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون هو »[1] .

١- أخرجه أبو نعيم في الحلية .

وعن عبدالله بن عامر قال :« رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال : ليتني هذه التبنة ، ليتني لم أك شيئاً ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسياً منسياً »[1] .

كما أخذ يوماً شعرات من وبر البعير وقال : « إني أخاف أن أسأل عن هذا يوم القيامة إذا لم يأخذ المسلمون حقهم مني » .

وعن عبدالله بن عمر قال : « كان عمر بن الخطاب يقول : لو مات جدي بطَفِّ الفرات ، لخشيت أن يحاسب الله به عمر »[2] .

وروي أن أبا بكر عند موته ، خلع ثيابه التي كانت عليه وقال : ردوها لبيت مال المسلمين . وعندما حملها عبدالرحمن بن أبي بكر إلى عمر ورآها عمر ، جلس وبكى وأبكى ، فقال له عبدالرحمن بن عوف : ويحك يا عمر ، أتقبل ثوب أبي بكر الذي كان يلبسه ؟ فقال عمر : ويحك يا عبدالرحمن ، أيخرجه أبو بكر من عهدته أمام الله ويتحمله عمر ؟ فلا والله لأُبقيّنه في بيت مال المسلمين . ووضعه على السدة هناك ، ولا زال يبكي ويتوجع إلى فترات طويلة من هذه الحادثة .

وروي كذلك أنهم شكوا له رجلاً يغني خلف الصلاة ، فقال : خذوني إليه . فذهب وصلى خلفه العصر ، وبعد أن أنهى الرجل أوراده تنحّى وجعل يغني ويقول :

نفسي لا كنتِ ولا كان الهوى فاتقّ الله وخافِ وارهبي

وكان يكررها ، فكان عمر يبكي ويبكي حتى بلّت دموعه لحيته ، وقال : يا قوم ، مَن أراد أن يغني فَلْيُغنِّ بمثل هذا .

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وأخرجه ابن سعد في طبقاته عن شعبة .
٢- ذكره أبو الفرج في صفوة الصفوة ج١ ص٢٨٥ .

❋ حلمه وتواضعه :

كان ﷺ يُعَلّم رعيته كيف يكون الإنسان متواضعاً لله تعالى ، يجلس مع الدراويش وأهل الصفة ويجالسونه ، يحادثهم ويحادثونه . وكان يأخذ منهم ما لا يعرف عن رسول الله ﷺ ، فقد أخذ عن أبي هريرة وعن أنس ﷺ مع أنه كان مِن أعلم الأمة ، وكان يفتي في عهد النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر الصديق .

ما منعته الخلافة أن يكون الإنسان العبد المتواضع ، ومن ذلك ما رواه الحاكم بسند صحيح عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعه أبو عبيدة بن الجراح ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له ، فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة . فقال له أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا ؟ تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك ، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة ؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك . فقال عمر : إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله .

ولما خرج البطارقة لاستقباله ، سألوا بالطريق عن عمر وأرادوا أن يصلوا إليه ، وإذ وجدوا رجلاً يقود بعيراً بعبد والطين إلى أنصاف ساقيه ، فسألوه : أين عمر ؟ فقال لهم : أنا عمر .

أراد أن يحقر لهم الدنيا بأعينهم ، فهذا الذي أتوا ليسلموه مفتاح بيت المقدس هو إنسان بعيد كل البعد عن هذه القصور ، وعن الطعام والشراب وعن غير ذلك ، والدنيا عنده لا تساوي تبناً .

وروى الطبري في تاريخه أن عمر كان يخرج ظاهر المدينة ويتفقد أحوال الناس ، فصلى الظهر تحت شجرة بعيدة من المدينة ، ثم أخذ كومة من الرمل وجعلها تحت رأسه – وفي رواية جعل نعله تحت رأسه – ونام يستريح ساعة . فمرّ به رسول كسرى ملك الفرس ، فوقف على رأسه وقال عبارته المعروفة : عدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر . فلما استيقظ عمر قبل رسول كسرى رجليه وأسلم ، فبكى عمر وقال : يا رب ، هلك عمر إن لم ترحمه .

وأخرج ابن أبي حاتم والدارمي والبيهقي عن أبي يزيد قال : لقي عمر بن الخطابﷺ امرأة يقال لها : خولة وهي تسير مع الناس فاستوقفته ، فوقف لها وأصغى إليها رأسه حتى قضت حاجتها وانصرفت . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست رجالات قريش على هذه العجوز ، قال : ويحك ، أتدري مَن هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها مِن فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفتُ حتى تقضى حاجتها .

وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء عن عبدالله بن عمر بن حفص قال : حمل عمر بن الخطاب قربة على عنقه ، فقيل له في ذلك فقال : إنَّ نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها .

❋ عدله وصلابته في الحق :

إن عمر بن الخطابﷺ كان أمة وحده ، كان يمثل العدالة الإسلامية الصحيحة . ما كان يفرق بين قريب وبعيد ، وبين أمير وصعلوك . الأرض التي كان يسير عليها تشهد بعدله وأخلاقه ، والسماء التي كانت تظله كذلك تشهد بأنه عادل .

روي أن عمر رقى المنبر يوماً وقال : أيها الناس ، اسمعوا رحمكم الله . فقام إليه رجل من القوم فقال : والله لا نسمع . فقال : ولِمَ يا عبد الله ؟ قال : لأنك يا عمر تفضلت علينا بالدنيا ، أعطيتَ كل واحد منا قميصاً ونرى عليك قميصين . فقال : أين عبدالله بن عمر ؟ فقال : ها أنا يا أمير المؤمنين ، فقال : لمن أحد هذين القميصين اللذين عليّ ؟ قال : لي يا أمير المؤمنين . فالتفت عمر إلى الرجل وقال : عجلتَ عليّ يا عبد الله ، قميص لي وقميص لولدي عبدالله وهو من المسلمين . فقال الرجل : الآن تكلم لنسمع يا عمر .

وكانﷺ يقول دائماً للكل : أنى لك هذا ؟ فيحاسب عماله الحسيب منهم وغيره ، لا يخشى في الله لومة لائم .

أخرج ابن حبان وأبو يعلى والطبراني وغيرهم عن جابر بن سمرة قال : كنت قاعداً عند عمر بن الخطاب إذ جاءه ناس من أهل الكوفة يشكون سعداً حتى قالوا له : إنه لا يحسن الصلاة . فقال : عهدي به وهو حَسَنُ الصلاة . فدعاه فأخبره ، فقال : أمّا صلاة رسول اللهﷺ فقد صليت بهم أركد في الأُولَيَيْن ، وأحذف في الأخريين . فقال : ذاك الظن بك أبا إسحاق .

فبعث معه من يسأل عنه بالكوفة ، فطيف به في مساجد الكوفة فلم يُقَل له إلا خيراً . حتى انتهى إلى مسجد بني عبس ، فإذا رجل يُدعى أبا سعدة فقال : اللهم إنه كان لا ينفر في السرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية . قال : فغضب سعد وقال : اللهم إن كان كاذباً فأطل عمره ، وشدد فقره ، وأعرض عليه الفتن . قال : فزعم ابن عمير أنه رآه قد سقط حاجباه على عينيه ، قد افتقر

وافتتن فلم يجد شيئاً ، يُسأل : كيف أنت أبا سعدة ؟ فيقول : شيخ كبير مفتون أجيبت فِيَّ دعوة سعد .

وأخرج ابن عبد الحكم عن أنسﷺ أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطابﷺ فقال : يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم. قال : عذتَ معاذاً ، قال : سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين .

فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما كتاباً يقول فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاص ابن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فائتِ أنت وولدك) .

فلما حضرا ، عقد عمر مجلساً فيه كبار الصحابة ، وقام القبطي وقصّ الحكاية ، فقال عمر لعمرو : مُذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! ثم قال للقبطي : خذ السوط فاضرب خصمك . فجعل يضربه بالسوط وعمر يقول : اضرب ابن الأألأمين .

قال أنس : فضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه . ثم قال للقبطي : ضع على صلعة عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدتُ منه .

ويعود يومها عمرو بن العاص إلى مصر وهو يقر بالفعل ، وأعلم الناس أن هذا الحكم هو حكم الإسلام . ويسبقه القبطي ويذكر لأهل مصر عدل الإسلام ، فأسلم على أثرها عدد كبير من الناس .

وفي إمارته كذلك عزل عمر خالد بن الوليد عندما سمع أنه أجاز الأشعث ابن قيس عشرة آلاف ، ودخل الحمام وتدلّك .

فقد أرسل إلى أبي عبيدة يطلب منه أن يعزل خالداً عن الإمارة ، وأن يقيمه أمام المسلمين ، وأن يخلع عمامته وقلنسوته عن رأسه – وهي عظيمة عند العرب والمسلمين – ، وأن يوثقه بعمامته ، وأن يستوضح منه مِن أين أجاز الأشعث والناس ، أمِنْ ماله أم من إصابة أصابها من الروم ؟ فإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وإن زعم أنها من إصابة أصابها من الروم فقد خان واختلس دون أن يرجع إلى الإمارة كلها .

ويأتي كتاب عمر إلى أبي عبيدة ، فاستكبر ذلك كثيراً ، خالد المخزومي صاحب فتوحات الشام والعراق تخلع عمامته عنه ، ويُعزل من الجيش أمام الناس ! غير أنه أرسل إلى خالد ، وأحضر المسلمين وقوادهم ، ورقى المنبر وجلس ، وقام رسول عمر وقرأ الكتاب على خالد ، ثم سأله : مِن أين منحته هذا المال ؟ فلم يجبه خالد ، وأبو عبيدة جالس على المنبر ساكت لا يتكلم . ثم يقوم بلال ابن رباح العبد الحبشي ويقول : يا خالد ، أمير المؤمنين يأمر بنزع العمامة عن رأسك وبتوثيقك . ثم تقدم إليه وأقامه ، وأوثقه بعمامته ، ثم قال له : يا خالد ، مِن أين الذي أجزته الأشعث ؟ أمن مالك أم من إصابة أصبتها من الروم ؟ قال : لا ، بل من مالي . فقام بلال وأطلقه ، وأعاد القلنسوة على رأسه وعمّمه بيده ، ثم قال خالد : نسمع ونطيع لولاة أمرنا ، ونفخم ونخدم موالينا .

وكان عمر قد طلب من أبي عبيدة أن يرسل خالداً إليه ، واستحيى أبو عبيدة أن يفاتح خالداً بمثل ذلك . واستأخر عمر مجيء خالد ، فعلم أن أبا عبيدة

قد هاب ذلك ، فأرسل كتاباً خاصاً لخالد بن الوليد يقول فيه : إذا جاءك كتابي هذا فائتني إلى المدينة .

ويصل الكتاب إلى خالد ، ويسير إلى مدينة رسول اللهﷺ . ويبدأ بالقبر الشريف ويسلم على رسول اللهﷺ ، ثم يصلي ركعتين ، ثم يلتقي بعمر ويقول : أيها المسلمون ، إني أشكو عمر بن الخطاب إليكم فإنه قد ظلمني . فيقول عمر : يا خالد ، مِن أين أجزت الأشعث ؟ قال : من مالي ، قال : مِن أين لك هذا المال ؟ قال : من الأنفال ، جمعت ستين ألفاً ، فانظر إلى مالي فإن زاد عن ذلك فَخذه . فنظر إلى ماله فوجده عشرين ألفاً .

ثم أخذ عمر المال ووضعه في بيت المال ، وقال لخالد : يا خالد ، والله إني لأحبك ، وما فعلتُ ذلك إلا لأني قد رأيت المسلمين قد تعلّقوا بك ، فخفت أن يهلكوا دون ذلك ، وأردت أن أعلقهم بالله .

ثم أعاد إليه أموالاً تعادل أمواله من بيت المال ، ثم كتب كتاباً إلى الأمصار وقال : يا أيها المسلمون ، ما عزلتُ خالداً على خيانة قد خانها ، ولكني خشيت على المسلمين من التعلق بغير الله سبحانه ، وأردت منهم أن يتعلقوا بملك الملوك .

ثم أرجعه عمر إلى بلاد الشام راضياً مرضياً ، وجلس المسلمون يومها يحاكمون عمر ويحاكمون خالداً .

وبعد ذلك سكن خالد بن الوليد حمص حتى كانت وفاته فيها . وهو القائل عند موته : (لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة

بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح . وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما تموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء)[1] .

ذكرت لك أيها القارئ هذه الحادثة التي كانت سنة سبع عشرة من الهجرة ؛ لننظر الفرق بين حكام اليوم وأئمتنا الصادقين الذين دانت لهم الدنيا . ولأبين هذا النموذج من الناس الذين لا يفرقون بين إنسان وآخر إلا بالتقوى . ما أرادوا أنفسهم إنما أرادوا الله تعالى ، فالمعركة لم تكن لنفس إنما كانت لله ﷻ ، وكان عمر مصيباً يومها في رأيه .

ولم تكن هذه الحادثة الأولى والأخيرة في عهد عمر ، بل فعل غيرها الكثير ، من ذلك :

يروى أن عمر كان قد ولى المغيرة بن شعبة على البصرة ، وكان المغيرة ذا مكانة ، وحسب ، ونسب . فجاء كتاب من البصرة يشكون المغيرة لعمر ، قال فيه الصحابي الجليل أبو بكرة نفيع بن الحارث : يا أمير المؤمنين ، بيتي يقابل بيت أمير البصرة ، وكان عندي نفر ثلاث : فلان ، وفلان ، وفلان . كنا جالسين ففتح الهواء نافذتي ، فقمت لأغلق النافذة وإذ رأيت المغيرة بن شعبة بين شعبيها ، ورأيت القلم في الدواة . ثم قلت لزواري : قوموا فاشهدوا ، فقاموا فرأوا ذلك . وذكر المرأة التي زنى بها وكان اسمها جميلة ، وهي مشهورة بأنها تمر على الرجال .

ويأتي الكتاب لعمر ، ومباشرة يعزل المغيرة ويولي أبا موسى الأشعري حكم البصرة ، ويطلب من المغيرة ومَن شهد عليه أن يأتوا إلى المدينة .

١- أخرجه الذهبي عن أبي الزناد ، وابن عبد البر في الاستيعاب ، وذكره ابن كثير في تفسيره .
وهذه العبارة مكتوبة الآن على باب خالد في مدينة حمص حيث دفن .

ويأتي الركب ، ثم يعقد عمر جلسة أحضر فيها الرجال الذين يُرجع إليهم ، وأحضر المغيرة ومَن شهد عليه . فأتى أبو بكرة وقام وشهد بما رأى ، وقام صاحباه وشهدا كما شهد ، وقام الرابع وقال : رأيته بين فخذيها ولم أر القلم في الدواة ، وبذلك سقطت شهادة الزنى وانتقلت إلى قذف .

ثم يقوم المغيرة ويقول : يا أمير المؤمنين ، إنهم شهدوا بما سمعتَ ، وإنها ليست هناك امرأة تنعت بجميلة ، وإن زوجتي تشابهها تماماً ، بل كنت جالساً مع زوجتي – وأثبتَ ذلك – ، وما ظننت أن أناساً يراقبوني والباب قد فتحه الهواء ورأوا ما رأوا .

فقام عمر حالاً وأقام الحد جلداً على القاذفين . ويقول يومها المغيرة لعمر : اجلدهم يا أمير المؤمنين ، فيقول عمر : اسكت ، فوالله لو شهد الأربعة لرجمتك يا مغيرة ، ولكنتُ أول من يرميك بحجر كبير .

هكذا كانت حياة سيدنا عمر رضي الله عنه ، إذا قلنا عمر : نعني به الخلافة الإسلامية ، نعني به حكم الإسلام ، نعني به الطريقة التي أرادها رسول الله ﷺ .

يا له من إنسان استطاع أن يتجرد عن نفسه وعن شهواته تماماً ! أقبل على ربه بكله ، حاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره . حَرَم نفسه من المنام ، ومن اللذة مع النساء ، ومن الطعام الشهي ، ومن الراحة ، وأعطى كل ذي حق حقه .

رفض إلا أن يكون ثالث ثلاثة ، رفض إلا أن يلحق بصاحبيه ويتمثل بهم تماماً مع السعة . فكانت درته تهز العروش هزاً ، وتخيف أكثر من الذرية في زماننا .

لقد علّم الحكام إلى يوم القيامة كيف يكون الحاكم العادل ، وكيف يلي ، وكيف يأكل ويشرب ، وكيف ينام ، وكيف يكون خادماً للمسلمين .

فمن أراد الآخرة فليفعل كما فعل عمر رضي الله عنه ، وإنَّ ما فعله عمر تعجز الولاة من بعده أن يقوموا بمثله ، وليتنا نرى من يمثل عمر حقاً .

فلله درك يا ابن الخطاب أتعبت الحكام بعدك إلى يوم القيامة ، ولن يصل حاكم شأوك مهما بذل جهداً .

ذكر بعض ما جاء في الكتب السماوية في صفة سيدنا عمر

❋ أخرج الطبري عن كعب الأحبار أنه لقي عمر بالشام فقال له : إنه مكتوب في هذه الكتب أن هذه البلاد التي كانت بنو إسرائيل أهلها مفتوحة على يد رجل من الصالحين ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، سِرّه مثل علانيته ، قوله لا يخالف فعله ، القريب والبعيد سواء عنده في الحكم ، أتباعه رهبان بالليل وأسد بالنهار ، متراحمون متواصلون . قال عمر : أحقاً ما تقول ؟ فقلت : إي والذي يسمع ما أقول ، فقال : الحمد لله الذي أعزنا ، وكرّمنا ، وشرّفنا ، ورحمنا بنبينا محمد ، ورحمته التي وسعت كل شيء .

❋ وروى الطبراني أن عمر رضي الله عنه كان يقول لكعب الأحبار : كيف تجد نعتي في التوراة والإنجيل ؟ قال : قرن من حديد . قال : وما قرن مِن حديد ؟ قال : أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم . قال عمر : ثم مه ؟ قال : ثم يكون بعدك خليفة تقتله فئة ظالمة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم يكون البلاء .

❋ وأخرج الخطيب عن مالك أن عمر دخل على أم كلثوم بنت علي فوجدها تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : هذا اليهودي كعب الأحبار يقول : إنك باب من أبواب جهنم ، فقال عمر : ما شاء الله .

ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة ، فقال : ما هذا ؟ مرة في الجنة ، ومرة في النار ؟ فقال : إنا لنجدك في كتاب الله على باب مِن أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها ، فإذا مِتَّ اقتحموا .

❋ وروى أبو نعيم في الحلية أن كعباً مر بعمر وهو يضرب رجلاً بالدرة ، فقال كعب : على رسلك يا عمر ، فوالذي نفسي بيده إنه لمكتوب في التوراة .

❋ وروى كذلك عن كعب قال : ويل لسلطان الأرض مِن سلطان السماء ، وويل لحاكم الأرض مِن حاكم السماء . فقال عمر : إلا مَن حاسب نفسه ، فقال كعب : والذي نفسي بيده إنها لفي كتاب الله المنزل ، ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه .

❋ وذكر ابن أبي عاصم في الزهد عن أبي عبيد قال : ركض عمر فرساً على عهد رسول الله ﷺ فانكشفت فخذه من تحت العباءة ، فأبصر رجل من أهل نجران شامة في فخذه ، فقال : هذا الذي نجده في كتابنا يخرجنا من ديارنا .

وقد ورد في الكتب السماوية غير ذلك من أشياء تبيّن فضل عمر ، وهي موجودة في المطولات ، فليرجع إليها من أراد ذلك ، والله الموفق للصواب .

ذكر بعض كرامات عمر

❋ روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما سمعتُ عمرَ لشيء قط يقول : إني أظنه كذا إلا كان كما يظنه . بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل[1] ، فقال عمر : لقد أخطأ ظني ، إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم ، عليّ بالرجل . فدعا به فقال له ذلك ، فقال : ما رأيتُ كاليوم أستقبل به رجلاً مسلماً ، قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني ، قال : كنت كاهنهم في الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك في الجاهلية ؟ قال : بينما أنا يوماً في السوق ، جاءتني أعرف منها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ؟

❋ وأخرج البيهقي والخطيب عن نافع بن عمر بإسناد حسن قال : رقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر في يوم الجمعة ، ودخل في الخطبة يخطب ، وإذ ترك الخطبة وقال : يا ساريةُ الجبلَ – ثلاثاً – ، ثم أقبل على خطبته وتمّمها ، فقال الحاضرون : لقد جُنَّ هذا . وكان عمر قد جمع جيشاً وأمّر عليه رجلاً اسمه سارية ، وأرسله إلى بلاد نهاوند .

فدخل عليه بعد الخطبة عبدالرحمن بن عوف وكان عمر يطمئن إليه ، فقال له : إنك لتجعل لهم عليك كلاماً ، بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح : يا ساريةُ الجبلَ ، أي شيء هذا ؟ فأجابه عمر قائلاً : لا والله إني ما ملكت ذلك ، رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم ، فلم أملك أن قلت لهم : يا ساريةُ الجبلَ ؛ ليلحقوا بالجبل .

فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتاب سارية يقول فيه : إن القوم لقونا

١- هو سُوَيْد بن قارب .

يوم الجمعة فقاتلناهم ، حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا منادياً ينادي : يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثا فلحقنا بالجبل ، فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم ، ولولا صوت عمر لأُخذنا وأبدنا عن آخرنا ، ولكن صوت عمر كان منقذاً لنا من عدونا . عند ذلك اعترف هؤلاء الذين طعنوا عليه وقالوا : دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له .

❋ وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هدبة الحمصي قال : أخبر عمر أنَّ أهل العراق قد حصبوا أميرهم ، فخرج غضبانَ فصلى فسهى في صلاته ، فلما سلّم قال : اللهم إنهم قد لبّسوا علي فألبس عليهم ، وعَجّل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، ولا يقبل مِن محسنهم ، ولا يجاوز عن مسيئهم .

وهذا كان قبل أن يولد الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد حصل واستجاب الله دعاء عمر ، وجاءهم الغلام الثقفي الظالم .

❋ وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : إن كان الرجل ليحَدّثُ عمر بالحديث فيَكْذِبُه كذبة ، فيقول : احبس هذه . فيحدثه بالحديث فيقول له : احبس هذه . فيقول له : كل ما حدثته حق إلا ما أمرتني أن أحبسه .

❋ وكذلك من كراماته ما أخرج أبو القاسم بن بشران من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : قال عمر بن الخطاب لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة . قال : ابن مَن ؟ قال : ابن شهاب . قال : ممن ؟ قال : من الحرقة . قال : أين مسكنك ؟ قال : الحرّة . قال : بأيها ؟ قال : بذات لظى ، قال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا . فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا[1] .

١- أخرج الإمام مالك في الموطأ نحوه ، وابن دريد في الأخبار المنثورة ، كما ذكره الإمام السيوطي .

❊ وأخرج أبو الشيخ في العظمة بسنده إلى قيس بن الحجاج عمّن حدّثه قال : لما فتحت مصر أتى أهلُها عمرو بن العاص حين دخل يوم من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إنَّ لِنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلا بها ، قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان أحد عشر ليلاً تخلو من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكْرٍ بين أبويها ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إنَّ هذا لا يكون في الإسلام أبداً ، وإنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا فترة والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بذلك ، فكتب له : أنْ قد أصبتَ بالذي فعلتَ ، وإنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله . وبعث بطاقة في داخل كتابه ، وطلب من عمرو أن يلقيها في النيل .

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص ، أخذ البطاقة ففتحها ، فإذا فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد :
فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم ، فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، فقطع الله تلك السُّنة عن أهل مصر إلى اليوم .

بعض من مآثره وكلامه

❋ قال رضي الله عنه : « لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيتُ الله : لولا أن أضع جبهتي لله ، أو أن أجلس في مجالس يُنتقى فيها طيب الكلام كما يُنتقى جيد التمر ، أو أن أسير في سبيل الله عز وجل » .

أي يقول سيدنا عمر : لولا الصلاة ، ولولا مجالسة الصالحين ، ولولا كذلك السير في عمل الخير والجهاد ، لأحببت الموت على الحياة ؛ لأن هذه الثلاث تعني الإسلام كله ، والحياة بدونها غير جميلة .

فالمؤمن الصادق لو عُرضت عليه الدنيا بحذافيرها على أن يترك فريضة لَما تردّد لحظة ، فالفريضة عنده خير من مال الدنيا ، فهي صلة ولقاء مع الله كل يوم خمس مرات .

كذلك مجالسة الصالحين ، فليس فيها إلا الطيب .

وما قال لنا سيدنا عمر ذلك إلا ليبين لنا ناحية نحن بحاجة إليها ، وهي أن نختار هذه الثلاث على غيرها .

❋ وقال رضي الله عنه يوصي بها المؤمنين :« جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفئدة » .

هذه النصيحة وإن كانت كلمتين إنما معناها يشمل الحياة كلها . فإذا جالستَ التوابين تعلمت منهم التوبة ، والإنابة ، والرجوع إلى الله تعالى . هي التي تذكرك بالله ، وبالآخرة ، وبنبيك وسلفك الصالح . أما إذا جالست قساة القلوب ، فإنك تخرج من مجلسهم وقد فقدت قلبك وإحساسك .

❋ وحدّثنا أبو الأشهب عن الحسن قال : « مرّ عمر على مزبلة فاحتبس عندها ، فكأن أصحابه تأذوا بها فقال : هذه دنياكم التي تحرصون عليها » .

فأوصيكم بالابتعاد عن هذه الدنيا ، خذوا منها بقدر حاجتكم ، وإياكم أن تقعوا فيها كما وقعت الأمم قبلكم .

❊ ومن نصائحه رضي الله عنه : « لا تعترض فيما لا يعنيك . واعتزل عدوك . واحتفظ من خليلك إلا الأمين ، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء . ولا تصحب الفاجر فيعلمك مِن فجوره ، ولا تفشِ إليه سرك . واستشر في أمرك الذين يخشون الله عز وجل » .

فاحفظها أخي القارئ فإنها لكل مسلم ، وأما تفسيرها فيقول رضي الله عنه :

– **لا تعترض فيما لا يعنيك** : أي دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

– **واعتزل عدوك** : أي ابتعد عنه بقدر الاستطاعة ، وحاول أن لا تراه ولا يراك .

– **واحتفظ من خليلك إلا الأمين** : أي ليس كل صديق يُعطى السر ، فاحذر من الصديق إلا أن يكون صديقاً مجرباً أميناً ، وهذا في أيامنا نادر كندور الكبريت الأحمر .

صديق الصدق في الدنيا قليل ... فمن لك إن ظفرتَ به فمَن لك
لحاجته يودك كل شخص ... فإذا قضاها منك مَلك
صديقك ما إذا ما كنتَ منه ... طلبتَ الروح بالتمليك مَلك

– **ولا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره** : وهذا يفسر قوله ﷺ : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة »[1] .

١- أخرجه مسلم من حديث أبي موسى ، وأبو داود من حديث أنس .

فإنك إن جالست الفسقة ونزل الغضب ، فإنه يعم الجميع . فبدلاً من أن تجلس معهم ، اجلس مع الصالحين ، اجلس مع زوجتك وابنك ، واجلس مع إخوانك ، وخذ القرآن واقرأ آية أو اقرأ حديثاً .

- **ولا تفش إليه سرك** : فالذي لا أمانة له على دينه لا يؤمن على سرك .

❊ وقال رضي الله عنه في إحدى خطبه : « تعلمون أنَّ الطمع فقر ، وأنَّ اليأس غنى ، وأنَّ الرجل إذا يئس مِن شيء استغنى عنه » .

❊ وقال أيضاً : « وجدنا خير عيشنا الصبر » .

❊ وقال رضي الله عنه : « كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، وسلوا الله رزق يوم بيوم » .

❊ وقال كذلك : « نظرت في هذا الأمر ، فجعلت إذا أردت الدنيا أضر بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضر بالدنيا ، فإذا كان الأمر هكذا فأضروا بالفانية » .

هذا بعض من كلام سيدنا عمر رضي الله عنه ، فمن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب المطولة .

الفتوحات الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر

كان عهد عمر رضي الله عنه بأكمله فتوحاً للمسلمين في كل أموره ، حصلت فيه فتوحات شاسعة عظيمة ، وفتحت بلاد وأمصار كثيرة .

❊ ❊ فتوح بلاد الشام ❊ ❊

فتح دمشق :

كان فتح دمشق[١] في سنة ثلاث عشرة بعد معركة اليرموك ، وفي فتحها قولان :

القول الأول : أن بعد معركة اليرموك أمر عمر بن الخطاب أبا عبيدة أن ينطلق إلى محاصرة دمشق ، فانطلق على رأس جيش وحاصرها من باب الجابية ، وانطلق خالد بن الوليد على رأس جيش آخر وحاصرها من باب شرقي ، وانطلق يزيد بن أبي سفيان على رأس جيش ثالث وحاصرها من باب الفراديس مِن قِبَلِ العمارة . كانت حصونها قوية ومنيعة ، فحاصرها المسلمون سبعين يوماً ، ثم يروى أن خورياً أسلم وبيته بقرب باب شرقي ، فحفر من جداره وأدخل المسلمين .

والقول الثاني وهو أقوى : أنَّ خالد بن الوليد صنع سلالم من حبل طويل ، وهناك جرى بقدرة الله في ليلة وُلد لحاكم دمشق غلام ، فصنع وليمة ودعا إليها

١- دمشق هي بلد آثاري من أقدم بلاد التاريخ ، فيه من الآيات ما اكتشف منه وما لم يكتشف .

ولقد اختلف في بنائها ، فقيل : بناها نوح ، وقيل : بل ولده ، وقيل : جيرون وأخوه بريد ، وقيل : دمشق بن اسكندر ذي القرنين ، فسميت باسمه .

وروي أنه بعهد معاوية بن أبي سفيان كان هناك رجل صالح في دمشق شُهر أنه يجتمع مع الخضر ليلياً ، فطلب منه معاوية لقاء الخضر ، فقال : أفعل . وطلب العبد الصالح من صديقه الخضر أن يلتقي معه معاوية ، فأبى الخضر . فنقل العبد الصالح الكلام إلى معاوية ، فقال : أخبره بأني جلست مع من هو أفضل منه - يقصد رسول الله ﷺ - وحدثته وحدثني ، ولا يضيرك ذلك إنما سله عمّن بنى دمشق . فسأله فأجابه الخضر بقوله : مررت عليها بحراً فتركتها خمسمائة عام ، فمررت عليها فإذ هي غيضة كبيرة ، فتركتها خمسمائة عام ومررت عليها وإذ رأيتها بحراً ، فتركتها خمسمائة عام ومررت عليها فرأيت بها بداية البناء .

عظماء أهل دمشق ، وقدّم لهم الخمور . فاستغل خالد هذا الوقت ومعه القعقاع وعدد ، ورمى السلم على الجدار العالي وقال لجنده : إذا سمعتم تكبيري فادخلوا الباب . فأبقى بعضَ الرجال على السلم ، ونزل البعض الآخر إلى الباب فقتلوا الحراس ، وكبّر خالد فدخل المسلمون من باب شرقي عنوة ، فكانوا يأسرون ويقتلون ويسلبون .

فعلم الروم بذلك فهرولوا إلى باب الجابية وطلبوا من أبي عبيدة الصلح ، فدخل معهم صلحاً وهو لا يدري بأن خالداً قد دخل من باب شرقي عنوة . والتقى القائدان وسط المدينة – مكان الجامع الأموي الآن – ، هذا قتلاً ونهباً ، وهذا صفحاً وتسكيناً . وكاد أن يقع الخلاف والفتنة ، فأرسلوا إلى عمر فقال : اجعلوا ما دخله خالد بن الوليد بحكم العنوة ، وما دخله أبو عبيدة بحكم الصلح .

ذكر فتح فحل :

يروى أنه لما فتحت دمشق ، استخلف أبو عبيدة عليها يزيد بن أبي سفيان وسار إلى فِحْل[1] . وكان أهل فِحْل قد قصدوا بيسان ، وكانت العرب تسمي هذه الغزوة بذات الرَّدَغة .

وكان خالد بن الوليد على المقدمة ، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ، وعلى المُجَنَّبَتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرَّجْل عياض بن غنم .

فنزل شرحبيل بالناس على فِحْل ، وبينهم وبين الروم تلك الأوحال التي كانوا

١- فِحل بكسر الفاء ، وسكون الحاء المهملة ، وبعده لام : وهو بلد معروف بغور الشام .

أعدّوها مكيدة للمسلمين ، وكتبوا إلى عمر وأقاموا ينتظرون جواباً ، فخرج عليهم الروم وقائدهم سِقلار بن مخراق ، فأتوهم والمسلمون حذرون وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى الصباح ويومهم إلى الليل ، فانهزم الروم وقد أظلم الليل عليهم ، فحاروا وأصيب رئيسهم سقلار والذي يليه فيهم مسطورس ، وظفر المسلمون بهم وركبوهم ، فلم يعرف الروم مأخذهم وانتهت بهم الهزيمة إلى تلك الأوحال ، فلحقهم المسلمون فوخزوهم بالرماح ، وكانت الهزيمة بفحْل والقتل بالزَّداغ . وأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا الشريد .

فصنع الله للمسلمين وهم كارهون ، كرهوا البثوق والأوحال فكانت عوناً لهم على عدوهم . وغنموا أموالهم ، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص .

وهناك أقوال أخرى اختلف بها المؤرخون في فتح فِحْل ودمشق ، منها أنَّ المسلمين لما فرغوا من أجنادين – على رأي مَن جعلها بعد اليرموك – اجتمع الروم بفحْل ، فقصدها المسلمون فحاصروها ، ففتحت في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، وكان فتح دمشق في شهر رجب سنة أربع عشرة على خلاف في ذلك .

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق :

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل : لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق وسار إلى فِحْل ، سار يزيد إلى مدينة صيدا ، وبيروت ، وجبيل ، وعرقة وعلى مقدمته أخوه معاوية . ففتحها فتحاً يسيراً ، وجلا كثير من أهلها . وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه في ولاية أخيه يزيد .

ثم غلب الروم على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ، ففتحها معاوية ثم رمّها وشحنها بالمقاتلة[1] .

ذكر فتح بيسان وطبرية :

قال ابن الأثير : لما قصد أبو عبيدة حمص من فِحْل ، أرسل شرحبيل ومَن معه إلى بيسان ، فقاتلوا أهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم صالحه مَن بقي على صلح دمشق .

وكان أبو عبيدة قد بعث بالأعور إلى طبرية ، فصالحه أهلها على صلح دمشق أيضاً على أن يشاطروا المسلمين المنازل . فنزلها الناس ، وكتبوا بالفتح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ذكر وقعة مرج الروم :

كانت في سنة خمس عشرة ، وانتصر فيها المسلمون على الروم بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد .

ذكر فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر :

وفي سنة خمس عشرة كذلك سار أبو عبيدة إلى حمص ، فسلك طريق بعلبك وحاصرها ، فطلب أهلها الأمان ، فأمّنهم وصالحهم وسار عنهم .

ثم نزل حمص ومعه خالد بن الوليد فقاتل أهلها ، وحاصر الروم حصاراً طويلاً .

١- أي جعل فيها الكفاية من الجند لضبطها .

وكان هرقل قد أرسل إلى أهل حمص يعدهم المدد ، وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهيز إلى حمص ، ولكنّ الله خيّب مقصده وأمره .

وقد لقي المسلمون برداً شديداً ، وكان أهل حمص يقولون : تمسّكوا بالمدينة فإن المسلمين حفاة ، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم . ولكنّ الله ﷻ قلب الأمور ، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبع .

فلما خرج الشتاء ، قام شيخ من الروم في حمص ودعا أهلها إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه ، وقام آخر فلم يجيبوه . فكبّر المسلمون تكبيرة ، فانهدم كثير من دور حمص وتزلزلت حيطانهم . وكبّروا الثانية والثالثة فأصابهم أعظم من ذلك ، وخرج أهلها يطلبون الصلح ولم يعلم المسلمون بما حدث فيهم ، فصالحوهم على صلح دمشق .

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت .

ثم سار إلى حماة فتلقاه أهلها مذعنين ، فصالحهم على الجزية عن رؤوسهم ، والخراج عن أرضهم .

ثم مضى نحو شيزر ، فخرجوا إليه فصالحهم على مثل صلح أهل حماة .

فتح معرة النعمان واللاذقية :

ثم سار أبو عبيدة إلى معرة النعمان[1] ، فصالحوه على مثل صلح أهل حمص .

ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها ، وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس . فعسكر المسلمون على بُعدٍ منها ، ثم أمر أبو عبيدة فحُفر حفائر عظيمة تستر

١- كانت تعرف بمعرة حمص ، ونسبت بعد ذلك إلى النعمان بن بشير الأنصاري .

الحفرة منها الفارسين ، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا . فلما أجنّهم الليل ، عادوا واستتروا في تلك الحفائر .

وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا ، فأخرجوا سَرْحَهم وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ، ودخلوا المدينة معهم ، ومُلكت اللاذقية عنوة .

وهرب قوم من النصارى ، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم على خراج يؤدونه .

وبنى عبادة بن الصامت بها مسجداً جامعاً .

ولما فتح المسلمون اللاذقية ، جلا أهل جبلة من الروم عنها .

وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت طرطوس وكان حصناً ، وجلا عنه أهله من الروم .

ثم بنى معاوية طرطوس ومصّرها ، وأقطع بها القطائع للمقاتلة . وكذلك فعل بانياس .

كما فُتحت سلمية[1] والقرى المجاورة بأكملها ، ثم حصرها بعد ذلك صالح ابن علي بن عبدالله بن عباس .

فتح قِنَّسْرين ودخول هرقل القسطنطينية وما تكلم :

ثم أرسل أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد إلى قِنسْرين ، فتحصّن أهلها منه ثم صالحوه على صلح أهل حمص ، فأبى خالد إلا إخراب المدينة فأخربها .

---

١ - سميت بذلك لأنه كان بقربها مدينة تدعى المؤتفكة ، انقلبت بأهلها ولم يسلم منها غير مائة نفس ، فبنوا لأنفسهم مائة منزل وسُميت سلمائة ، ثم حرّفها الناس فقالوا : سلمية .

وفرّ يومها هرقل بعد أن عَلِمَ بذلك إلى القسطنطينية . ويومها لَمّا تقهقر جيشه وترك الشام ، التفت إليها هرقل قائلاً : سلام عليك يا سوريا سلام لا رجوع بعده ، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد الولد المشؤوم وليته لا يولد ، فما أحلى فعله وأمرّ فتنته على الروم !

ذكر فتح حلب وأنطاكيا وغيرهما من العواصم :

قال ابن الأثير في الكامل : ولما فرغ أبو عبيدة من قِنسْرين ، سار إلى حلب فبلغه أن أهل قِنسْرين مضوا وغدروا ، فوجّه إليهم السِّمْط الكندي ، فحاصرهم وفتحها .

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو قريب منها يجمع أصنافاً من العرب ، فصالحهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك .

وأتى حلب وعلى مقدمة جيشه عياض بن غنم الفهري ، فتحصّن أهلها وحاصرهم المسلمون ، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم ، وأولادهم ، ومدينتهم ، وحصنهم ، وكنائسهم . فأُعطوا ذلك واستثني عليهم موضع المسجد . وقيل : صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم . وكان عياض بن غنم هو الذي صالحهم ، فأجاز أبو عبيدة ذلك .

وقد قيل : إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً ؛ لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكيا . فتراسلوا في الصلح ، فلما تمّ رجعوا .

وسار بعد ذلك أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكيا وقد تحصّن بها خلق كثير من قِنسْرين وغيرها ، ولقي على طريقها أعداداً كبيرة من الروم ، فهزمهم وألجأهم

إلى المدينة وحصرها من نواحيها ، فصالحوه على الجزية أو الجلاء ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم .

ثم نقضوا الصلح ، فوجّه أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ، ففتحاها على الصلح الأول .

وكانت أنطاكيا عظيمة الذكر عند المسلمين ، فلما فُتحت كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة أن يرتب جماعة من المسلمين بها مرابطة ، ولا يحبس عنهم العطاء .

ثم بلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين معرة قصرين وحلب ، فسار إليهم فهزمهم وقتل عدة من البطارقة ، وسبى وغنم ، وفتح معرة قصرين على مثل صلح حلب .

ثم جالت خيوله فبلغت بوقة ، وفتحت قرى الجومة ، وسرمين ، وتبرين ، وغلبوا على جميع أرض قِنسْرين وأنطاكيا .

ثم أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلها ، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة .

ثم سار أبو عبيدة يريد قُورس وعلى مقدمته عياض بن غنم ، فلقيه راهب من أهلها فسأله الصلح ، فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكيا ، وبث خيله فغلبوا على جميع أرض قُورس ، وفتح كذلك تل عزاز .

وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة ، فنزل في حصن بقُورس يعرف الآن بحصن سلمان .

ثم سار أبو عبيدة إلى مَمْبج وعياض بن غنم على مقدمته ، فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكيا .

ثم سيّر عياض بن غنم إلى ناحية دلوك ورعبان ، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل مَمْبج ، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم .

وقد ولّى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملاً ، وضمّ إليه جماعة ، وشحن النواحي المخوفة .

ثم سار إلى بالس ، وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين ، وصالحه أهلها على الجزية والجلاء ، فجلى أكثرهم إلى بلاد الروم من حيث ألقت وأرضِ الجزيرة .

واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات ، وعاد أبو عبيدة إلى جهة فلسطين .

وكان بجبل اللّطام مدينة يقال لها : جرجومة ، ففتحها حبيب صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين .

وسيّر أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي ، فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكيا إلى بلاد الروم ، وهو أول من سلكه . فلقي جمعاً من الروم ومعهم عرب من غسان ، وتنوخ ، وإياد يريدون اللحاق بهرقل ، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وسيّر جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ، وفتحها بالأمان مع إجلاء أهلها ، فجلاهم وأخربها .

كما سيّر جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحدث[1] ففتحه .

١- سُمي هذا الحصن بالحدث ؛ لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً ، فقاتلهم في أصحابه ، فقيل : درب الحدث .

فتح قيسارية وحصن غزة :

ذكر الطبري أنه في سنة خمس عشرة فُتحت قيسارية ، وقيل : في سنة تسع عشرة ، وقيل : سنة عشرين .

وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرسل أخاه معاوية إلى قيسارية ، وكتب عمر إلى معاوية يأمره بذلك .

فسار معاوية إليها وحصر أهلها ، فرجعوا إليه وقاتلوه ، فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفا ، ثم كملت في الهزيمة مائة ألف وفتحها .

وكان علقمة بن مُجَزِّر قد حصر القَيْقار بغزة وجعل يراسله ، فلم يشقه أحد مما يريد . فأتاه كأنه رَسول علقمة وكلّمه ، فأمر القيقار رجلاً أن يقعد له في الطريق ، فإذا مرّ به قتله . ففطن له علقمة فقال : إن معي نفراً يشاركونني في الرأي ، فلو شئتَ أتيتك بهم . فبعث القيقار إلى ذلك الرجل ألا يتعرض له ، وخرج علقمة من عنده ولم يعد إليه .

وهذا الفعل الذي فعله علقمة كان كفعل عمرو بن العاص مع الأرطبون الرومي كما سيرد ذكره .

ذكر وقعة أجنادين وفتح بلاد فلسطين :

قال ابن الأثير : لما انصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فِحْل إلى حمص كما قدّمنا ، نزل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على بيسان ، ففتحاها وصالحهما أهل الأردن .

واجتمع عسكر الروم بغزة ، وأجنادين ، وبيسان إلى الأرطبون بأجنادين ، وكان هذا أكبر دهاة الروم وأبعدهم غوراً . وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً ، وبإيلياء كذلك .

فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إليهم بها ، واستخلف عمرو على الأردن أبا الأعور . فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال : رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج .

والتقى العسكران بأجنادين ، وأقام عمرو بن العاص لا يقدر مِن الأرطبون على شيء ، ولا تشفيه الرسل . فسار إليه بنفسه ودخل كأنه رسول . ففطن به الأرطبون وقال : لا شك أنَّ هذا الأمير أو مَن يأخذ الأمير برأيه . فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ، فإذا مرّ به قتله . فأدرك عمرو بن العاص ذلك من نظرات أرطبون الروم ، فقال له : يا هذا ، قد سمعتَ مني وسمعتُ منك ، وقد وقع قولك مني بموقع ، وأنا واحد مِن عشرة بعثنا عمر إلى أبي عبيدة لنكاتفه ، فأرجع وآتيك بهم . فإن رأوا ما رأيت فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم . فقال أرطبون الروم : نعم ، ورَدَّ الرجل الذي أمره بقتل عمرو .

فخرج عمرو من عنده ، وعلم أرطبون الروم بعد مفارقته أنه خدعه ، فقال : هذا أدهى الخلق . وبلغت هذه الوقعة عمر بن الخطاب ، فقال : لله در عمرو .

ثم التقوا بأجنادين واقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك ، فانهزم الأرطبون إلى إيلياء .

ففتح عمرو بن العاص غزة[1] ، ثم سبسطية ونابلس بأمان على الجزية .

وفتح كذلك مدينة اللد ، وتبنة ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ورفح ، ويافا .

وقيل : إن يافا فتحها معاوية بن أبي سفيان ، والله تعالى أعلم .

١- وقيل : كان فتح غزة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فتح بيت المقدس وقصة إسلام كعب الأحبار :

فُتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب ﷺ ، وقد كان غالب نقلنا في فتحه من كتاب فتوح الشام للواقدي رحمه الله تعالى .

وقد ذكر الواقدي أن أبا عبيدة ومعه أمراء وجيوش المسلمين ، حاصروا القدس فترة طويلة في أيام باردة وفي شتاء شديد البرودة ، ولكن سكان القدس لم يكترثوا بحصار المسلمين لهم .

وبعد حصار طويل ومبارزات ، طلب بترك بيت المقدس وهو على أعلى سوره من أبي عبيدة ألا يُتعب نفسه وجيشه ، حيث يجدون في كتبهم القديمة أنّ المدينة لا تسلم إلا لرجل اسمه عمر ، وذكر له غالب صفاته في كتبهم .

وكان خالد بن الوليد أشبه الناس بعمر ، فتقدم مدّعياً بأنه عمر . وبعد إحداق ساعة من البترك إلى خالد يقول : كأنه هو ، غير أنه لم تكتمل صفاته التي في كتبنا . ثم أقسم على خالد أن يقول الحق ، فذكر خالد بأنه جندي من جنود عمر . وقال البترك : لا تتعبوا نفوسكم يا عرب ، فلن تسلم المدينة لغير عمر .

عندها كتب أبو عبيدة بن الجراح كتاباً إلى عمر يقول فيه : لن تفتح القدس إلا بحضورك يا أمير المؤمنين ، ثم طوى الكتاب وختمه ، وقال : يا معشر المسلمين ، مَن ينطلق بكتابي هذا وأجره على الله ؟ فأسرع بالإجابة ميسرة بن مسروق العبسي وقال : أنا أكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب ﷺ إن شاء الله تعالى .

فلما وصل الكتاب إلى عمر استشار أصحاب رسول الله ﷺ ، فأشار عليه عثمان بن عفان بعدم الذهاب احتقاراً لأمرهم ؛ لأن الله سيفتحها رغماً عنهم .

وأشار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالذهاب لبيت المقدس ، ويشير بأنه سمع من رسول اللهﷺ بأن بيت المقدس لا يُفتح إلا بعمر .

فأثنى عمر عليهما ، وجزاهما عن الإسلام وعن المسلمين خيراً ، وبيّن أنه اختار رأي علي بن أبي طالب بالذهاب إلى الشام ، كما أنه عيّنه أميراً على المدينة الشريفة طيلة غيبته في بلاد الشام .

وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له أحمر ، وعليه غرارتان في إحداهما سَوِيق وفي الأخرى تمر ، وبين يديه قربة مملوءة ماء ، وخلفه جفنة للزاد . وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا إلى المدينة ، منهم : الزبير ، وعبادة بن الصامت .

وسار عمر نحو بيت المقدس ، فكان إذا نزل منزلاً لا يبرح منه حتى يصلي الصبح ، فإذا انفلت من الصلاة أقبل على المسلمين وقال : الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، وخصّنا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وهدانا من الضلالة ، وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكّن لنا في بلاده ، وجعلنا إخواناً متحابين . فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة ، والمِنن الظاهرة ، فإن الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ، ويتم نعمته على الشاكرين . ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سَوِيقاً ويصف التمر حولها ، ويقرب للمسلمين ويقول : كلوا هنيئاً مريئاً ، فيأكل ويأكل المسلمون معه ثم يرحل ، فلم يزل كذلك في مسيره .

قال عمرو بن مالك العبسي : كنت مع عمر بن الخطاب حين سار إلى الشام ، فمرّ على ماء لجذام يدعى ذات المنار وعليه طائفة منهم نزول ، فنزل المسلمون

عليه . فبينما هو كذلك وأصحاب رسول اللهﷺ حوله ، إذ أقبل إليه قوم من جذام فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن عندنا رجلاً له امرأتان ، وهما أختان لأب وأم . فغضب عمر وقال : عليَّ به .

فأُتي بالرجل إليه ، فقال له عمر : ما هاتان المرأتان ؟ قال الرجل : زوجتاي ، قال : فهل بينهما قرابة ؟ قال : نعم ، هما أختان . قال عمر : فما دينك ، ألستَ مسلماً ؟ قال : بلى ، قال عمر : أوَمَا علمتَ أن هذا حرام عليك ، والله يقول في كتابه : ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[1] ؟ فقال الرجل : ما علمتُ ، وما هما عليّ حرام . فغضب عمر وقال : كذبتَ والله ، إنه لحرام عليك ، ولتخلينّ سبيل إحداهما وإلا ضربت عنقك . قال الرجل : أفتحكم عليّ ؟ قال : إي والله الذي لا إله إلا هو ، فقال الرجل : إنَّ هذا الدين ما أصبنا فيه خيراً ، ولقد كنت غنياً عن أن أدخل فيه . قال عمر : ادن مني ، فدنا منه فخفق رأسه بالدرة خفقتين وقال له : أتتشاءم بالإسلام يا عدو الله وعدو نفسه ، وهو الدين الذي ارتضاه الله لملائكته ، ورسله ، وخيرته مِن خلقه ؟ خلِّ يا ويلك سبيل إحداهما وإلا جلدتك جلد المفتري . فقال الرجل : كيف أصنع بهما وإني أحبهما ، ولكن أقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي ، وإن كنت لهما جميعاً محباً .

فأمر عمر فاقترع ، فوقعت القرعة على إحداهما ، فأمسكها وأطلق سبيل الثانية . ثم أقبل عليه عمر وقال له : اسمع يا ذا الرجل وعِ ما أقول لك ، إنه

١- الآية (٢٣) من سورة النساء .

مَن دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه ، فإياك أن تفارق الإسلام ، وإياك أن يبلغني أنك قد أصبت أخت امرأتك التي فارقتها ، فإنك إن فعلتَ ذلك رجمتك .

قال الواقدي : وسار عمر حتى مرّ على حي من بني مرة ، فإذا بقوم منهم قد أقاموا في الشمس يُعَذبون ، فقال لهم عمر : ما بال هؤلاء يعذبون ؟ فقيل : عليهم خراج فهم يعذبون ، قال : فما يقولون ؟ قال : يقولون : ما نجد ما نؤدي . فقال عمر : دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول : (لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة) . فخلّيَ سبيلهم .

ثم سار حتى إذا كان بوادي القرى أخبروه أن شيخا على الماء وله صديق يوده ، فقال له صديقه : هل لك أن تجعل لي في زوجتك نصيباً وأكفيك رعي إبلك والقيام عليها ، ولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة ؟ قال له الشيخ : قد فعلتُ ذلك ، ورضي .

فلما أخبر عمر بذلك أمر بهما فأُحضرا ، فقال : ويلكما ما دينكما ؟ قالا : الإسلام ، قال عمر : فما الذي بلغني عنكما ؟ قالا : وما هو ؟ فأخبرهما عمر بما سمعه من العرب ، فقال الشيخ : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : أما علمتما أن ذلك حرام في دين الإسلام ؟ قالا : لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشيخ : وما دعاك أنْ صنعت هذا القبيح ؟ قال : أنا شيخ كبير ولم يكن لي أحد أثق به ولا أتكل عليه ، فقلت : يا هذا ، أتكفيني الرعي والسقي وتعينني على دوابي وأنا أجعل لك نصيباً في امرأتي ؟ والآن علمتُ أنه حرام فلا أفعله . فقال له عمر : خذ بيد امرأتك فلا سبيل لي عليها ، ثم قال للشاب : إياك أن تقرب منها ، فإنه إن بلغني ذلك ضربت عنقك . ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس .

قال أسلم بن برقان مولى عمر : فلما أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون ، نظرنا إلى طائفة من خيل المسلمين ، فقال عمر للزبير : أسرع وانظر ما هذه الخيل . فأسرع الزبير إليها ، فلما قرب منها وإذا هي خيل من اليمن قد بعث بها أبو عبيدة يأخذون له خبر عمر رضي الله عنه .

قال الزبير : فسلموا عليّ وقالوا : يا فتى ، مِن أين أقبلتَ ؟ فقلت : مِن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : كيف خلفت أهلها ؟ قلت : بخير ، قالوا : فما فعل عمر ، هل قَدِمَ علينا أم لا ؟ قال الزبير : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن من عرب اليمن قد وجّهنا أبو عبيدة لنأخذ له خبر عمر .

قال : فرجع الزبير إلى عمر وحدّثه ، فقال : أصبتَ يا أبا عبدالله . فأقبل علينا جمع آخر ، فسلّموا علينا وسألونا عن عمر ، فقال لهم : ها أنا عمر ، فما تريدون ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد ذرفت العيون ، وطالت الأعناق بطول قدومك ، فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك .

قال الواقدي : ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبي عبيدة ، ونادوا بأصواتهم : أبشروا يا مسلمون بقدوم عمر . فارتج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم ، فقال لهم أبو عبيدة : عزيمة على كل رجل أن لا يخرج من مركزه .

ثم سار أبو عبيدة في أناس من المهاجرين والأنصار حتى أشرف بمن معه على عمر ، ونظر عمر إلى أبي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه ، وهو راكب على قَلُوصِه مغطى بعباءة قطوانية ، وخطام قلوصه مِن شعر . فلما نظر أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما أناخ قلوصه ، وأناخ عمر بعيره وترجّل

كلاهما ، ومدّ أبو عبيدة يده فصافح عمر ، وتعانقا جميعاً وسلم بعضهما على بعض . وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ، ثم ركبا في جمع وجعلا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ، ولم يزالا كذلك حتى نزلا بيت المقدس .

فلما نزل عمر رضي الله عنه صلى بالمسلمين صلاة الفجر، ثم خطبهم خطبة حسنة فقال فيها : الحمد لله الحميد المجيد ، القوي الشديد ، الفعال لما يريد . ثم قال : إن الله تعالى قد أكرمنا بالإسلام ، وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأزاح عنا الضلالة ، وجمعنا بعد الفرقة ، وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء ، فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد ، فقد قال الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1] ، ثم قرأ : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[2] .

قال : فلما تلا عمر ذلك ، قام قِس من النصارى كان حاضراً بين يديه فقال : إن الله لا يضل أحداً . فلما كرّرها قال عمر : انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه ، فعرف القِس ما قال عمر فأمسك .

ومضى عمر في خطبته وقال : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله عز وجل الذي يبقى ويفنى كل شيء سواه ، الذي بطاعته ينفع أولياءه ، وبمعصيته يفني أعداءه .

أيها الناس ، أدوا زكاة أموالكم طيبة في قلوبكم وأنفسكم ، لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكوراً . افهموا ما توعظون به ، فإن الكَيّسَ مَن أحرز

١- الآية (٧) من سورة إبراهيم .
٢- الآية (١٧) من سورة الكهف .

دينه ، وإن السعيد مَن اتعظ بغيره ، إلا أنَّ شر الأمور مبتدعاتها . وعليكم بالسنة سنة نبيكمﷺ فالزموها ، فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة . والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب .

أيها الناس ، إنه قام فينا رسول اللهﷺ كقيامي فيكم وقال : (احفظوني في أصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يَشهد الرجل وما يُستشهد ، ويَحلف وما يُستحلف)[1] ، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة . وتعوّذوا من الشيطان . ولا يخلون أحد منكم بامرأة ، فإنهن من حبائل الشيطان . ومَن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، والصلاة الصلاة .

فلما فرغ من خطبته جلس ، فجعل أبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم وعمر باهت ، فتارة يبكي وتارة يهدأ .

فلم يزل كذلك إلى أن حضرت صلاة الظهر ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، اطلب من بلال أن يؤذن لنا . فقال له : يا بلال ، إن أصحاب رسول اللهﷺ يسألون أن توذن لهم وتذكّرهم أوقات نبيهمﷺ . فقال بلال : نعم ، فلما قال : الله أكبر ، خشعت جلودهم واقشعرّت أبدانهم . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله ، بكى الناس بكاء شديداً حتى كادت قلوبهم أن تتصدّع عند ذكر الله ورسوله .

فلما فرغ بلال من أذانه وجلس قال : يا أمير المؤمنين ، إن أمراء المسلمين وأجناد الشام يأكلون لحوم الطيور ، والخبز النقي ، وما لا يلحق ضعفاء الناس ، وما لا تناله أيديهم ، وإن الكل يفنى وما له إلا التراب ومصيرنا إليه . فقال له يزيد

١- رواه ابن ماجة .

ابن أبي سفيان : إن أسعار بلادنا هذه رخيصة ، وإنا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به أنفسنا مدة من الزمان في الحجاز . فقال عمر : إن الأمر كما ذكرتَ ، فكلوا هنيئاً مريئاً ، ولست أبرح من مكاني حتى تجمعوا إليّ مَن في المنازل ، وأن تكتبوا إليّ فقراء المسلمين ممن في المدن والقرى ، فأفرض لكل أهل بيت ما يجزيهم من البُرّ ، والشعير ، والعسل ، والزيت ، وما يحتاجون إليه ولا بد لهم منه . ثم قال عمر : هذا لكم من أمرائكم غير ما يأتيكم مني من بيت مال المسلمين ، فإن قطع عنكم أمراؤكم فأعلموني حتى أعزلهم عنكم . ثم أمرهم بالرحيل .

فلما همّ عمر بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم ، قال له المسلمون : يا أمير المؤمنين ، لو ركبتَ بدل بعيرك جواداً ولبستَ ثياباً بيضاً ، ففعل .

قال الزبير : أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهماً ، وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخَلِق دفعه إليه أبو عبيدة ، وقدّم إليه برذوناً أشهب من براذين الروم . فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به ، فلما نظر عمر إلى البرذون وفعاله ، نزل عنه مسرعاً وقال : أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل عليه من العُجب والكِبْر ، وإني سمعت رسول اللهﷺ يقول : (لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرة من كِبر)[1] ، ولقد كاد يهلكني ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج . ثم نزع عمرﷺ ما كان عليه ، وعاد إلى لبس مرقعته .

١- رواه مسلم في صحيحه ، والحاكم ، والترمذي من حديث ابن مسعود .

قال الواقدي : وإنَّ عمر سار يريد العقبة ليصعد منها إلى بيت المقدس ، فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك ، فأمر عمر أن يحثوا التراب في وجوهم ، وأن تمزق عليهم .

ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس ، فلما نظر إليها قال : الله أكبر ، اللهم افتح لنا فتحاً يسيراً ، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً . ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود حتى نزل بالموضع الذي كان فيه أبو عبيدة ، وضُربت له خيمة من شعر ، وجلس فيها هناك على التراب ثم قام يصلي أربع ركعات .

وعلت للمسلمين ضجة عظيمة ، وصياح مزعج بالتهليل والتكبير . فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة ، فقال لهم بتركهم الكبير : يا ويلكم ، ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء ؟ فأَشْرِفوا عليهم وانظروا ما شأنهم .

فأشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية ، فقال : يا معشر العرب ، أخبرونا ما قصتكم ؟ قالوا : إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا ، وهذه الضجة من فرح المسلمين به . فرجع وأعلم البترك ، فأطرق إلى الأرض ولم يتكلم .

فلما كان من الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر ، قال لأبي عبيدة : يا عامر ، تقدّم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت . فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال : يا أهل هذه البلدة ، إن صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد ، فما تصنعون فيما قلتم ؟

فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح ، وترجّل الرهبان والقسوس والأساقفة معه ، وقد حمل بين يديه صليباً لا يُخرجونه إلا في عيدهم . ثم صعد على السور والصليب أمامه ، وأشرف على أبي عبيدة وقال : ما تشاء أيها الشيخ

الباهي ؟ قال أبو عبيدة : هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فاخرجوا إليه ، واعقدوا معه الأمان والذمة ، وأداء الجزية . فقال البترك : يا ذا الرجل ، إن كان صاحبك الذي ليس عليه أمير قد أتى فدعه يَدْنُ منا ، فإنا نعرفه بنعته وصفته ، وأفردوه من بينكم وليقف بإزائنا حتى نراه . فإن كان صاحبنا الذي نعته في الإنجيل نزلنا إليه وعقدنا معه الأمان وأقررنا له بالجزية ، وإن كان غير الذي نجد نعته في الإنجيل وصفته فما لكم عندنا غير القتال .

فرجع أبو عبيدة إلى عمر وأخبره بما قاله البترك . فهمّ عمر بالقيام فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ، تخرج إليهم منفرداً وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة ؟ وإنا نخشى عليك منهم غدراً أو مكراً فينالون منك . فقال عمر : ﴿ قل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ثم أمر عمر ببعيره فقُدم إليه ، فاستوى في ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها ، وقد عصب رأسه بقطعة عباءة قطوانية ، وليس معه غير أبي عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزائه والبتارك عليه . فتكلم أبو عبيدة وقال : يا هؤلاء ، هذا أمير المؤمنين قد أتى . فمسح البترك الكبير عينه ونظر إليه ، وزعق بأعلى صوته : هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ، ومَن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة . ثم إنه قال لأهل بيت المقدس : يا ويحكم ، انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبدالله .

فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ، ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق

١- الآية (٥١) من سورة التوبة .

والذمة ، ويُقرّون له بالجزية . فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة ، تواضع لله وخرّ ساجداً على قتب بعيره ، ثم نزل إليهم وقال : ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتم بالجزية .

فرجع القوم إلى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب ، ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة . فلما كان الغد قام فدخل إليها ، وكان دخوله يوم الإثنين . ولقد طلب منه البترك أن يصلي في كنيسة القيامة ، فيقول : لا ، أخشى أن يتخذها المسلمون مسجداً بعدي ، ونحن دخلنا صلحاً ، لا نغدر ، ولا نخون ، ولا نخدع . وخرج عمر وصلى مقابل باب الكنيسة ، ومكان صلاته مسجد الآن .

قال الواقدي : وأقام بها إلى يوم الجمعة ، وخطّ بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده . فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة ، فهمّت الروم بغدرهم . وكان أبو الجعيد – الذي احتال على الروم باليرموك – ببيت المقدس هو وأهله وماله ، فقالوا له : ما ترى في غدر هؤلاء العرب إذا هم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ، ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل ؟ فقال لهم : يا قوم ، لا تفعلوا ولا تغدروا بهم ، فإن فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون أن تفعلوا بهم . فقالوا : وما الذي نصنع ؟ فقال : أظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا ، فإن متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبهما عنهما ، فإن طلبوهما بغدر فشأنكم وما تريدون .

قال : فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن ، فأظهروه وصفوه في طريق المسلمين وشوارعهم . فجعل المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ، ولم يَمِلْ أحد منهم إليه ولم يلمسه

وهم يقولون : الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا ، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء .

قال عوف بن سالم : فوالله ما مِن المسلمين مَن جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه . فقال لهم أبو جعيد : هؤلاء القوم الذين وصفهم الله في التوراة والإنجيل ، وأنهم لا يزالون على الحق ، ولا يقربهم أحد ما داموا على ما هم عليه .

قال شهر بن حوشب : سمعت كعب الأحبار يقول : إن عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها أقام فيها عشرة أيام ، فأقبلتُ إليه وكنت في قرية من فلسطين ، وتقدمت إليه لأسَلّمَ عليه وأسْلمَ على يديه . وذلك أن أبي كان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران ، وأنه كان لي محباً وعليّ مشفقاً ، ولم يكتم عليّ شيئاً إلا أعلمني إياه مما كان يُعلّم الناس . فلما حضرته الوفاة ، دعاني إليه وقال لي : يا بني ، إنك تعلم أني ما ادخرت عنك شيئاً مما كنتُ أعلمه ؛ لأني خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم ، وقد جعلت هاتين الورقتين في هذه الكرة التي ترى ، فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما إلى أن تسمع بخبر نبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد ، فإن يُرِدِ الله بك خيراً فأنت تتبعه . ثم مات بعد وصيته إياي .

قال كعب : فدفنته ، فما كان شيء أحب إلي بعد انقضاء العزاء مِن النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما . ففتحتهما فإذا فيهما : (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خاتم النبيين لا نبي بعده ، مولده بمكة ، ودار هجرته طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال ، ألسنتهم رطبة بالتهليل والتكبير ، وهم منصورون على كل مَن عاداهم مِن أعدائهم أجمعين ، يغسلون وجوههم ، ويسترون أوساطهم ، أناجيلهم في صدورهم ، تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم ، وهم أول مَن يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم) .

قال كعب : فلما قرأت ذلك قلت في نفسي : وهل علّمني أبي شيئاً أعظم من هذا ؟ ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله ، إلى أن بلغني أن النبيﷺ الموصوف قد ظهر بمكة ، وهو يظهر مرة بعد أخرى ، فقلت : هو والله لا محالة . ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل : إنه خرج ونزل بيثرب ، فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ، ونصر على أعدائه . فتجهّزت أريد المسير إليه ، فبلغني أنه قد قُبضﷺ وانقطع الوحي ، فقلت في نفسي : لعله ليس الذي كنت أنتظره . حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة ، وقائل يقول : قد قُبض رسول اللهﷺ وانقطع الوحي عن أهل الأرض .

فرجعت إلى دار قومي ، وجاءنا الخبر أنه تقدم أمته خليفة اسمه أبو بكر ، فقلت : أقدم عليه . فلم ألبث حتى جاءتنا جنوده إلى الشام ، ثم جاءتنا وفاته ، ثم قيل : إنه استخلف عليهم رجلاً اسمه عمر ، فقلت : لا أدخل هذا الدين حتى أحققه .

ولم أزل متوقفاً حتى قدم عمر بن الخطابرضي الله عنه ببيت المقدس وصالح أهلها ، ونظرت إلى وفائهم بعهدهم ، وما صنع الله بأعدائهم ، وقلت : إنهم أمة النبي الأمي . فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين ، فوالله إني كنت ذات ليلة على سطحي ، وإذا أنا برجل من المسلمين يقول : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[1] .

١- الآية (٤٧) من سورة النساء .

قال كعب : فلما سمعت هذه الآية ، خفت والله أن لا أصبح حتى يحوّل وجهي ، فما كان شيء أحب إلي من الصباح أن يرد . فلما أصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر ، فقيل لي : إنه ببيت المقدس . فقصدت إليه وإذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة ، فأقبلت إليه وسلّمت عليه ، فرد عليّ السلام وقال لي : مَن أنت ؟ فقلت له : أنا كعب الأحبار ، وإنني جئت أريد الإسلام والدخول فيه ، فإني وجدت صفة محمد ﷺ وأمته في الكتب المنزلة ، وإن الله ﷻ أوحى إلى موسى عليه السلام : (إني ما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ من أمة محمد ، ولولاه ما خلقت جنة ولا ناراً ، ولا سماء ولا أرضاً ، وأمته خير الأمم ، ودينه خير الأديان ، بعثته آخر الزمان ، أمته مرحومة ، وهو نبي الرحمة ، وهو النبي الأمي التهامي القرشي ، الرحيم بالمؤمنين ، الشديد على الكافرين ، سريرته مثل علانيته ، وقوله لا يخالف فعله ، القريب والبعيد عنده سواء ، أصحابه متراحمون متواصلون) . فقال عمر : أحقاً ما تقول يا كعب ؟ قال : إي والله ، والله يسمع ما أقول ، ويعلم ما تخفي الصدور . فقال عمر : الحمد لله الذي أعزنا ، وأكرمنا ، وشرّفنا ، ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، وهدانا بمحمد ﷺ ، فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا ؟ فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، في كتابكم الذي أنزل إليكم في أمر دينكم ذكر إبراهيم ؟ فقال عمر : نعم ، وقرأ : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۖ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

١- الآيتان (١٣٢ ـ ١٣٣) من سورة البقرة .

ثم قرأ : ﴿ مَا كَانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾[1] . ثم قرأ : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾[2] . ثم قرأ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[3] . ثم قرأ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾[4] . ثم قرأ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[5] .

قال كعب : فلما سمعتُ هذه الآيات قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . ففرح عمر بإسلام كعب الأحبار ، ثم قال : هل لك أن تسير معي إلى المدينة فتزور قبر النبيﷺ ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أفعل ذلك .

ولقد أراد عمر قبل مسيره أن يخطط المسجد العمري ، واستشار كعب الأحبار بذلك ، فأشار عليه أن يجعله خلف الصخرة ، غير أن عمر اختار أن يكون عند مصلى رسول اللهﷺ بالأنبياء حيث هو الآن .

ولقد وجد عمر بن الخطاب الصخرة المباركة مكان معراج النبيﷺ مليئة بالتراب والقاذورات ، حيث إن النصارى كانوا يُلقون بقاذوراتهم وأوساخهم فوق الصخرة ، حتى إن الحائض كانت ترسل بخلق حيضتها لتلقى هناك ؛ وذلك رداً

١- الآية (٦٧) من سورة آل عمران .
٢- الآية (٨٣) من سورة آل عمران .
٣- الآية (٨٥) من سورة آل عمران .
٤- الآية (١٦١) من سورة الأنعام .
٥- الآية (٧٨) من سورة الحج .

من النصارى على اليهود الذين كانوا يلقون أتربتهم وأوساخهم في المكان الذي صلبوا فيه شبيه المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، وهو مكان كنيسة القيامة في يومنا هذا . وعندما سيطر الرومان النصارى على بيت المقدس قبل دخول المسلمين إليه بثلاثمائة عام تقريبا ، أرادوا أن يعاملوا اليهود بالمثل ، فألقوا على الصخرة المباركة ما ذكرنا آنفاً من القاذورات ، علماً منهم أن اليهود يتخذون الصخرة قبلة لهم ويعظمونها . ثم نظفوا المكان الذي كانت اليهود تلقي فيه فضلاتهم ، وعمّرت أم الملك قسطنطين تلك الكنيسة التي سموها بعد ذلك بكنيسة القيامة .

فلما رأى عمر ما فعل النصارى بالصخرة الشريفة وكانت لا ترى من كثرة ما ألقي عليها من الأتربة ، أخذ بنفسه ينقل التراب وبثوبه ، وقام المسلمون يساعدونه بهذه المهمة ، وبفترة ليست بقصيرة من الزمن استطاعوا تنظيفها وإعادتها إلى قداستها التي هي عليه الآن .

قال كعب الأحبار : وارتحل عمر بعد أن كتب لأهل بيت المقدس كتاباً – أي عهداً – ، وأقرّهم في بلدهم على الجزية . وسار بمن معه من العساكر إلى الجابية ، فأقام بها ودوّن الدواوين ، وأخذ الخمس الذي لله مما أفاء الله على المسلمين . ثم قسّم الشام قسمين ، فأعطى أبا عبيدة مِن حوران إلى حلب وما يليها ، وأمره بالمسير إلى حلب وأن يقاتل أهلها إلى أن يفتحها الله على يديه . وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن أبي سفيان ، وجعل أبا عبيدة واليا عليه ، وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية إلى أن يفتحها الله على يديه . وكان قد أعطى أكثر الأجناد لأبي عبيدة مع خالد ، وسيّر عمرو بن العاص إلى مصر ، واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الأنصاري .

ثم سار عمر رضي الله عنه يريد مدينة رسول الله ﷺ ، وأخذ كعب الأحبار معه . وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لِما يرون من كثرة خيرها ، وطيب فواكهها ، ورخص أسعارها . ولما يخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء ، وهي الأرض المقدسة ، وفيها المحشر . فبقي الناس يتطاولون نحوه ، ويخرجون في كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر رضي الله عنه . فارتجت المدينة يوم قدومه ، واستبشر أصحاب رسول الله ﷺ برؤيته ، وسلّموا ورحّبوا به ، وهنؤوه بما فتح الله على يديه .

فأول ما بدأ بالمسجد ، فسلّم على قبر رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم صلى ركعتين . وعاد بكعب الأحبار وقال له : حَدِّث المسلمين بما رأيتَ في الورقتين ، فازداد الناس إيمانا .

خروج الروم لمقاتلة المسلمين ومسير أبي عبيدة إليهم :

لقد حصلت معارك كثيرة بين الروم والمسلمين في تلك الأثناء ، ونصر الله بها المسلمين أهلَ الحق على الروم أهلِ الباطل ، والله يتولى الصالحين .

ففي سنة سبع عشرة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومَن معه مِن المسلمين بحمص ، وكان المهيِّج للروم على ذلك أن أهل الجزيرة أرسلوا إلى ملكهم وبعثوه على إرسال الجنود إلى الشام ، ووعدوه بالمعونة بأنفسهم ، ففعل ذلك .

فلما سمع المسلمون باجتماعهم ، ضمّ أبو عبيدة إليه مسالحه ، وعسكر بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد بن الوليد من قِنسْرين إليهم . فاستشاره أبو عبيدة في المناجزة أو التحصّن ، فأشار ابن الوليد بالمناجزة ، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر . فأطاعهم أبو عبيدة وكتب إلى عمر بذلك .

وكان عمر قد اتخذ لكل مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين

عُدّة لكون إن كان ، فكان بالكوفة أربعة آلاف فرس والقيّم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ، وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدره ، فإن كانت ثابتة فقد ركبها المسلمون وساروا إلى أن يتجهّز الناس .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص : أن اندب الناس مع القعقاع ابن عمرو وسرّحهم من يومهم ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وكتب كذلك إليه أيضاً : سرّح سهيل بن عدي إلى الرَّقّة ، فإن أهل الجزيرة هم الذين أثاروا الروم على أهل حمص . وأمره أن يُسَرِّح عبدالله بن عقبان إلى نصِيبين ، ثم ليقصدا حرّان والرُّهى . وأن يُسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ . وأن يُسرح عياض بن غنم ، فإن كانت حرب فأَمْرُهم إلى عياض .

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومه إلى حمص ، وخرج عياض بن غنم ومَن ندب إلى الجزيرة ، وتوجّه كل أمير منهم إلى الكورة التي أُمّر عليها ، وخرج عمر من الجزيرة وأتى الجابية عناية لأبي عبيدة .

فلما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص خبر الجنود الإسلامية ، تفرّقوا إلى بلادهم . فأشار خالد على أبي عبيدة بالخروج إلى الروم ، فخرج إليهم وقاتلهم ، وفتح الله عليه .

وقدم القعقاع بعد ثلاثة أيام ، فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بالفتح وبقدوم المدد عليهم ، والحكم في ذلك . فكتب إليهم عمر أن أشركوهم في المغنم ، فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوكم ، وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ويمدون الأمصار .

فلما فرغوا رجعوا ، وأكرم الله المسلمين بالثواب والغنائم .

ذكر فتح الجزيرة وما تبعها :

لقد اختلف أصحاب التواريخ في فتح الجزيرة ونواحيها ، فمنهم مَن يقول : إن ذلك مِن فتوح أهل العراق ، ومنهم مَن يقول : إنها مِن فتوح أهل الشام . والذي يميل إليه المطّلع على التاريخ أنها من فتوح أهل الشام .

قال ابن إسحاق : إن فتح الجزيرة كان في سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية الشريفة ، وقيل : في سنة سبع عشرة ، وقيل : في سنة ثماني عشرة للنصف من شعبان ، والأول أرجح .

حيث إن أبا عبيدة كان قد كتب إلى عمر بن الخطابﷺ بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم ، إذ أخذ عمر يومها خالد بن الوليد إلى المدينة ، فصرفه إليه .

فسيّر أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة ففتحها ، حيث سار عياض في خمسة آلاف ، وعلى ميمنته سعد بن عامر الجمحي ، وعلى ميسرته صفوان بن معطل ، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق .

فانتهت طليعة عياض إلى الرَّقَّة ، فأغاروا على الفلاحين وحصروا المدينة ، وبث عياض السرايا فأتوه بالأسرى والأطعمة . وحصرها ستة أيام فطلب أهلها الصلح ، وصالحهم على أنفسهم ، وذراريهم ، وأموالهم ، ومدينتهم . وقال عياض : الأرض لنا فقد وطئناها وملكناها . ثم استعملهم فيها على الخراج ، ووضع عنهم الجزية .

ثم سار إلى حرّان ، فجعل عليها عسكراً عليهم صفوان وحبيب بن مسلمة ، فحصراها .

ثم سار عياض إلى الرُّهى ، فقاتله أهلها ثم انهزموا . فحصرهم في مدينتهم ، فطلبوا الصلح فصالحهم .

ثم عاد إلى حرّان ، فوجد صفوان وحبيباً قد غلبا على حصونٍ وقرىً من أعمالها ، فصالحه أهل حرّان على مثل صلح الرُّهى .

وفتح بعد ذلك سُمَيْساط ، وأتى سَروج ، ورأس كَيفا ، والأرض البيضاء ، فصالحه أهلها على مثل صلح الرُّهى .

ثم غدر أهل سُمَيْساط ، فرجع إليهم عياض بن غنم وفتحها .

وأتى قُرّيات الفرات – وهي جسر مَنْبج وما يليها – ففتحها .

وبعث حبيب بن مسلمة إلى مَلاطية ففتحها عنوة ، ورتب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها .

ثم سار عياض إلى رأس عين الوردة فامتنعت عليه ، فتركها وسار إلى تل مَوْزن ، ففتحها على صلح الرُّهى سنة تسع عشرة من الهجرة .

ثم سار إلى آمد ، فصالحه أهلها بعد قتال .

ثم سار وفتح ميّافارقين على صلح الرُّهى .

ثم سار إلى نصِيبين ، فقاتله أهلها ثم صالحوه على مثل ذلك .

وفتح طور عبدين ، وحصن ماردين . وقصد الموصل ففتح أحد الحصنين ، وقيل : لم يصلها ، وأتاه بطريق الزوزان فصالحه .

ثم سار إلى أرذن ففتحها ، ودخل الدرب إلى بدليس ، وبلغ خلاط فصالحه بطريقها ، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية .

ثم عاد إلى الرَّقّة ومضى فيها إلى مدينة حمص ، ومات في سنة عشرين رضي الله عنه قرير العين .

وبعد موته استعمل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن حزيم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات .

فاستعمل بعد ذلك عمير بن سعد الأنصاري ، ففتح رأس عين بعد قتال شديد . وقيل : إن عياضاً أرسل عمير بن سعد إليها ففتحها . وقيل : إن عمر ابن الخطاب أرسل أبا موسى الأشعري إلى رأس عين بعد وفاة عياض ، والله أعلم بالحقيقة .

❊ ❊ فتوح العراقين وما والاهما من بلاد فارس ❊ ❊

قال ابن نويرة في تاريخه : كان ابتداء أمر العراق أن المثنى بن حارثة الشيباني كما أسلفنا قَدِم على أبي بكر الصديقﷺ في مرضه الذي مات فيه ، فأوصى أبو بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش مع المثنى بن حارثة إلى بلاد العراق .

فلما أصبح عمر بن الخطاب من الليلة التي مات فيها أبو بكر ، ندب الناس إلى الخروج مع المثنى بن حارثة . ثم بايع الناس ، وندبهم وهو يبايع ثلاثاً ، فلم ينتدب أحد إلى فارس ، وكانوا أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها عليهم ؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم .

فلما كان اليوم الرابع ندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد ابن مسعود الثقفي – وهو والد المختار – ، وسعد بن عبيدة الأنصاري ، وسليط ابن قيس وهو بدري ، وتتابع الناس . وتكلّم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقيّ السواد ، ونلنا منهم واجترأنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

فاجتمع الناس ، وقيل لعمر : أمّر عليهم رجلاً من التابعين من المهاجرين والأنصار ، فقال : والله لا أفعل ، إنما رفعهم الله تعالى بسبقهم ومسارعتهم إلى العدو ، فإذا فعل فعلهم قوم وتثاقلوهم كانوا الذين ينفرون خفافاً وثقالاً ويسبقون أوْلى بالرياسة ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً .

ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً ، وقال لسعد وسليط : لو سبقتماه لوّليتكما . وأمّر أبا عبيد فقال له : اسمع مِن أصحاب رسول اللهﷺ وأشركهم في الأمر ، ولم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع . ثم أوصى أبا عبيد بجنده .

وأمر عمر بن الخطاب المثنى بن حارثة بالتقدم حتى يقدم عليه أصحابه .

وأمرهم بعد ذلك عمر باستنفار مَن حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا .

وسار المثنى فقدم الحيرة في عشر ، وقدم أبو عبيد بعده بشهر .

ذكر وقعة النمارق :

كانت هذه الوقعة سنة ثلاث عشرة ، وذلك أنَّ بوران كانت يومئذ على الفرس ، فأرسلت إلى رستم بن الفَرُّخْزاذ وكان على فرج خراسان فحضر ، فتوّجته ودعت مراذبة فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

فدانت له بلاد فارس ، وكتب إلى الدهاقين أن يثوروا بالمسلمين . وبعث في كل رستاق رجلاً يثور بأهله ، فبعث جابان إلى فرات بادقلى ، وبعث نرسا إلى كَسْكَر وواعدهم يوماً ، وبعث جنداً لمصادمة المثنى .

ولقد بلغ المثنى الخبر فحذر ، وعجل جابان ونزل النمارق وساروا .

وخرج أهل الرستاق من أعلى الفرات إلى أسفله ، وخرج المثنى من الحيرة فنزل خَفّان لئلا يؤتى من خلفه ، وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد .

فلما قدم أبو عبيد أقام أياماً ليستريح هو وأصحابه ، واجتمع إلى جابان بشر كثير . فسار إليه أبو عبيد وجعل المثنى على الخيل ، وكان على مجنبتي جابان جُشْنَسْماه ومَرْدانشاه . فالتقوا واقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً ، فهزم الله الفرس وأسر أميرهم جابان ، أسره مطر بن فضة التميمي . وأسر مردانشاه ، أسره أكتل بن شمّاخ العُكلي فقتله .

وأما جابان فإنه خدع مطراً وقال له : هل لك أن تومّنني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك ، وكذا وكذا . . ؟ فخلّى عنه . فأخذه المسلمون وأتوا به أبا عبيد ، وأخبروه أنه جابان وأشاروا عليه بقتله . فقال أبو عبيد : إني أخاف الله أن أقتله وقد أمّنه رجل من المسلمين ، والمسلمون كالجسد الواحد ، وتركه .

وأرسل أبو عبيد في طلب المنهزمين حتى أدخلوهم عسكر نرسا ، وقتلوا منهم .

وقعتي السقاطية والجالينوس :

كانتا بعد معركة النمارق . فأما وقعة السقاطية فكانت بكسكر ، وانتصر المسلمون فيها .

وأما وقعة الجالينوس ، فهزم الله فيها الفرس وهرب الجالينوس ، وغلب أبو عبيد على تلك النواحي .

معركة قس الناطس :

ويقال لها كذلك : معركة الجسر ، أو معركة المروحة .

وكان رستم قائد جيش الفرس قد اختار لهذه المعركة أشد العجم عداء للمسلمين وهو بَهْمَن المعروف بذي الحاجب ، حيث كان يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعها كبراً . ووجّه معه فيله ، وردّ الجالينوس وقال لبَهْمَن : إن هُزم الجالينوس مرة ثانية فاضرب عنقه .

فنزل بَهْمَن بقس الناطس ، وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة .

فرأت يومها امرأة أبي عبيد دومة أم المختار أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب أبو عبيد ومعه نفر . فأخبرت أبا عبيد بما رأت فقال : هذه إن شاء الله الشهادة ، وعَهِدَ للناس وقال : إن قُتلتُ فعلى الناس بعدي فلان ، ثم قال : إن قُتل أبو القاسم فعلى الناس المثنى .

وبعث بَهْمَن إلى المسلمين يقول : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم . فنهاه الناس عن العبور ، فأبى وترك الرأي وقال : لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، نعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبة للفريقين .

فالتقوا واقتتلوا ، فلما نظرت الخيول إلى الفيلة وإلى خيل الفرس عليهم التجافيف ، ورأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله قبلُ ، فلم تقدم عليهم . فاشتد الأمر على المسلمين ، فترجّل أبو عبيد والناس ، ثم مشوا إليهم فصافحوهم بالسيوف ، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم . فنادى أبو عبيد : احْتوشُوا الفيلة واقطعوا بُطُنها ، واقلبوا عنها أهلها . ووثب هو على الفيل الأبيَض ، فقطع بطانه ودفع الذين عليه . وفعل القوم مثل ذلك ، فما تركوا فيلاً

إلا حطّوا رحله وقتلوا أصحابه . وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف ، وضبطه الفيل بيده فوقع ، فوطئه الفيل وقام عليه .

فلما بصر به الناس تحت الفيل ، خشعت أنفس بعضهم . ثم أخذ اللواء الذي كان أمّره بعده ، فقاتل الفيلَ حتى تنحّى عن أبي عبيد ، فاجتره المسلمون فأحرزوه ، ثم قتل الفيلَ الأميرُ الذي بعد أبي عبيد .

وتتابع سبعة من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ، ثم أخذ المثنى اللواء فهرب عن الناس . فلما رأى عبدالله بن مرثد الثقفي ذلك بادر إلى الجسر فقطعه وقال : أيها الناس ، موتوا على ما مات عليه أميركم أو تظفروا .

وحاذى المشركون المسلمين إلى الجسر ، فتواثب بعضهم إلى الفرات وغرق ، وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس ، وقاتل أبو زبيد الطائي حمية للعرب – وكان نصرانياً –. ثم جاء العُلوج وعقدوا الجسر وعبر الناس ، وكان آخر مَن قُتِلَ عند الجسر سليط بن قيس .

وعبر المثنى وحمى جانبيه ، فلما عبر ارْفَضَّ عنه أهل المدينة وبقي في قلة ، وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه .

وأراد بَهْمَن قائد الفرس يومها العبور خلف المسلمين ، فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ، فرجع إلى المدائن .

وقد هلك من المسلمين يومها أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان من المسلمين ، وبقي ثلاثة آلاف . وقُتل من الفرس ستة آلاف .

وأخبر عمر بن الخطاب عمّن سار في البلاد استحياء من الهزيمة ، فاشتد ذلك عليه وقال : اللهم إن كل مسلم في حِلٍّ مني ، أنا فئة كل مسلم . ثم قال : يرحم الله أبا عبيد ، لو كان انحاز إلي لكنت له فئة .

ولقد كانت هذه الوقعة في شعبان سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية الشريفة ، والله تبارك وتعالى أعلم .

ذكر وقعة أُلَيس الصغرى والبُوَيْب :

قال ابن الأثير : لما عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومَرْدانشاه بما جاء به من الخبر ، فخرجا حتى إذا أخذا بالطريق وبلغ المثنى فعلهما ، استخلف على الناس عاصم بن عمر وخرج في جريدة من الخيل يريدهما ، فظنا أنه هارب فاعترضاه ، فأخذهما أسيرين .

وخرج أهل أليس على أصحابهما ، فأتوه بهم أسرى فعقد لهم بها ذمة ، وقتل الأسيرين .

ثم وقعت بعد ذلك وقعة البوَيب ، وقتل فيها من الفرس ما يزيد على المائة ألف ، وغنم المسلمون وسبوا شيئاً كثيراً .

وقد سمي ذلك اليوم بيوم الأعشار .

ذكر خبر سوقي الخنافس وبغداد :

ورد أنه جاء رجلان إلى المثنى : أحدهما أنباري فدلّه على سوق الخنافس ، والثاني حيري فدلّه على سوق بغداد .

فبدأ بسوق الخنافس لأنها كانت تقوم قبل سوق بغداد ، وكان يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد ، وتخفرهم ربيعة وقضاها . فأغار المثنى على الخنافس يوم سوقها ، فانتسف السوق وما فيها ، وسلب الخفراء .

ثم رجع فأتى الأنبار ، فنزل أهلها إليه وأتوه بالأعلاف والزاد ، وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد .

ثم سار ليلاً فصبّحهم في أسواقهم ، فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء ، وقال لأصحابه : لا تأخذوا إلا الذهب ، والفضة ، والحرّ مِن كل شيء .

ثم عاد راجعاً حتى أتى الأنبار ، وكان مَن خلفه مِن المسلمين يمخرون السواد ، ويشنون الغارات ما بين أسفل كَسْكَر وأسفل الفرات ، وجسور مثقب إلى عين التمر .

ولما رجع المثنى إلى الأنبار ، بعث المضارب العجلي إلى الكباث وعليه فارس العناب التغلبي ، ثم لحقهم المثنى . فسار معهم فوجدوا الكباث وقد سار ، وسار المسلمون خلفه فقتلوا في أخريات أصحاب فارس العناب ، وأكثروا القتلى ورجعوا إلى الأنبار .

ذكر خبر غزو بني تغلب بصفين :

جاء في الأخبار أن المثنى الشيباني سرّح فرات بن حيان التغلبي وعتيبة بن النهاس ، وأمرهما بالغارة على أحياء بني تغلب بصفين . ثم أتبعهما واستخلف على الناس عمرو بن سُلمى الجهني .

فلما دنو من صفين فرّ مَن بها من أهلها ، وعبروا الفرات إلى الجزيرة وقد فني الزاد الذي كان مع المثنى وأصحابه ، فأكلوا رواحلهم إلا ما لا بد منه حتى جلودها .

ثم أدركوا عيراً من أهل دبا وحوران فقتلوا مَن بها ، وأخذوا ثلاثة نفر من

تغلب كانوا خفراء ، وأخذوا العير . فقال لهم المثنى : دلوني ، فقال أحدهم : أمّنوني على أهلي ومالي وأدلكم على حي من تغلب .

فأمّنه المثنى وسار بهم يوماً ، وهجم العشيَّ على القوم والنَّعَمُ صادرة عن الماء ، وأصحابها جلوس بأفنية البيوت . فقتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، واستاق الأموال .

وقد أخبر المثنى أن جمهور مَن سلك البلاد قد انتجع شاطئ دجلة ، فخرج المثنى وعلى مجنبتيه النعمان بن عوف ومطر الشيبانيان ، وعلى مقدمته حذيفة بن محصن الغلفاني .

فساروا في طلبهم فأدركوهم بتكريت ، فأصابوا ما شاءوا من النَّعَمِ ، وعادوا إلى الأنبار .

ومضى عتيبة وفرات ومَن معهما حتى أغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين ، فأغاروا عليهم حتى رموا طائفة منهم في الماء ، فجعلوا ينادونهم : الغرق الغرق . وجعل عتيبة وفرات يذرمان الناس وينادیانهم : تغريق بتحريق ، يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية كانوا حرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض . ثم رجعوا إلى المثنى وقد غرّقوهم .

فبلغ ذلك عمر فبعث إلى عتيبة وفرات ، فاستدعاهما وسألهما عن قولهما ، فأخبراه أنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب زحل إنما هو مثل ، فاستحلفهما على ذلك وردّهما إلى المثنى .

وكانت هذه الوقعة التي ذكرناها بالعراق في سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية الشريفة .

ذكر القادسية وأيامها :

كان ابتداء أمر القادسية أن الفرس لما مات ملكها أزدَشير تفرّقت آراؤها ، وكان المسلمون قد فتحوا من بلادهم ما ذكرنا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حياة أزدَشير ، ثم تابعوا الغارات عليهم .

فاجتمعت الفرس وقالوا لرستم والفيرُزان – وهما على أهل فارس – : لا زال بكما الاختلاف حتى أوهنتما أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم . فاجتمعوا واستدعوا نساء كسرى وسراريّهم ، وكشفوا عمّن بقي من نسل الملوك الأكاسرة ، فدلوهم على يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى ، فاستدعوه وملّكوه عليهم وأطاعوه .

فبلغ خبرهم المثنى بن حارثة فكتب بذلك إلى عمر ، فلم يصل الكتاب حتى نقض مَن كان له عهد من أهل السواد . فخرج المثنى حتى نزل بذي قار ، ونزل الناس بالطَّفّ في عسكر واحد .

ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر قال : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب . وكتب إلى عماله على العرب ألاّ يَدَعوا مَن له نجدة ، أو رأي ، أو فرس ، أو سلاح ، إلا وجّهوه إليه . وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية الشريفة .

فاجتمع إليه الناس ، ولم يدع رئيساً ، ولا ذا رأي وشرف ، ولا خطيباً ، ولا شاعراً إلا استثارهم في الخروج بنفسه لغزو الفرس . واجتمع رأي وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث رجلاً من المسلمين ويضم إليه الجنود ، واتفق رأيهم على سعد بن أبي وقاص ، وكان يومها على صدقات هوازن .

فكتب إليه عمر بن الخطاب بانتخاب ذوي الرأي ، والنجدة ، والسلاح . فجاء كتابه إلى عمر يقول : قد انتخبنا لك ألف فارس ، كل له نجدة ورأي ، وإليهم انتهت أحسابهم . فأمر عمر بحرب العراق ، وضمّ إليه الجيوش كلها .

فخرج سعد في أربعة آلاف ، وأمدّه عمر بعد خروجه بألفي يماني ، وألفي نجدي . وكان المثنى بن حارثة في ثمانية آلاف ، فلما سار سعد توفي المثنى قبل وصوله ، واجتمع مع سعد ثمانية آلاف ، ثم أتته قبائل العرب .

فكان جميع مَن شهد القادسية بضعاً وثلاثين ألفاً ، منهم : تسعة وتسعون بدرياً ، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ، وثلاثمائة ممن كان شهد فتح مكة ، وسبعمائة من أبناء الصحابة .

فعبّأهم سعد بن أبي وقاص وأمّر الأمراء ، وعرّف على كل عشرة عريفاً ، وجعل أهل السابقة على الرايات .

ثم سار بالجيوش حتى نزل القادسية[1] ، وأقام بها شهراً لم يأته من الفرس أحد . فأرسل عاصم بن عمرو يطلب غنماً أو بقراً ، فلم يقدر عليها . فتحصّن منه مَن هناك ، فأصاب رجلاً بجانب أجمة ، فسأله عن البقر والغنم فقال : لا أعلم . فصاح ثور من الأجمة : كذب عدو الله ، ها نحن . فدخل عدو الله فاستاق البقر وأتى بها العسكر ، وقسّمها سعد على الناس .

ثم بث سعد الغارات بين كَسْكَر والأنبار ، فحووا من الأطعمة ما قام بهم زماناً . فاستغاث أهل السواد إلى يزدجرد وقالوا : إما أن تدفع العرب ، وإما أن نعطيهم ما بأيدينا . فأرسل إلى رستم وأمره بالمسير للقاء المسلمين ، فاستعفاه

١- هي بين العتيق والخندق بحيال القنطرة .

رستم من ذلك وسأله أن يجهز الجالينوس ، فأبى يزدجرد إلا مسيره . فعسكر بساباط ، ثم استعفاه ثانية من المسير فأبى عليه .

واتصلت الأخبار بسعد فكتب إلى عمر ، فأجابه : لا يكربنّك ما يأتيك عنهم ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة والجلد يدعونه ، فإن الله تعالى جاعلٌ دعاءهم توهيناً لهم .

فأرسل سعد نفراً إلى يزدجرد دعاةً ، ومنهم : النعمان بن مُقَرِّن ، وبسْر ابن أبي رَهْم ، ورحملة بن جؤيّ ، وحنظلة بن الربيع ، وفرات بن حيان ، وعدي ابن سهيل ، وعطارد بن حاجب ، والمغيرة بن زرارة الأسدي ، والأشعث بن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن مَعْدِيَكْرب ، والمغيرة ابن شعبة .

فقدموا عليه ، فأحضر وزراءه وأحضر رستم ، واستشارهم فيما يقول لهم . واجتمع الناس ينظرون إليهم ، ثم أذن إليهم . وأحضر الترجمان وقال له : سلهم ما جاء بكم ، وما دعاكم إلى غزونا والتوغل في بلادنا من أجل أننا تشاغلنا عنكم واجترأتم علينا ؟ فقال النعمان بن مقرن لأصحابه : إن شئتم تكلمت عنكم ، ومَن شاء آثرته . قالوا : بل تكلم .

فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، وواعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة . فلم يَدْعُ قبيلة إلا وقاربه منها فرقة ، وتباعد عنه فرقة . ثم أمر أن نبتدئ إلى مَن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه مِن العداوة والضيق . ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا

من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حَسَّن الحَسَنَ ، وقبّح القبيح . فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ، وإن أحببتم ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشانكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

فتكلم يزدجرد فقال : إني لا أعلم أمة في الأرض أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بَيْن منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم ، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس ، فإن كان غدر لحقكم ، فلا يغرنكم منا . وإن كان الجهد ، فرضنا لكم قوتا إلى خِصْبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملّكنا عليكم مَلِكاً يرفق بكم .

فقام المغيرة بن زرارة فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمتَ به أجابوك عليه . فجاوبني لأكون الذي يبلغك ، وهم يشهدون عليّ ذلك . وأما ما ذكرتَ من سوء الحال فهي على ما وصفتَ وأشد . ثم ذكر من سوء عيش العرب ، وإرسال النبيﷺ إليهم ، وقتال مَن خالفهم أو الجزية نحو قول النعمان . ثم قال : اختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئتَ السيف ، أو تسْلِمَ فتنجّي نفسك .

فقال يزدجرد : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، ثم قال : لا شيء لكم عندي . واستدعى بوقْر من تراب فقال : احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سُوقوه حتى يخرج من باب المدينة . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم

رستم حتى يدفنكم ويدفنه معكم في خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور قبل ذلك .

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال : أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء . فحمله على عنقه ، وخرج إلى راحلته فركبها ، وأخذ التراب وقال لسعد عند عوده : أبشر ، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

وقال يزدجرد لرستم : إن كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جواباً منهم ، ولقد صدقني القوم لقد وُعدوا أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه ، على أني وجدتُ أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه . فقال رستم : أيها الملك ، إنه أعقلهم .

وخرج رستم وبعث في أثر الوفد ، وقال لرجل ثقة عنده : إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا ، وإن لم يدركهم سلبكم الله أرضكم . فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم ولم يدركهم ، فقال رستم : ذهب القوم بأرضكم من غير شك . وكان رستم منجما كاهناً .

ولما سار الوفد ، أغار سواد بن مالك التميمي على النِجاف والفِراض ، فاستاق ثلاثمائة دابة من بعير وحمار وثور وأوقارها سمكا . وأصبح العسكر فقسّمه سعد بين الناس ، فسُمّي يوم الحيتان . وكانت السرايا تسري إلى طلب اللحوم ، فإن الطعام كان كثيراً عندهم . وكانوا يُسمّون الأيام بها : كيوم الأباقرة ، ويوم الحيتان .

وبعث سعد بن أبي وقاص سرية أخرى فأغاروا ، فأصابوا إبلاً لبني تغلب والنمر فاستاقوها .

وسار رستم من ساباط ، وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً ، وخرج هو في ستين ألفاً ، وكانت ساقته في عشرين ألفاً ، وجعل في الميمنة الهرمزان ، وفي الميسرة مهران بن بهرام الرازي .

وأرسل سعد بن أبي وقاص سرايا ورستم بالنَجَف ، وجالينوس بين النَجَف والسلحين . وطاف في السواد ، فبعث سواداً وحميضة كل منهما في مائة ، فأغاروا على النهرين .

فبلغ رستم الخبر ، فأرسل إليهم فيلاً . وسمع سعد أنَ خيله قد توغلت ، فأرسل عاصم بن عمرو وجابراً الأزدي في آثارهم . فلحقهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم ، فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم .

ولقد وقع قبل معركة القادسية أمور بين المسلمين والفرس ، اختصرناها هنا ليرجع القارئ إن شاء تفصيلاً إلى أمهات الكتب .

وبإيجاز حصلت إغارات من المسلمين كثيرة على الفرس ، وغَنِمَ بعدها المسلمون أشياء كثيرة .

ولقد عيّن يزدجرد ملك الفرس قائداً للجيش الذي سيقاتل المسلمين في القادسية ألا وهو رستم . وجعل تحت يديه جميع قواد الفرس كالجالينوس ، وذي الحاجب ، وغيرهما من أبطال الفرس المجربين .

وبعد ذلك سار رستم بالجيوش الفارسية من المدائن إلى أن وقف بجيشه على العتيق بجيال عسكر المسلمين ، وكان مع الفرس يومها ثلاثة وثلاثون فيلاً ، منها فيل سابور الأبيض .

وبعد أن استقر رستم بجيشه في مكان المعركة ، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص : أن أرسل إلينا رجلاً لنكلّمه في شأننا ، فأرسل إليه سعدٌ رِبْعيَّ ابن عامر .

وكان رستم قد أظهر زينته وجلس على سرير من ذهب ، وبسط البسُط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب . وأقبل رِبْعي على فرسه وسيفه في خرقة ، ورمحه مشدود بعصب . فلما انتهى إلى البسط قيل له : انزل ، فأبى وحمل فرسه حتى وطئت تلك البسط ، ونزل وسطها بوسادتين شقّهما وأدخل الحبل فيهما ، ثم أخذ عباءة بعيره فتدرّعها وشدّها على وسطه . فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ، أنتم دَعَوْتموني . فأخبروا رستم فقال : ائذنوا له .

فأقبل ربعي على رستم يتوكّأ على رمحه ويقارب خطوة ، حتى إذا دنا منه جلس على الأرض وأركز رمحه على البسط ، فقيل له : ما حملك على هذا ؟ فقال : إنا لا نستحل القعود على زينتكم . فقال له ترجمان رستم عبّود – وهو من أهل الحيرة – : ما جاء بكم ؟ قال : الله ، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سَعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، فمن قَبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ، ومن أباه قاتلناه حتى يقضي الله إلى الجنة أو الظفر . فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن توخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ قال : نعم ، وإن ما سنّ لنا رسول اللهﷺ أن لا نمكّن الأعداء أكثر من ثلاث ، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً ، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : إما الإسلام وندعك وأرضك ،

أو الجزية ، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، وأنا كفيل بذلك عن أصحابي . فقال رستم : أسيّد أصحابك أنت ؟ قال : لا ، ولكنا كالجسد الواحد بعضنا من بعض ، يجير أدنانا على أعلانا .

فخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم أو سمعتم كلاماً قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويحكم ، لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي ، والكلام ، والسيرة . إن العرب تستخف باللباس وتصون الأحساب ، ليسوا مثلكم .

ولقد حصلت مراسلات بين رستم وسعد كثيرة ، وقابل رستم بعد ذلك أكثر من رسول من أصحاب سعد يمثل الإسلام ، ويبين رأي المسلمين . وحصلت مناظرات بين رسل المسلمين ورستم والدهاقين الذين معه ، ولقد أوضح رسل سعد بعد ذلك عن حقيقة ما أرسلوا به ، وسبب مجيئهم إلى بلاد الفرس . واقتنع رستم بأن الحرب ستكون عقائدية ، لا من أجل أرض ، ومال ، وغنائم . وهذا ما أوضحه بعد ذلك رستم لقواد جيشه ، بأن العرب أتوا إلى بلاد الفرس ليبلّغوا دعوتهم ، ولينشروا عقيدتهم . ثم اعتقد رستم بأن المسلمين يومها منصورون لِما رآه منهم في لقاءاته المتكررة معهم .

ثم كان البريد متصلاً تماماً بين يزدجرد ورستم ، حيث جعلوا أناساً من باب قصر يزدجرد إلى باب رستم في مكان المعركة ، ما بين كل رجلين من هؤلاء مسافة توصل الصوت واضحاً إلى الآخر . وعلى أثر ذلك ، كانت تفاصيل المعركة واضحة أمام يزدجرد ملك الفرس .

ثم بعد أن انتهت المراسلات والمناظرات بين المسلمين والفرس ، قال رستم للمسلمين : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا : اعبروا إلينا ، ورجعوا من عنده عشياً . وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم ، وأرسل إليهم : شانكم والعبور .

فأراد الفرس الجواز على القنطرة ، فمنعهم المسلمون وقالوا : أما شيء غلبناكم عليه فلا نرده عليكم . فباتوا يَسْكُرون العتيق بالتراب ، والقصب ، والبراذع حتى الصباح . وجعلوا طريقاً يوصلهم للمسلمين ، واستتمّ طريقهم بعد ما ارتفع النهار .

ولقد رأى رستم فيما يرى النائم تلك الليلة كأن مَلَكاً نزل مِن السماء ، فأخذ قَسِيَّ أصحابه فختم عليها ، ثم صعد بها إلى السماء . فاستيقظ مهموماً ، واستدعى خاصّته فقصّها عليهم وقال : إن الله ليعظنا لو اتعظنا .

ثم ركب رستم وعبر وعليه درعان ومغفر ، وأخذ سلاحه . وعبر الفرس العتيق ، ثم كانت الحرب .

ولقد كانت أيام القادسية الفعالة ثلاثة : أما يومها الأول فهو (يوم أرماث) ، والثاني : (يوم أغواث) ، والثالث : (يوم عُماس) . هذا بالإضافة إلى ليلة الهرير ، ويوم القادسية وقتل رستم وهزيمة الفرس .

أما **يوم أرماث** : فإنه كان يوم الإثنين من المحرم سنة أربع عشرة من الهجرة الشريفة كما ذكر ذلك ابن الأثير .

وذلك أن الفرس لما عبروا العتيق ، جلس رستم قائد الجيش الفارسي على سرير ، وضرب عليه بمظلة كبيرة من الديباج والحرير . أما جيشه فقد عَبّى

في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها الصناديق والرجال ، وفي المجنبتين خمسة عشر : ثمانية وسبعة – وذكر ابن الأثير : ثمانية أو سبعة – . وأقام الجالينوس بين رستم وبين ميمنته ، والفِيْرُزان بينه وبين ميسرته .

وكما ذكرنا آنفاً كان يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالاً ، على كل دعوة رجلاً أولهم على باب إيوانه ، وآخرهم مع رستم . فكلما فعل شيئاً قال الذي معه للذي يليه : كان كذا وكذا ، ثم يقول الثاني ذلك للثالث ، وهكذا إلى أن ينتهي الخبر إلى يزدجرد في أسرع وقت .

قال النويري : وأخذ المسلمون مواقفهم ، وكان بسعد دماميل وعِرْق النِسا فلا يستطيع الجلوس ، وإنما هو مُكِبٌّ على وجهه وفي صدره وسادة ، وهو على سطح القصر يُشرف على الناس . فذكر الناس ذلك وعابه بعضهم قائلين :

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية مُعْصِمُ
وقد آمَت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهنّ ايِّمُ

فبلغت أبياته سعداً ، فقال : اللهم إن كان كاذباً وقال الذي قاله رياء وسمعة ، فاقطع عني لسانه . فإنه لواقف في الصف يومئذ أتاه سهم غَرْبٌ فأصاب لسانه ، فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى .

ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم ، وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه ، فعذره الناس وعلموا حاله .

ولما عجز سعد عن الركوب ، استخلف على الناس خالد بن عُرْفُطة فاختلف عليه ، فأخذ نفراً ممن شغب عليه فحبسهم في القصر ، منهم أبو محجن الثقفي ، وقيل : بل كان قد حُبس في الخمر .

وأعلم سعد الناس أنه قد استخلف خالداً ، وإنما يأمرهم خالد بأمره ، فسمعوا وأطاعوا .

ولقد أرسل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نفراً من ذوي الرأي والنجدة ، منهم : المغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن اليمان ، وعاصم ، وطليحة ، وقيس الأسدي ، وغالب ، وعمرو بن معديكرب ، وأمثالهم . ومن الشعراء : الشمّاخ ، والخُطَيأة ، وأوس بن معراء ، وعبدة بن الطبيب ، وغيرهم . وأمرهم بتحريض الناس على القتال ، ففعلوا .

وكان صف المشركين على شفير العتيق ، وصف المسلمين على حائط قُدَيس ، والخندق من ورائهم . وكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق .

وأمر سعد الناس فقرؤوا سورة الجهاد (الأنفال) . فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم فإني مكبر فكبروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبّروا ولْتسْتتمَّ عِدَّتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبّروا ولْينشّطْ فرسانكم الناسَ ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلما كبر سعد الثالثة ، برز أهل النجدات فأنشبوا القتال ، وخرج إليهم من الفرس أمثالهم . وحصلت مبارزات بين فرسان المسلمين والفرس ، وانتصر فرسان المسلمين في جميعها .

وحملت الفيلة على المسلمين ، ففرّقت في بداية المعركة بين الكتائب ونفرت الخيل ، غير أن الله سبحانه وتعالى كفى المسلمين بعد ذلك قوة هذه الفيلة ، وذلك أن أصحاب عاصم أخذوا بأذناب الفيلة فقطعوا غُضنَها ، وعلى أثرها ارتفع عواؤهم فما بقي فيل إلا عوى ، وقُتل أصحابها ، ونفّسَ عن المسلمين .

وكان سعد بن أبي وقاص قد تزوّج سلمى بنت خصفة امرأة المثنى بن حارثة بعده . فلما جال الناس في هذا اليوم ، جعل سعد يتململ جزعاً على الناس

وهو لا يطيق الجلوس ، فلما رأت ما يصنع الفرس قالت : وامثناه ، ولا مثنى للخيل اليوم . فلطم وجهها وقال : أين المثنى عن هذه الكتيبة التي تدور عليها الرَّحى – يعني أسداً وعاصماً – ؟ فقالت : أغَيْرَة وجُبناً ؟ فقال : والله لا يعذرني أحد إن لم تعذريني وأنتِ ترين ما بي .

ولا زال الناس في قتال في اليوم الأول هذا حتى ذهب جزء من الليل وتراجع الناس ، وقد أصيب من قبيلة أسد تلك الليلة خمسمائة ، وكانوا ردءاً للناس .

وأما **يوم أغواث** وهو اليوم الثاني من بدء المعركة : فلما أصبح سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وكّل بالقتلى مَن ينقلهم ليدفنوا ، وأسلم الجرحى إلى النساء يقمن عليهم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتحت دمشق قد كتب إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال أهل العراق ، فأرسلهم وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو .

فتعجّل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم الثاني ، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشاراً وهم ألف ، كلما بلغ عشرة مدّ البصر سرّحوا عشرة .

وتقدّم هو في عشرة ، فأتى الناسَ فسلّم عليهم وبشرهم بالجنود ، وحرّضهم على القتال وقال : اصنعوا كما أصنع . وطلب البراز ، فخرج إليه ذو الحاجب وهو قائد فارسي مجرب ، فعرفه القعقاع واقتتلا ، فقتله القعقاع .

ونشط المسلمون بقدوم تتمة أصحاب القعقاع وكأن لم تكن بالأمس مصيبة ، وانكسرت الأعاجم لقتل ذي الحاجب .

ثم طلب القعقاع البراز ، فخرج إليه الفيرُزان والبندوان ، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان . ونادى القعقاع : يا معشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فإنما يُحصد الناس بها . فاقتتلوا حتى المساء ، فلم يرَ أهل فارس في هذا اليوم ما يعجبهم ، وأكثر المسلمون فيهم القتل .

وكان أبو محجن الثقفي – واسمه مالك بن حبيب ، وقيل غير ذلك – قد حُبس في القصر وقُيد بسبب اعتراضه على خالد بن عرفطة خليفة سعد كما أسلفنا . وقيل : بل كان عمر قد جلده في الخمر مراراً ثمانية وهو لا يتوب ولا يقلع ، فنفاه إلى جزيرة في البحر وبعث معه رجلاً ، فهرب منه ولحق بسعد ، فكتب إليه عمر يحبسه .

فلما التحم القتال ، قال أبو محجن لسلمى امرأة سعد : ويحك ، خلّيني ولك عهد الله إن سلّمني الله أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد ، وإن قُتلتُ ارتحتم مني . فحلّت عنه قيده ، فوثب على فرس لسعد يقال لها : البلقاء ، ثم أخذ الرمح وانطلق حتى إذا كان بجيال الميمنة كبّر ، ثم حمل على ميسرة الفرس ، ثم رجع مِن خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم ، وكان يضرب الناس ضرباً منكراً . فتعجّب الناس منه وهم لا يعرفونه ، فقال بعضهم : هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه ، وقال بعض الناس : هو الخضر ، وقال بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا : إنه مَلَك . وجعل سعد بن أبي وقاص يقول حين ينظر إليه وإلى الفرس : الصبر صبر البلقاء ، والطعن طعن أبي محجن ، وأبو محجن في القيد .

فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس ، أقبل أبو محجن فدخل القصر ، وأعاد رجليه في القيد وقال :

لقد عَلِمَتْ ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الحُتوفا
وأنا وفدهم في كل يوم فإن عَمِيُوا فسل بهمُ عَريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أشعِرْ بمَخْرَجِيَ الزُّحوفا
فإن أحْبَسْ فذلكمُ بلائي وإن أترَكْ أذيقهمُ الحتوفا

فقالت له سلمى : في أيّ شيء حبسك ؟ فقال : أما والله ما حبسني بجرام أكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، ولكني امرؤ شاعر يَدُبّ الشعر على لساني ، فقلت مرتجلاً في ذلك أبياتاً :

إذا مِتُّ فادفني إلى أصل كرمة تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنيني بالفلاة فإنني أخاف إذا مِتُّ ألا أذوقها

ثم قال : فلذلك حبسني .

فلما أصبحت أتت سعداً فصالحته وأخبرته بخبر أبي محجن ، فأطلقه وقال : اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله ، فقال أبو محجن : لا جرم والله لا أجيب لساني إلى قبيح أبداً .

وقد قيل : إن سعداً لما أخبر بأمره ، دعاه وحلّ قيوده وقال : لا تجُلدنّ على الخمر أبداً ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبداً ، وقد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم .

أما **يوم عُماس** اليوم الثالث : فقد أصبح الناس في هذا اليوم على مواقفهم ، فلما بزغت الشمس أقبل أصحاب القعقاع .

فحين رآهم كبّر وكبر المسلمون ، وتكتبت الكتائب ، واختلط الطعن والضرب . ثم حمل المسلمون على الفرس ، وكان الفرس قد أصلحوا توابيتهم وأعادوها على الفيلة ، وأقبلت الرَجّالة حول الفيلة يحمونها أن تقطع غُضنها ، ومع الرَجّالة فرسان يحمونهم .

وقد أرسل سعد بن أبي وقاص في هذا اليوم إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو : أن اكفياني الفيل الأبيض ، وكان بإزائهما والفُيول كلها آلفة له . فحمل القعقاع وعاصم برمحيهما ، وتقدّما في خيل ورَجْل حتى وضعاهما في عيني الفيل الأبيض ، فنفض رأسه ، وطرح ساسته ، ودلّى مِشْفِرَه . فضربه القعقاع فرمى به ووقع لحينه ، وقتلوا مَن كان عليه . وهكذا فُعل بغيره من الفيلة ، فولّى الفيلة .

ووقع القتال حتى المساء من هذا اليوم . فلما أمسى الناس اشتد القتال وصبر الفريقان ، ثم كانت **ليلة الهرير** ، وهي الليلة التي تلت يوم عُماس . وقد سميت هذه الليلة بذلك لتركهم الكلام ، وإنما كانوا يهرّون هريراً .

ولقد طارد فرسان المسلمين هذه الليلة القوم ، وزحف المسلمون على الفرس وكان زحفهم بغير إذن سعد ، فقال سعد : اللهم اغفرها لهم ، قد أذنت لهم بالزحف إذ لم يستأذنوني .

ثم قال سعد : فإذا كبرتُ ثلاثاً فاحملوا على القوم . فكبّر واحدة ، فحملت أسد ثم النخع ثم بَجيلة ثم كِندة ، وسعد يقول عند حملة كل منهم : اللهم اغفرها لهم وانصرهم . ثم زحف الرؤساء ورَحى الحرب تدور على القعقاع .

ولما كبر سعد الثالثة ، لحق الناس بعضهم بعضاً وخالطوا القوم ، فاستقبلوا الليل بعدما صلوا العشاء ، واقتتلوا ليلتهم إلى الصباح . فلما كان عند الصبح انتهى الناس ، فاستدل سعد بذلك على أنهم الأعلون .

وأصبح الناس من ليلة الهرير – وتسمى ليلة القادسية – وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، فسار القعقاع فقال : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر . فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، صمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه .

فلما رأت ذلك القبائل ، قام فيهم رؤساؤهم وقالوا : لا يكونن هؤلاء أجدر في أمر الله منكم ، ولا هؤلاء – يعني الفرس – أجرأ على الموت منكم . وحملوا وخالطوا من بإزائهم من الفرس ، فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة . فكان أول مَن زال الفَيرُزان والهرمزان ، فتأخرا وانفرج القلب ، وركد عليهم النَّقْعُ ، وهبّت ريح عاصفة دبور فقلعت مظلة رستم عن سريره ، فهوى في العتيق ومال الغبار على الفرس .

وانتهى القعقاع ومَن معه إلى السرير ، فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح المظلة ، واستظل بظل بغل من بغال كانت معه . فضرب هلال ابن علقمة حمل البغل الذي تحته رستم ، فقطع حباله وسقط عليه ، فأزاله رستم عن ظهره .ثم ضربه هلال ضربة ، ففرّ رستم نحو العتيق وألقى نفسه فيه ، فاقتحمه هلال عليه وأخذ برجله ثم خرج به ، وضرب جبينه بالسيف فقتله . ثم صعد على السرير وقال : قتلتُ رستم ورب الكعبة ، إليّ إليّ . فأتى الناس ، فنفله سعد سَلَبَه وكان قد أصابه ماء . ولم يظفر بقلنسوته وكانت بمائة ألف .

وبعد مقتل قائد الجيش الفارسي رستم ، نادى الجالينوس الفرس وطلب منهم الرجوع ، وانهزموا وأخذهم السيف والأسر .

واستطاع يومها ضرار بن الخطاب أخذ العَلَم الأكبر الذي كان للفرس ، فعُوّضَ عنه بثلاثين ألفاً ، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف ، وجُعل في بيت المال .

وقتل في هذه المعركة من الفرس عشرة آلاف سوى مَن قُتل قبلها ، وسوى المقترنين . فما أفلت منهم أحد ، وكانوا ثلاثين ألفاً .

وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة ، وقتل في ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف ، ودُفنوا بالخندق .

وحصل بطولات في أيام القادسية ، يستطيع مَن يريد ذلك أن ينظر في تاريخ الطبري ، وابن الأثير ، والنويري .

ولقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب بالفتح ، وبِعِدَّةِ مَن قُتلوا ومَن أصيب من المسلمين . وبعث بذلك سعد بن عُمَيْلة الفزاري .

ولقد أطلنا في ذكر القادسية لِما لها من أهمية في الفتوحات التي جرت بعدها في بلاد فارس .

فتح بُهْرَسير (المدائن الغربية) :

بعد الفراغ من معركة القادسية ، سار سعد بن أبي وقاص إلى المدائن بأمر عمر بن الخطاب ، وخلّف النساء والصبيان بالعتيق ، وجعل معهم جنداً كثيفاً .

ثم كان يوم بُرْس ، ويوم بابل ، ويوم كوثى . وانتصر المسلمون في جميع هذه المعارك .

ثم أرسل سعد زهرة بن الحَوِيَّة إلى بُهْرَسير بالمقدمات ، فتلقاه أهلها من الدهاقين ، وصالح أهلها المسلمين على الجزية .

ثم لقي بعد ذلك كتيبة كسرى التي تدعى بوران ، وكانوا يحلفون كل يوم أن لا يزول ملك فارس ما عاشوا . فهزمهم وقَتل هاشمُ بن عتبة المُقَرّطَ وهو أسد كان كسرى قد أَلِفَهُ ، فقبّل سعد رأس هاشم .

ولما وصل سعد والمسلمون إلى بُهْرَسير ورأوا إيوان كسرى ، كَبَّر ضرار بن الخطاب وقال : هذا ما وعدنا الله ورسوله . وكبّر الناس معه ، فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا .

ثم نزلوا على المدينة ، وكان نزولهم في ذي الحجة سنة خمس عشرة ، وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة كما ذكر ذلك ابن الأثير .

وذلك أن سعد بن أبي وقاص نزل عليها وحاصرها شهرين ، ونصب عليها عشرين منجنيقاً ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً . وأرسل سعد الخيول فأغارت على مَن ليس له عهد ، فأصابوا مائة ألف فلاح . فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه ، فقال : مَن جاءكم ممن يعين عليكم فهو أمانهم ، ومَن هرب فأدركتموه فشأنكم به . فخلّى سعد عنهم ، وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة ، فتراجعوا .

واشتد الحصار على أهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب . فبينما هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسول فقال : يقول لكم الملك : هل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أما شبعتم ؟ لا أشبع الله بطونكم . فقال له أبو مُفزِّر الأسود بن قتبة وقد أنطقه الله ﷻ بما لا يدري لا هو ولا من معه .

فرجع الرجل ، فقطع الفرس دجلة إلى المدائن الشرقية التي فيها الإيوان ، فقال له من معه : يا أبا مُفزِّر ، ما قلتَ للرسول ؟ قال : والله ما أدري ، وأرجو أن أكون قد نطقت بالذي هو خير .

فنادى سعد بن أبي وقاص في الناس فنهدوا[1] إليهم ، فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلا رجل ينادي بالأمان فأمّنوه . فقال لهم : ما بقي في المدينة أحد يمنعكم . فدخلوا فما وجدوا فيها غير الأسارى وذلك الرجل ، فسألوه : لأي شيء هربوا ؟ فقال : بعث إليكم الملك بالصلح فأجبتموه : أن لا صلح بيننا

١- بمعنى هَمُّوا .

وبينكم أبداً حتى نأكل عسل أفْرَدُون بأُتْرُجِّ كُوثى ، فقال الملك : يا ويله ، إن الملائكة تكلّم على ألسنتهم ترد علينا .

فساروا إلى المدينة القصوى ، ودخل المسلمون المدينة وأنزلهم سعد المنازل .

فتح المدائن الشرقية التي فيها إيوان كسرى :

قال ابن الأثير : لقد أقام سعد بن أبي وقاص بالجيش في بُهْرَسير أياماً من صفر ، ثم قصد المدائن وقطع دجلة .

وكان سبب عبوره أنَّ رجلاً من كفار العجم جاءه فقال له : ما مقامك ؟ لا يأتي عليك ثالث حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن . فهيّجه ذلك على العبور .

فقام سعد وخطب الناس وقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلُصون إليه معه ، ويخلُصون إليكم في سفنهم إذا شاءوا ، وليس وراءكم ما تخافون منه ، فقد كفاكم الله أهل الأيام . وقد رأيتُ من الرأي أن تجاهدوا العدو ، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل .

فندب الناس على العبور وقال : مَن يبدأ ويحمي لنا الفِراض[1] حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل عليهم عاصماً .

فتقدّمهم عاصم في ستين فارساً قد اقتحموا دجلة ، فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا ، أخرجوا للخيل التي تقدّمت مثلها . فاقتحموا عليهم دجلة ، فلقوا

١ـ الفِراض هي محطة السفن من النهر .

عاصماً وقد دنا من الفِراض ، فقال عاصم : الرماحَ الرماحَ أشرعوها وتوخّوا[1] العيون . فالتقوا فطعنهم المسلمون في عيونهم ، فولوا ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ، ومَن نجا منهم كان أعورَ . وتلاحق الستمائة بالستين .

ولما رأى سعد عاصماً على الفِراض قد منعها ، أذن للناس في الاقتحام ، وقال : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . واقتحم الناس دجلة يتحدّثون كما يتحدّثون في البر ، وطبقوا دجلة حتى ما يُرى من الشاطئ شيء .

قال ابن الأثير : ولم يكن بالمدائن أعجب من دخول الماء ، وكان يُدعى بيوم الجراثيم ، لا يبقى أحد إلا انتشرت له جرثومة من الأرض يستريح عليها حتى ما يبلغ الماء حزام فرسه . فعبروا سالمين لم يُعدم منهم أحد ، ولا عُدِمَ لأحد شيء غير قدح لمالك بن عامر سقط منه فجرى في الماء ، ثم ألقته الريح إلى الشاطئ فأخذه صاحبه .

فلما رأى الفرس عدوهم خرجوا هُرّاباً نحو حلوان ، وكان يزدجرد قد قدم عيالُه إليها قبل ذلك . ولما هرب حمل أصحابه من بيت المال ما قدروا عليه مما خَفَّ ومن النساء والذراري ، وتركوا في الخزائن مِن المتاع والثياب والألطاف ما لا تدرك قيمته ، وتركوا ما قد أعدوه للحصار من الأطعمة ، ومن الغنم والبقر . وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسية النصف ، وبقي النصف الآخر .

وكان أول مَن دخل المدائن كتيبة الأهوال ، وهي كتيبة عاصم بن عمرو .

١ـ أي اقصدوا .

ثم كتيبة الخنساء ، وهي كتيبة القعقاع بن عمرو . فأخذوا في سِككها ، وأحاطوا بالقصر الأبيض وبه مَن بقي من الفرس ، فأجابوا إلى الجزية والذمة ، فتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم .

ونزل سعد القصر الأبيض إيوان كسرى ، وهناك نزل عن جواده الأبيض وصلى ركعتين لله شكراً أن جعل هؤلاء البدو أسياداً للفرس والروم .

ثم سرّح زهرة في آثار القوم إلى النهروان ، وسرّح مقدار ذلك في كل جهة . وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وراعيهم ، دعا أهل بُهْرَسير ثلاثاً وأهل القصر ثلاثاً .

ولما دخل سعد الإيوان قرأ قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[1] .

وقد اتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ، ولم يُغيّر ما فيه من التماثيل ، وأتمّ الصلاة لأنه نوى الإقامة .

وكانت أول جمعة أقيمت في المدائن في صفر سنة ست عشرة من الهجرة الشريفة .

وأخذ سعد الغنائم التي وُجدت في المدائن من حلي ومتاع وعتاد ، كما أخذ تاج كسرى وسواريه ، وجمع أدرع ملوك الهند والترك والروم وسيوفهم التي استلمها الفرس لمّا غزوهم قبل ذلك . ثم قسّمها على الجيش بعد أن أحصيت وحُسبت حساباً دقيقاً ، وأرسل الخمس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكانت غنيمة ثمينة لم تر الجزيرة العربية بعمرها مثلها .

١ـ الآيات (٢٥ ـ ٢٨) من سورة الدخان .

وتأتي هذه الغنائم الكثيرة إلى عمر ، فيقول : أين سراقة بن مالك ؟ ويقول سراقة : يا عمر ، هذه رقعة رسول اللهﷺ وعدني بسواري كسرى . فيقول له عمر : أقبل ، ويلبسه السوارين ، وبذلك يحقق وعد رسول اللهﷺ .

ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان :

كانت وقعة جلولاء كما قال ابن الأثير في أول ذي القعدة سنة ست عشرة ، بينها وبين المدائن تسعة أشهر .

وسببها أن الفرس لما هربوا من المدائن انتهوا إلى جلولاء ، فافترقت الطرق لأهل أذربيجان ، والباب ، وأهل الجبال ، وفارس . فقالوا : إن افترقتم لن تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نحب ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا . واجتمعوا فيه على مهران الرازي ، وتقدم يزدجرد إلى حلوان .

فبلغ ذلك سعداً فأرسل إلى عمر ، فبعث إليه : أن سَرِّح هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وإنْ هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل ، وليكن الجند اثني عشر ألفاً .

ففعل سعد ذلك ، والتقى المسلمون والفرس فقاتلوا قتالاً شديداً ، وأرسل الله على الفرس ريحاً حتى أظلمت عليهم البلاد ، فسقط فرسانهم في الخندق ، ونصر الله المسلمين وانهزم الفرس هزيمة شنعاء .

وأصاب القعقاع سبايا ، فأرسلهن إلى هاشم فقسّمهن ، فاستولدهن المسلمون . ومما يُنسب إلى ذلك السبي أم الشعبي .

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الري ، واستخلف على حلوان غيره .

ثم تتابع الجيش المسلم واستولوا على حلوان ، وكان فتحها في ذي القعدة من نفس السنة المذكورة آنفاً . وبقي القعقاع بها إلى أن تحوّل سعد إلى الكوفة ، فلحقه واستخلف على حلوان قُباذ وكان أصله خرسانياً .

وكتب المسلمون إلى عمر بن الخطاب بالفتح . وجُمعت الغنائم وقُسّمت بعد الخمس ، فأصاب كل فارس تسعة آلاف ، وتسعاً من الدواب . وقُسِّم يومها الفيء على ثلاثين ألفاً .

فتوح بقية بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر :

قال ابن الأثير : وفُتحت تكريت والموصل في جمادى سنة ست عشرة .

وفتح المسلمون كذلك في عهد عمر قرقيسياء سنة ست عشرة أيضاً .

وفي سنة سبع عشرة فتحت الأهواز ، وبعدها تسْتر التي كان بها شهريار أخو الهرمزان .

وانساحت بعد ذلك الجيوش الإسلامية في بلاد الفرس ، حيث أذن عمر بن الخطاب للمسلمين بذلك ، وحصلت فتوحات عظيمة ببركة الرجال الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله ﷻ .

فكانت وقعة نهاوند سنة سبع عشرة ، وقيل : في سنة ثماني عشرة ، وقيل : في سنة إحدى وعشرين .

ثم فتحت دَينور والصَّيْمَرة وغيرهما بعد انصراف المسلمين من نهاوند .

وفتحت كذلك همذان ، والماهين ، وغيرهما .

كما فتحت قومس ، وجرجان ، وطبرستان في سنة ثماني عشرة على قول ابن الأثير ، وقيل غير ذلك .

وفي سنة إحدى وعشرين ، بعث عمر بن الخطابﷺ عبدالله بن عبدالله ابن عتبان إلى أصبهان على رأس جيش ، وكان شجاعاً من أشراف الصحابة فافتتحها .

ثم سار عبدالله بعد ذلك إلى مدينة جي وهي مدينة أصبهان .

كما فُتحت الري في عهد عمر بن الخطابﷺ سنة إحدى وعشرين ، وقيل : في سنة ثلاث وعشرين ، وقيل غير ذلك .

وفي سنة اثنتين وعشرين ، بعث المغيرة بن شعبة البراءَ بن عازب في جيش إلى قزوين ، وأمره إن فتحها أن يغزو الدَّيلَم . فسار حتى أتى أبهَر – وهو حصن – ففتحه . ثم غزا قزوين ، وصالح أهلها على مثل صلح أبهر . ثم غزا الديلم ، وفتح زنجان عنوة .

ولما ولي الوليد بن عقبة الكوفة ، غزا الديلم ، وجيلان ، وموقان ، والبيروطيلسان ، وفتحهم .

وفتح كذلك الباب ، وأذربيجان في سنة اثنتين وعشرين كما ذكر ابن الأثير ، والله سبحانه أعلم .

وفي نفس السنة أمر عمر بن الخطاب بغزو خراسان وفُتحت .

ثم فتحت هَرات عنوة بعد أن فرّ يزدجرد من الري إلى أصبهان ، ثم إلى كرمان والنارمعة .

وفتحت كذلك شهرزور ، والصامغان .

وفي سنة ثلاث وعشرين فتحت توَّج ، والصخر ، وجور ، وكازرون ، والنوبَندَجان ، ومدينة شيراز ، وأرجان .

وفي هذه السنة أيضاً فتحت فَساوَدرابجُرُد بقيادة سارية بن زنيم الديلمي .
وفي هذا الفتح ظهرت كرامة سيدنا عمر على المنبر حيث قال : يا ساريةُ الجبلَ ، وقد تقدّم ذكرها تفصيلياً في بيان كرامات سيدنا عمر .

وفتحت كذلك كرمان بقيادة سهيل بن عدي ، وسجستان بقيادة عاصم ابن عمرو ، ومكران بقيادة الحكيم بن عمرو التغلبي .

وفي شهر رمضان من نفس السنة فتحت بَيْروذ من بلاد الأهواز .

فتح بلاد الأكراد :

كان فتح بلاد الأكراد على يد القائد سلمة بن قيس الأشجعي. وقد رأى فيها جواهر كثيرة ، فاستأذن من الجيش أن يرسلها إلى عمر بعد أن استرضاه ووزع عليه الغنائم ، فأُرسلت إلى عمر .

وعندما وصل الجوهر إلى عمر غضب ووجأه في عنق الرسول ، وأعاده إلى سلمة وطلب منه أن يقسمه على الجيش ؛ لأنه لا يريد المال ، إنما أراد اللحاق بصاحبيه : رسول اللهﷺ ، وأبي بكر الصديق .

فوصل الجوهر إلى سلمة فباعه وقسّم ثمنه على الجيش ، فكان الفص يباع بخمسة دراهم وهو يساوي عشرين ألفاً .

❊ ❊ فتوح بلاد الترك ❊ ❊

ولقد أمر عمررضي الله عنه عبدالرحمن بن ربيعة بغزو الترك ، وخرج بالناس حتى قطع الباب وتوغل في بلاد الأتراك ، وفتح منه المدن والأمصار .

❊ ❊ فتوح بلاد مصر وإفريقيا ❊ ❊

وفي عهد سيدنا عمر كذلك وبأمره فُتحت مصر بقيادة عمرو بن العاص ، والزبير بن العوام . ولقد اختلف بالسنة التي حصل فيها الفتح ، فقيل : في سنة عشرين ، وقيل : في سنة ست عشرة ، والصحيح أنها قد فتحت قبل عام الرمادة الذي كان في سنة ثماني عشرة من الهجرة النبوية الشريفة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يُسيّر الجيوش إلى مصر قد تخوّف على المسلمين وكره ذلك ، غير أن الله سبحانه وتعالى شرح صدره لهذا الفتح . فعقد لعمرو بن العاص لواء على أربعة آلاف رجل على اختلاف في هذا العدد ، وسيّره إلى بلاد مصر قائلاً له : وإني مستخير الله في مسيرك بعد أن تسير ، وسيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى . فإذا أدركك كتابي بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت وصلتها قبل ذلك فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

ثم أمدّ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بعد ذلك بأربعة آلاف أخر . ثم فتحت الإسكندرية وهرب مَن كان فيها من الروم ، وكذلك فتحت الفيوم .

وفي سنة إحدى وعشرين فتح المسلمون زوَيلة ، وطرابلس الغرب ، وبرقة ، وحصن سبرة بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

أجل ، دخل الجيش المسلم تلك الأماكن بقوة وإيمان ، لم يريدوا احتلالاً إنما أرادوا أن يوصلوا كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى تلك الديار والبلاد .

وما قصدت بذلك ذكر الفتوح ، إنما قصدت أن أذكر ما أنتج عمر ببركة إيمانه ، وحبه لله والرسول صلى الله عليه وسلم .

ذكر ولاة عمر وحكامه على الأقاليم الإسلامية

بعد الفتوحات الشاسعة أرسل عمر رضي الله عنه حكاماً على الأقاليم الإسلامية ، وعيّن ولاة على الأمصار .

- فعيّن أبا عبيدة حاكماً عاماً على بلاد الشام ، وهو عيّن على كل ولاية منها والياً . فعيّن يزيد بن أبي سفيان على دمشق ، وبعد قتله عيّن أخاه معاوية .
- واستعمل عمر على مكة عتاب بن أسيد .
- وعلى اليمن والطائف يعلى بن منبه .
- وعلى البحرين واليمامة العلاء بن الحضرمي، ثم عزله وعيّن عثمان بن العاص، ثم عزله وعيّن قدامة بن مظعون ، ثم عزله وعيّن أبا بكرة رفيع بن الحارث .
- وعلى عُمان استعمل حذيفة بن محصن .
- وعيّن على الكوفة سعد بن أبي وقاص، ثم عبدالله بن عشيان ، ثم عمار بن ياسر .
- وعلى البصرة قطبة بن قتادة السدوسي ، ثم عزله وعيّن عتبة بن غزوان ، ثم أبا ثبرة ، ثم المغيرة بن شعبة، ثم عزله بالحادثة المذكورة آنفاً وعيّن أبا موسى الأشعري ، ثم عمر بن سراقة .

أما قضاته ، فهم :

- على المدينة يزيد ابن أخت النمري .
- وعلى قضاء البصرة كعب بن سور .
- وعلى الكوفة شريح الكندي ، وهذا عمّر مائة وعشرين عاماً قاضياً إلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفي .
- وعلى قضاء مصر قيس بن العاص السهمي .

توزيع الفروض والرواتب على المسلمين

في السنة الخامس عشرة من الهجرة الشريفة فرض عمرﷺ الفرائض ، ودوّن الدواوين ، وأعطى العطايا على السابقين في الإسلام ، وجعل لكل مسلم راتباً .

وقد ورد أنه لما دوّن عمر الدواوين قال : بمن نبدأ ؟ قلنا : ابدأ بنفسك فإنك الإمام . فقال : بل رسول اللهﷺ الإمام ، فابدؤوا برهطه الأقرب فالأقرب ، ثم غيرهم .

- فأعطى العباس وأهل البيت خمساً وعشرين ألفاً، وقيل: أعطاهم اثني عشر ألفاً .
- ثم أعطى لكل واحد من أهل بدر خمسة آلاف ، وألحق بهم أربعة هم ليسوا من أهل بدر وهم : الحسن ، والحسين ، وأبو ذر ، وسلمان الفارسي ؛ لفضلهم ومكانتهم ، بل هم يقدمون على أهل بدر .

وفي رواية أخرجها ابن السمان والطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما فتح الله المدائن على أصحاب رسول اللهﷺ في أيام عمر ، أمرهم بالأنطاع فبسطت في المسجد ، وأمر بالأموال فأُفرغت عليها . ثم اجتمع أصحاب رسول اللهﷺ ، فأول مَن بَدَرَ إليه الحسن بن علي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أعطني حقي مما أفاء الله على المسلمين . فقال : بالرّحب والكرامة ، وأمر له بألف درهم ثم انصرف . فبدر إليه الحسين بن علي فقال : يا أمير المؤمنين ، أعطني حقي مما أفاء الله على المسلمين . فقال : بالرّحب والكرامة ، وأمر له بألف درهم ثم انصرف . فبدر إليه ابنه عبدالله بن عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، أعطني حقي مما أفاء الله على المسلمين . فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا رجل مشتد أضرب بالسيف بين يدي رسول اللهﷺ والحسن والحسين طفلان

يدرجان في سكك المدينة ، تعطيهم ألفاً وتعطيني خمسمائة ! قال : نعم ، اذهب فائتني بأب كأبيهما ، وأم كأمهما ، وجد كجدهما ، وجدة كجدتهما ، وعم كعمهما ، وخال كخالهما ، فإنك لا تأتيني به . أما أبوهما فعلي المرتضى ، وأما أمهما ففاطمة الزهراء ، وجدهما محمد المصطفى ، وجدتهما خديجة الكبرى ، وعمهما جعفر بن أبي طالب ، وخالهما إبراهيم بن رسول اللهﷺ ، وخالتاهما رقية وأم كلثوم ابنتا رسول اللهﷺ .

– وأعطى صفوان بن أمية وكان قد أسلم يوم الفتح، والحارث بن هشام، وسهيل ابن عمرو أقل مما قبلهم من المهاجرين الأُوَل . فامتنعوا من أخذ العطاء ، فقال لهم عمر : إني لا أعطي على حسب البيوت ، إنما أعطي على السابقة في الإسلام . فقالوا : إذا كان كذلك فنعم ، وأخذوا .

– وفرض لمن بعد بدر إلى الحديبية لكل واحد أربعة آلاف .

– ولمن بعد الحديبية إلى قتال الردة لكل منهم ثلاثة آلاف .

– وفرض لأهل الأيام قبل القادسية وأهل الشام في ألفين ألفين .

– وفرض لأهل البلاء منهم المقاتلين ألفين وخمسمائة . فقيل لعمر : قد سَوَّيتَ مَن بعدت داره بمن قربت داره ، فقال : مَن بعدت داره أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردءاً للحتوف ، وشحناً كذلك للعدو .

– ثم فرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً .

– ولمن بعدهم من الرادف مائتين وخمسين .

– ولمن بعدهم لأهل هجر مائتين .

– وأعطى نساء رسول اللهﷺ عشرة آلاف ، وفضّل عائشة عليهن بألفين ، فقمن

واعترض : عائشة واحدة منا فلماذا تفضلها علينا ؟ فقال : لِمحبة رسول اللهﷺ لها .

– وجعل لنساء أهل بدر خمسمائة .

– وللنساء من بعدهن إلى الحديبية أربعمائة .

– وللنساء بعد الحديبية ثلاثمائة .

– ولنساء أهل القادسية مائتين مائتين ، ثم سوّى بعد ذلك بين النساء .

– وجعل الصبيان سواء على مائة مائة .

– وجعل لكل مولود يولد راتباً مائة دينار .

فكان الرجل في عهد عمرﷺ لا يحتاج إلى أحد ، الأرملة لا تحتاج إلى أحد ينفق عليها ، واليتيم راتبه يأتيه وينفق على نفسه ، والمجاهد يجاهد ويأخذ الفيء والغنيمة كما يأخذ العطاء . وزوجته في البيت تأخذ عطاء ، وابنه الرضيع ، والكبير كذلك .

فقيل له : يا أمير المؤمنين ، تعطي هذه الأموال هكذا ؟ لو كنتَ تركتَ في بيت المال شيئاً للكون . فقال له عمر : هذه كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقاني الله شرها وهي فتنة تكون ، هذه الأموال تأتينا من كل أرجاء الأرض ونبقيها مخزنة لاحتمال يكون ، فلا والله لن يكون هذا أبداً ، بل أعد لهم ما أعد الله ورسوله ، وأعد لهم طاعة الله وطاعة رسوله ، هما عدتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون من هذه الأموال .

وكانﷺ قبل أن يموت قد نوى أن يفعل أكثر وقال : لقد هممتُ أن أجعل العطاء إلى أربعة آلاف : ألف يجعلها الرجل في أهله ، وألف يتزوّدها معه ، وألف يتجهّز بها ، وألف يرتزق بها . إنما عاجله الموتﷺ ، وكان له ما نوى .

هكذا وزع عمر رضي الله عنه الفروض والرواتب على المسلمين من أقصى بلاد الإسلام إلى أقصى بلاد الإسلام ، حتى أنه عيّن للشاة التي ترعى في البراري مَن يقوم بأعبائها ، ويقدم لها العلف والماء وإن كانت على شاطيء الفرات أو الدجلة .

فعلها عمر عن إيمان وصلة بالحضرة النبوية الشريفة ، وكان الميزان العمري ميزاناً صحيحاً على قدر القرب من النبي عليه الصلاة والسلام . لم ينظر إلى العشيرة والقبيلة ، بل نظر إلى السابق للإسلام وإن كان فارسياً .

علّم الولاة الذين يحبون الموعظة أن المال هو مال الله ، سواء كان . . أو كان . . أو كان . . . هذا المال للمسلمين فيؤخذ ويوزع بعدل على الأمة الإسلامية ، الأقرب فالأقرب .

ولو فعل حكامنا اليوم ما فعل عمر بن الخطاب لما رأينا فقيراً أو شاكياً في العالم الإسلامي كله . لما رأينا باكية من الجوع ، ولا مَن تحرم أولادها الطعام لقلة ، ولما رأينا ثكلى محرومة أبداً . لو فعلوا ذلك لرأينا العالم الإسلامي كله بخير ، وسرور ، وسعادة .

خبر بناء الكوفة والبصرة

في عهد عمر رضي الله عنه كذلك مُصّرَت الأمصار ، وبُنيت الكوفة والبصرة[1] ، وانتقل المسلمون من المدائن إلى الكوفة .

وكان سبب ذلك أن سعد بن أبي وقاص أرسل إلى عمر بما فتح الله عليه ، فلما رأى عمر الوفد سألهم عن تغير ألوانهم وحالهم ، فقالوا : وُخومة البلاد غيّرتنا ، فأمرهم أن يرتادوا منزلاً ينزله الناس .

١- البصرة في اللغة هي الحجارة السوداء الهشة المثقبة ، والكوفة كل رملة وحصباء مختلطين .

وقيل : بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر بن الخطاب : إن العرب قد نزفت بطونها ، وخفت أعضاؤها ، وتغيّرت ألوانها . وكان يومها حذيفة مع سعد بن أبي وقاص في بلاد العراق .

فكتب يومها عمر إلى سعد : أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم ؟ فكتب إليه : إن الذي غيّرهم وُخومة البلاد ، وأن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان . فكتب إليه عمر : أن ابعث حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ، ليس بيني وبينكم بحر ولا جسر . وأرسلهما سعد بن أبي وقاص .

فخرج سلمان حتى أتى الأنبار ، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة . وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة . فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة : دير حرقة ، ودير أم عمرو ، ودير سلسلة ، وخصاص خلال ذلك – وفي رواية : وخلال ذلك – . فأعجبتهما البقعة ، فنزلا وصلّيا ودعوَا الله تعالى أن يجعلها منزلاً مباركاً .

فلما رجعا إلى سعد بالخبر ، وقَدِم كتاب عمر أيضاً عليه ، كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبدالله بن المعتمر أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده ، ففعلا .

فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة . فلما نزلها كتب إلى عمر : إني قد نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات ، برياً بحرياً ، يُنبِتُ الحَلفاء والنَّصِيّ[1] ، وخيّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن ، فمن أعجبه المقام

١- هو نبت أبيض ناعم .

في المدائن تركنه فيها كالمسلحة . ولما استقروا بها عرفوا أنفسهم ، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم .

واستأذن أهل الكوفة في بنيان القصب ، واستأذن فيه كذلك أهل البصرة ، فاستقر منزلهم فيها في الشهر الذي نزل أهل الكوفة بعد ثلاث نزلات فيها قبلها . فكتب إليهم عمر : إن العسكرة أشد لحربكم وأذكر لكم ، وما أحب أن أخالفكم . فابتنى أهل المصرين بالقصب .

ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة ، وكانت الكوفة أشد حريقاً ، وذلك في شوال من تلك السنة . فبعث سعد بن أبي وقاص نفراً منهم إلى عمر يستأذنه بالبنيان باللبن .

فقدموا عليه بخبر الحريق ، واستأذنوه فقال : افعلوا ، ولا يزيد بناء أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا بالبنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة .

فرجع القوم إلى الكوفة بذلك ، وكتب عمر إلى أهل البصرة بمثله . وكان على تنزيل الكوفة أبو هيّاج بن مالك ، وعلى تنزيل البصرة عاصم بن الدلس أبو الجرباء .

وهناك تفصيل طويل في هذا المجال ، يستطيع القارئ أن يرجع في ذلك إلى ابن الأثير في تاريخه ، والطبري ، والنويري إذا أراد .

بناء المسجد الحرام

وفي شهر رجب سنة سبع عشرة اعتمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستخلف يومها على المدينة زيد بن ثابت .

فأقام بمكة عشرين ليلة ، وبنى المسجد الحرام ووسّع فيه ، وهدم على أقوام أبوا أن يبيعوا ، ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها .

ذكر خبر عام الرمادة

لقد وقع عام الرمادة في سنة ثماني عشرة ، وكان عام قحط على الجزيرة العربية ، تأتي الريح بالتراب كالرماد الناعم .

فجاعت الرعية ، فأرسل يومها عمر إلى أبي عبيدة في بلاد الشام ، فأرسل له أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام . كما أرسل عمر إلى عمرو بن العاص ، فأجابه : يا عمر ، لأرسلن إليك قافلة أولها في المدينة وآخرها في مصر .

وما أكل سيدنا عمر رضي الله عنه عامئذ سمناً ولا سميناً حتى أحيى الناس ، إنما كان أكله الزيت .

روى البيهقي في سننه عن السائب بن يزيد يقول : لما كانت الرمادة أصاب الناسُ جوعاً شديداً . فلما كان ذات يوم ، ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه دابة له فرأى في روثها شعيراً ، فقال : والله لا أركبها حتى يحسن حال الناس .

وروى أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه قال : تقرقر بطن عمر وكان يأكل الزيت عام الرمادة ، وكان قد حرّم على نفسه السمن . فنقر بطنه بإصبعه وقال : تقرقر أو ما تقرقر ، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس .

ثم استسقى عمر بالعباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ . وذلك أن أهل بيت مِن مُزَينة قالوا لصاحبهم وهو بلال بن الحارث : قد هلكنا فاذبح لنا شاة ، فقال : ليس فيهن شيء . فلم يزالوا به حتى ذبح ، فسلخ عن عظم أحمر ، فنادى : يا محمد . فأُريَ في المنام أن رسول الله ﷺ أتاه فقال : أبشر بالحِياة[1] ، ائت عمر

١- هو المطر .

فأقرئه السلام مني وقل له : إني عهدتك وأنت في العهد شديد العقد ، فالكيّس الكيّس يا عمر .

فجاء بلال حتى أتى باب عمر ، فقال لغلامه : استأذن لرسول اللهﷺ . فأتى عمرَ فأخبره ، ففزع وقال : رأيتَ مسّاً ؟ قال : لا ، قال : فأدخِله . فأدخَله ، فأخبره الخبر .

فخرج عمر فنادى في الناس ، وصعد المنبر وقال : نشدتكم الله الذي هداكم للإسلام هل رأيتم شيئاً تكرهون ؟ قالوا : اللهم لا ، ولِمَ ذاك ؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر ، فقالوا : إنما استبطأناك في الاستسقاء ، فاستسق بنا .

فخرج عمر ومعه العباس ماشياً ، فخطب عمر فأوجز ، فصلى ثم جثا على ركبتيه وقال : اللهم عجزت عنا أنصارنا ، وعجز عنا حولنا وقوتنا ، وعجزت عنا أنفسنا ، ولا حول ولا قوة إلا بك . اللهم فاسقنا ، وأحي العباد والبلاد . وأخذ بيد العباس وإن دموع العباس تتحادر على لحيته ، فقال عمر : إنا نتقرب إليك بعم نبيك ، وبقية آبائه ، وأكبر رجاله ، فإنك تقول وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾[1] ، فحفظتهما بصلاح أبيهما . فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، فقد دنونا إليك مستشفعين ومستغفرين .

ثم أقبل على الناس فقال : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . والعباس يقول وعيناه تذرفان ، ولحيته تجول على صدره : اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضال ، ولا تدع الكبير بدار مَضِيعة ، فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت

١- الآية (٨٢) من سورة الكهف .

الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى . اللهم فأغنيهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا ييأس إلا القوم الكافرون .

فنشأت طُرَيدة من سحاب ، فقال الناس : ترون ، ترون ؟ ثم مشت فيها ريح ، ثم هدرت ودرّت ، ووالله ما برحوا حتى اعْتَلَقوا الحذاء ، وقلّصوا المآزر . فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون : هنيئاً لك ساقي الحرمين .

وقال الفضيل بن الفضل بن العباس بن عتبة في ذلك :

بعمي ساق الله الحجاز وأهله ... عشية يستسقي بشيبته عمر
توجه بالعباس في الجدب راغباً ... إليه فما إنْ رام حتى أتى المطر
ومنا رسول الله فينا تراثه ... فهل فوق هذا للمفاخر مفتخر

خبر طاعون عمواس

وفي عام ثمانية عشر كذلك كان طاعون عمواس[1] بالشام ، ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً من المسلمين : كأبي عبيدة عامر بن الجراح[2] ، ومعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي الجشمي[3] ، ويزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية ،

١- عمواس هي قرية بين الرملة وبيت المقدس .

٢- هو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهو أمين الأمة لقولهﷺ : (لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح) رواه البخاري بإسناد صحيح عن أنسرضي الله عنه . وكانت سنه يوم توفي ثمان وخمسين ، وكانت وفاته بغور الأردن . وقد صلى عليه معاذ بن جبل ، ونزل في قبره هو وعمرو بن العاص ، وقبره معروف الآن قد زرته بفضل الله غير مرة .

٣- هو الذي قال النبيﷺ بحقه : (أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجة وغيرهم. وقال بحقه عمر بن الخطاب : (عجزت النساء أن تلد مثل معاذ بن جبل ، ولولا معاذ لهلك عمر) أخرجه ابن حجر في التهذيب .

والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وسهيل بن عمرو بن عبدشمس القرشي ، وغيرهم من علماء الصحابة ﷺ .

فكان المسلمون منشغلين فقط بالحفر والدفن من كثرة القتلى ، ثم رفعه الله ﷻ عن الناس .

خبر قدوم عمر بن الخطاب إلى الشام

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى : لما هلك الناس بالطاعون ، كتب أمراء الأجناد إلى عمر بما في أيديهم من المواريث . فجمع الناس واستشارهم ، وقال لهم : قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم ، فأشيروا عليّ . وكان أراد أن يبدأ بالعراق ، فصرف كعب الأحبار رأيه عن ذلك . فخرج إلى الشام ، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب ، وجعل طريقه إلى أيلة .

فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مَركبه . فلما تلقاه الناس قالوا : أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم – وعنى نفسه – . فساروا أمامه وانتهى هو إلى أيلة فنزلها ، وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين ، فرجعوا .

وأعطى عمر الأسقف بها قميصه وقد تخرّق ظهره ليغسله ويرقعه ففعل ، وأخذه عمر ولبسه ، وخاط له الأسقف قميصاً غيره فلم يأخذه .

فلما قدم عمر إلى الشام ، قسّم فيها الأرزاق ، وسمّى الشواتي والصوائف ، وسدّ فروج الشام ومسالحها ، وأخذ يدور بها . واستعمل عبيدالله بن قيس على

السواحل من كل كورة ، واستعمل معاوية على دمشق وخراجها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان .

ولما قدم عمر رضي الله عنه تلقاه معاوية في موكب عظيم ، فلما رآه عمر قال : هذا كسرى العرب . فلما دنا منه قال : أنت صاحب الموكب العظيم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : مع ما يبلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : مع ما يبلغك من ذلك . قال : ولِمَ تفعل هذا ؟ قال : نحن بأرض جواسيسُ العدو بها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عزة السلطان ما يُرهبهم ، فإن أمرتني فعلتُ وإن نهيتني انتهيتُ . فقال عمر : يا معاوية ، ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب[1] الفرس ، لئن كان ما قلتَ حقاً إنه لرأي لبيب ، وإن كان باطلاً إنها لخدعة أريب . قال : فمُرني يا أمير المؤمنين ، قال : لا آمرك ولا أنهاك . قال عمرو ابن العاص : يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه ! قال : لِحُسْنِ مصادره وموارده جَشَّمَنا ما جَشَّمَنا .

واستعمل عمر رضي الله عنه عمرو بن عنبسة على الأهواز ، وقسّم عمر مواريث أهل عمواس ، فورث بعض الوارثة من بعض ، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم .

قال ابن الأثير : ولما كان عمر بالشام وحضرت الصلاة ، قال له الناس : لو أمرتَ بلالاً فأذن ، فأمره فأذن ، فما بقي أحد ممن أدرك النبي ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلَّ لحيته وعمر أشد بكاء ، وبكى مَن لم يدركه لبكائهم .

ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة من السنة الثامن عشرة من الهجرة الشريفة ، وحجّ عمر بالناس في هذه السنة .

١- الرواجب هي مفاصل أصول الأصابع .

إخراج اليهود من جزيرة العرب

وفي سنة عشرين من الهجرة الشريفة أجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر.

وذلك أن رسول الله ﷺ لما فتح الله عليه خيبر ، دعا أهلها فقال لهم : إن شئتم دفعتُ إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، وأقركم على ما أقرّه الله عز وجل . فقبلوا ذلك ، واشترط عليهم : أنا متى شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

فلما قبض رسول الله ﷺ ، أقرّهم أبو بكر على ما أقرّهم عليه رسول الله ﷺ ، وأقرّهم عمر بعده إلى هذه السنة .

ثم بلغه أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه : لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، ففحص عن ذلك حتى أتاه الثبت ، فأرسل إلى يهودٍ فقال : إن الله قد أذن لي في إجلائكم ، وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال : لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه له ، ومَن لم يكن عنده عهد فليتجهّز للجلاء . فأجلى مَن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ .

ويذكر كذلك في سبب إجلاء عمر لليهود ما قاله ابن إسحاق : حدّثني نافع مولى عبدالله بن عمر عن عبدالله بن عمر قال : خرجتُ أنا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعهّدها ، فلما قدمنا تفرّقنا في أموالنا . قال عبدالله : فعدا عليّ تحت الليل شيء وأنا نائم على فراشي ، فنُزِعْتُ يداي مِن مَرْفَقَيْ . فلما أصبحت استصرختُ عليّ صاحباي ، فأتياني فسألاني :

مَن صنع بك هذا ؟ فقلت : لا أدري . فأصلحاني ثم قدما بي على عمر ، فقلت : هذا عمل اليهود .

ثم قام عمر في الناس خطيباً فقال : أيها الناس ، إن رسول اللهﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبدالله بن عمر فقدعوا يديه كما بلغكم مع عدوتهم على الأنصار قبله . لا نشك أنهم أصحابه ، ليس هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مخرج اليهود ، فأخرجهم .

قال ابن الأثير : وركب عمر في المهاجرين والأنصار ، وأخرج معه جبار بن صخر بن أمية – وكان خارص[1] أهل المدينة وحاسبهم – وزيد بن ثابت . وهما قسّما خيبر على أهلها على أصل جماعة السُّهْمان التي كانت عليها .

وفي سنة عشرين كذلك من الهجرة ، أجلى عمر بن الخطابرضي الله عنه نصارى نجران إلى الكوفة .

ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب

كان عمررضي الله عنه دائماً يقول : « اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل منيتي في بلد رسولك »[2] ، وقد استجاب لهعز وجل .

يروى عن حذيفة بن اليمان قال : قال عمر : أيكم يحفظ ما قال رسول

١- الخارص هو الذي يقطع النخل ، ويُقدِّرُ ما عليها من ثمار .
٢- رواه البخاري .

اللهﷺ في الفتنة ؟ قال حذيفة : أنا . قال : فتنة الرجل في أهله ، وماله ، وولده ، وجاره . يكفرها الصلاة ، والصوم ، والصدقة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فقال عمر : لست عن هذا أسألك ، ولكن عن الفتنة التي تموج كموج البحر . قال : يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال عمر وقد عرف من هو الباب : أيفتح أم يكسر ؟ قال : بل يكسر ، قال : إذاً لا يغلق إلى يوم القيامة . فسئل حذيفة عن الباب فقال : عمر[1] . وكان حذيفة يعني قتل عمر ، وهذا الذي كان .

وسبب ذلك أن عمر كان قد منع دخول المدينة لكل إنسان غير مسلم حتى العبيد ، ولكن المغيرة بن شعبة أمير البصرة أرسل إليه من بلاد العراق : يا أمير المؤمنين ، عندي غلام يحسن الصنعات وأنتم بحاجة لمثله . فسكت عمر ، فجاء هذا الغلام المدينة ومكث بها يعمل ، وكان يعطي خراجاً لسيده المغيرة . وهذا الغلام هو أبو لؤلؤة فيروز المجوسي ، وقيل : كان نصرانياً .

وكان أن خرج عمر يوماً يطوف في الأسواق ، فلقيه أبو لؤلؤة وقال له : يا أمير المؤمنين ، أعنّي على المغيرة بن شعبة فإنه يكلفني خراجاً كثيراً . قال عمر : كم يحملك ؟ قال : أدفع مائة درهم في الشهر . قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، ونقاش ، وحداد ، وغير ذلك . قال عمر : فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال ، وقد بلغني أنك تقول : لو أردتُ أن أصنع رَحى تطحن على الريح

١- حديث صحيح رواه الترمذي في سننه ، والطبراني في الأوسط .

لفعلتُ ذلك . فالتفت أبو لؤلؤة إلى عمر وقال : إنْ سلمتُ لأعملن لك رَحى يتحدث بها أهل المشرق والمغرب ، فالتفت عمر إلى قومه وقال : قد أوعدني العِلْجُ الآن ، ثم انصرف إلى منزله .

فلما كان الغد جاء كعب الأحبار إلى عمر ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، أعهد أنك ميت في ثلاث . فقال عمر : وما يدريك ؟ قال : أجده في كتاب التوراة ، قال عمر : إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك .

ثم جاءه من الغد وقال : بقي يومان ، وعمر لا يجد مرضاً ولا وجعاً .

ثم جاءه بعد الغد وقال : بقي يوم واحد .

فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة ، خرج عمر إلى صلاة الصبح . وكان أبو لؤلؤة قد دخل في الناس في دلس الصبح ، وفي يده خنجر قد طعّمه بالسم ، وجعل له شطرتين ونصاباً في وسطه ، بحيث إذا أصاب أي جرح سرى السم فيه .

فدخل عمر المسجد ليوقظ أهل الصفة إلى الصلاة ، وصفّ الصفوف ، فجاء أبو لؤلؤة وضرب عمر ست ضربات في كتفه ، وثلاث ضربات تحت سرته ، وهي التي مزقت أمعاءه وكانت سبب قتله . فقال عمر : قتلني الكلب ، وسقط على الأرض وسال دمه .

وقد طعن كذلك أبو لؤلؤة مع عمر اثني عشر رجلاً من المسلمين ، مات منهم ستة .

وعندما أراد أبو لؤلؤة أن يفر ، جاءه رجل عراقي من خلفه وألقى عليه برنساً ثم انكب عليه ، فعندما وجد نفسه قد حُصِرَ قتل نفسه .

ثم أمر عمر عبدالرحمن بن عوف أن يصلي بالناس بعد أن صار لغط شديد ، فقرأ يومها عبدالرحمن بركعتين خفيفتين بسورتين صغيرتين: ﴿ إِنَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، و ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

ثم احتمل عمر رضي الله عنه وأدخل بيته ، ودعا بعد ذلك عبدالرحمن بن عوف وقال له : إني أريد أن أعهد إليك ، قال : أتشير عليّ بذلك ؟ قال عمر : لا ، فقال : عافني منها – وفي رواية قال : والله لا أدخل فيه أبداً – . فقال عمر : فهبني صمتاً ، لا تخبرن أحداً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض .

ثم دعا عمر علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وقال : انظروا أخاكم طلحة ثلاثاً – حيث لم يكن في المدينة يومها – . ثم قال لهم : جعلت الإمارة فيكم ، تجلسون وتنتخبون أميراً منكم ، وإذا كان عدد المنتخبين متساوياً فليكن الأمير مع الجهة التي يكون بها عبدالرحمن ابن عوف ، وليكن ولدي معكم ، لا عن طريق الإمارة إنما عن طريق التعزية . ثم قال : أنشدك الله يا علي ، إن وُلّيتَ من أمور المسلمين شيئاً ألا تحمل بني هاشم على رقاب الناس . ثم قال : أنشدك الله يا عثمان إن وُلّيتَ من أمور الناس شيئاً ألا تحمل بني أمية على رقاب الناس . ثم قال : أنشدك الله يا سعد ، إن وُلّيتَ من أمور الناس شيئاً ألا تحمل أقاربك على الناس . ثم قال : قوموا فتشاوروا ،

وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً ، فإن جاء وإلا فأفضوا أمركم ، وليصلِّ بالناس حتى يُنتخب الأمير صهيب الرومي .

ثم أرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري يقول له : أحضر معك سبعين رجلاً من أنصار الله والرسول ، وقف على باب هؤلاء وانتظرهم ثلاثاً ، ولا تدع أحداً يدخل إليهم ، فإذا لم ينتخبوا أميراً فاضرب هامة كل واحد منهم .

ثم قال لابنه عبدالله : انظر مَن قتلني ، فقال له : قتلك أبو لؤلؤة المجوسي ، فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل سجد لله سجدة واحدة ، فهو لا يريد أن يتعذب إنسان مسلم في النار بسببه .

وكان دائماً يقول : « اللهم لا تجعل قتلي على يدي عبد قد سجد لك يحاجني بها يوم القيامة »[1] .

ثم قال عمر لابنه : يا عبدالله ، إن اختلف القوم فكن مع الأكثر ، فإن تساووا فكن مع الحزب الذي فيه عبدالرحمن بن عوف .

ثم أرسله إلى السيدة عائشة ، واستأذنها أن يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر ، فقال له : قل لها : السلام عليك يا أم المؤمنين ، عمر بن الخطاب يستأذن أن يدفن قرب صاحبيه ، ولا تقل : أمير المؤمنين فقد تخشى وتستحي . فقالت : والله لقد تركتُ هذا المكان لنفسي ، ولأوثرن اليوم عمر عليَّ .

فيرجع يومها عبدالله ويقول لعمر : لقد أذنت يا أمير المؤمنين . فيقول له عمر : إذا حملتموني فضعوني على الباب ، لعل أم المؤمنين قد استحيت الآن مني ، ثم قولوا : إن عمر يستأذن بالدفن بقرب صاحبيه ، فإن أذنت مرة ثانية فافعلوا ، وإلا فأُدفن مع باقي المسلمين في البقيع .

١- رواه أبو نعيم في الحلية .

وفي دلائل موت عمر أخرج الحاكم ما نصه : وقبل أن يموت بأيام رقى عمر المنبر ، وخطب الناس فقال : رأيت كأن ديكاً نقرني نقرة أو نقرتين ، وإني لا أراه إلا حضور أجلي . وإن قوماً يأمرونني أن أستخلف ، وإنَّ الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته . فإن عجّل بي أمراً فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول اللهﷺ وهو راض عنهم . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، ألا تستخلف عبدالله ابن عمر ؟ قال : قاتلك الله ، والله إنك ما أردتَ وجه الله بهذه الكلمة ، أستخلف رجلاً لم يحسن أن يطلق امرأته !

ثم أوصى الخليفة من بعده بالأنصار خيراً فقال : أوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ، وأن يحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . أوصى بما أوصى به رسول اللهﷺ وجرحه لا زال يسيل دماً ، ثم قال : وأوصي الخليفة من بعدي بالعرب فإنهم مادة الإسلام ، وأن توخذ منهم صدقاتهم فتوضع في فقرائهم . وأوصي الخليفة بذمة رسول اللهﷺ أن يكون عادلاً ، ويكرم أهل البيت لأنهم النطفة الطاهرة . ثم يقول عمر : اللهم هل بلّغتُ ؟ اللهم فاشهد ، لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة .

وعندما كان عمر في نزاعه الأخير أذن أن يدخل عليه الناس ، فدخل الصحابة الأنصار والمهاجرون ، ودخل كعب الأحبار . فلما رآه عمر قال :

وواعدني كعب ثلاثاً أعدها ... وما بي حذار الموت إني لمَيّت
ولا شك أنَّ القول ما قاله كعب ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عثمان بن عفانﷺ قال : أنا آخركم عهداً بعمر . دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبدالله بن عمر ، فقال له : ضع خدي

بالأرض ، قال : فهل فخذي والأرض إلا سواء ؟ قال : ضع خدي بالأرض ، لا أم لك في الثانية أو في الثالثة . ثم شبك بين رجليه ، فسمعته يقول : (ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي) حتى فاضت نفسه .

وأغمض عمر رضي الله عنه عينيه راضياً مرضياً ، وقد أرضى الله عز وجل في حكمه .

وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين من الهجرة الشريفة ، عن عمر قدره ثلاث وستون سنة . وقد دامت خلافته عشر سنين ونصفاً وخمس ليال .

وقد غُسّل رضي الله عنه وكُفّن وصُلّي عليه ، ووُضع على باب حجرة السيدة عائشة ، واستؤذنت فأذنت ، فدفن يوم الأحد بجانب أبي بكر الصديق كما هو عليه الآن ، حيث لم يمت مباشرة بعد طعنه .

وفي الحقيقة يوم موت عمر بكت السماء وبكت الأرض ، وأظلمت الدنيا تماماً .

روى الخطيب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما قتل عمر رضي الله عنه جاء غلام يعدو إلى أمه فقال : يا أماه لقد أظلمت الأرض ، أقامت القيامة ؟ فتقول : لا يا بني ، ولكن قُتل أمير المؤمنين .

ونحن نذكر ذلك ونذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم :« إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما من آيات الله يخوف الله بهما عباده ، فإذا رأيتم كسوفاً فاذكروا الله حتى ينجليا »[1] .

١- أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين ، والنسائي وأبو داود في سننهما ، وابن ماجة ، وأحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير . وكذلك ابن حبان ، والبيهقي ، والبزار ، وغيرهم .

وذكرت عائشة رضي الله عنها أن الجن ناحت على عمر وقبل أن يقتل بثلاث ، وكانت تنعيه فتقول :

أبَعْـدَ قتيـل بالمدينـة أظلمـت ... لـه الأرض تهتـز العِضـاهُ بأسْـوُق
جزى الله خيراً مِن إمام وباركت ... يـدُ الله فـي ذاك الأديـم المُمَـزَّق
فمن يَسْعَ أو يَركبْ جناحَيْ نعامة ... لِيُـدْرِكَ مـا قـدَّمْتَ بـالأمس يُسْـبَق
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها ... بَوائِـقَ مِـن أكمامهـا لـم تفَتَـق
ومـا كنـتُ أخشـى أن تكـون وفاتـه ... كفِّ سَبَنتى[1] أزرق العين مُطرق

وأخرج أبو نعيم في الحلية أنَّ بعد موت عمر باثني عشر عاماً يقول ولده عبدالله : ما كان شيء أحب إلي أن أعلمه من أمر عمر ، فرأيت في المنام قصراً فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب . فخرج مِن القصر عليه ملحفة كأنه قد اغتسل ، فقلت : كيف صنعتَ ؟ قال : خيراً ، كاد عرشي يهوي بي لولا أني لقيت رباً غفوراً . فقال : منذ كم فارقتكم ؟ فقلت : منذ اثنتي عشرة سنة ، فقال : إنما انفلت الآن مِن الحساب .

فماذا يقول اليوم حكام المسلمين في زماننا ؟ !

نعم ، لقد بكى الإسلام على موت عمر ولا زال يبكي ، وكما روى أبي بن كعب عن رسول اللهﷺ قال : « قال لي جبريل : ليبكِ الإسلام على موت عمر »[2] .

فالفاروق كان رحمة بعد صاحبيه ، ومهما تكلمنا عنه فهو أكثر من كلامنا .

١- السبنتى هو النمر .
٢- رواه الطبراني .

وهذه السيرة قد رواها علماؤنا مطولة في البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأبي داود ، وابن عساكر ، وفي غير ذلك من الأصول التي وردت في هذا المجال . كما رواها الواقدي ، وعدد كبير من السلف الصالح : كصاحب حجة الأولياء ، والطبراني في تاريخه ، وابن الأثير في تاريخه ، وغيرهم . وقد جمعت لكم خلاصة ذلك ووضعته بين أيديكم .

وليت شعري هل تلد الأمهات مثل عمر في زماننا فيحكم بحكم الله ؟ !

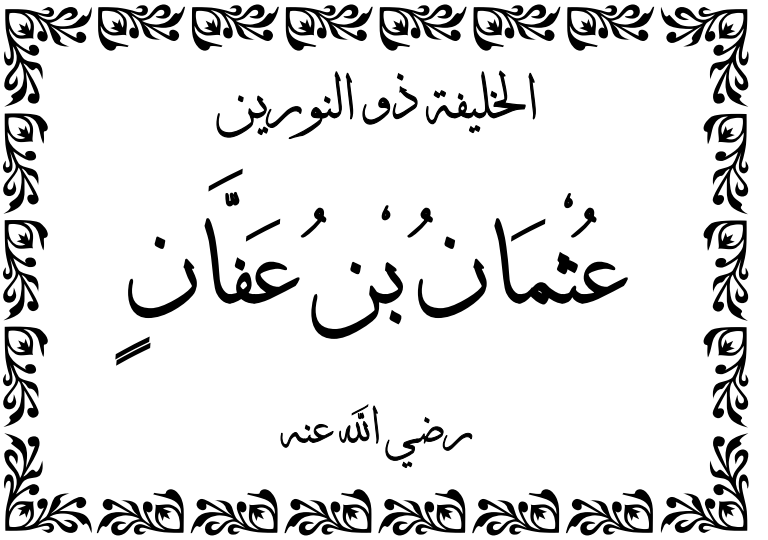

قال رسول الله ﷺ :

﴿ عثمان بن عفان وليي في الدنيا ووليي في الآخرة ﴾

نسبه ومولده

هو عثمان بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف ، وهنا يجتمع نسبه مع سيدنا رسول اللهﷺ ، فهو يعتبر من أبناء عم النبي عليه الصلاة والسلام .

أمه اسمها أروى ، وكذلك يلتقي نسبها إلى عبدشمس بن عبدمناف . وأمها البيضاء أم حكيم عمة النبيﷺ ؛ لهذا يقال : عثمان ابن عمة رسول اللهﷺ .

أما كنيته فالمعتمد بأنه أبو عبدالله ، وقيل : له كنية أخرى فهو أبو عمرو ، وقيل : أبو ليلى ببنت جاءته ثم ماتت .

وقد ولدرضي الله عنه في السنة السادسة بعد عام الفيل .

صفاته الذاتية

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « إنا نشبه عثمان بأبينا إبراهيمعليه السلام »[1] .

فقد كانرضي الله عنه طويل القامة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كبير اللحية ، كثير الشعر ، عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين .

وكانرضي الله عنه يُصَفّرُ لحيته بآخر أمره ، فيصبغها بالحناء والكتم ، كما كان يفعل أبو بكر وعمر وغيرهما من الصحابة .

ويروى بأنه لما كبرت سن عثمان وجاوز الثمانين من عمره ، شدّ أسنانه بالذهب[2] .

١- رواه الديلمي ، وابن حجر ، وابن عدي ، والذهبي .

٢- ومن هنا حكمنا بجواز تلبيس الأسنان بالذهب للضرورة ؛ لأنه صافي المعدن لا يخرج منه الأذى والصدأ . كما يجوز له أن يتخذ أنملة من ذهب أو أنفاً لو كان قد قطع . وكذلك إذا كسرت رجله أو يده يجوز له أن يضع داخل العظم أو اللحم صلباً من الذهب ، ولكن يضعون معه معدناً آخر ليصلب ، فالذهب وحده عنصر لين .

زوجاته وأولاده

تزوج سيدنا عثمان في حياته ثمانية :

١- رقية بنت رسول اللهﷺ .

٢- أم كلثوم بنت رسول اللهﷺ : وقد تزوّج منها بعد وفاة أختها رقية .

٣- فاختة بنت غزوان : وولدت له عبدالله ، ورقية ، وعبدالله الأصغر .

٤- أم عمرو بنت جندب الدوسية .

٥- فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية .

٦- أم البنين : وولدت له عبدالملك الذي مات صغيراً .

٧- رملة بنت شيبة بن ربيعة .

٨- نائلة بنت الفرافصة الكلبية : وقد تزوّجهارضي الله عنه في سنة ثمان وعشرين من الهجرة النبوية ، وكانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها .

إسلامه وهجرته

عثمان بن عفان هو أحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ، ومنذ إسلامه ما تحوّل وجهه لغير الإسلام أبداً ، مع أن قبيلته وعشيرته كانت قاسية معه للغاية ، وهو لطيف للغاية .

دخل الإيمان في قلبه وكان أرسخ من الجبال الراسخة ، وبايعﷺ النبي بيعة صحيحة على الإسلام . ضرب ، وأهين ، ومُنع ، وأخذوا كثيراً من أمواله ، وهو يتحمل الأذى الشديد من أقرب الناس إليه . فتحمّلهم لفترات وهم يجبرونه

على الخروج عن الإسلام ، فلم يجد بُداً أن أخذ الإذن من رسول اللهﷺ وهاجر إلى الحبشة فراراً بدينه ، وليعبد الله بحرية وصدق .

يقول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط »[1] .

جلس عثمان في الحبشة فترة طويلة ، صابراً على مرارة ترك الوطن والأهل ، وعلى مرارة ترك رسول اللهﷺ ، هو ومَن تبعه من المهاجرين الأُوَل . وهناك خرجت دعاية بأن قريشاً اتفقت مع النبيﷺ ، فعاد عثمان إلى مكة فرأى الأمر على خلاف ذلك ، فرجع إلى الحبشة مهاجراً إلى الله والرسول .

وقد هاجرت معه الهجرة الأولى بنت رسول اللهﷺ السيدة رقية ، وبقيت معه في الحبشة حتى عاد من هجرته .

ثم هاجر إلى المدينة كذلك إلى النبيﷺ ، وكان بعد ذلك دائماً معه ملازماً لهﷺ .

نبذة حول مناقب عثمان وفضائله

❋ هو الذي كان مرضياً عنه من قبل النبيﷺ ، وقد بشره بالجنة أكثر مِن مرة وقال بحقه : « لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان »[2] .

❋ وعن جابر بن عبد اللهرضي الله عنه قال : « بينما نحن في بيت ابن حشفة في نفر من المهاجرين فيهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم . فقال رسول اللهﷺ : لينهض

١- رواه الطبراني .
٢- رواه الترمذي .

كل رجل منكم إلى كفئه ، فنهض النبيﷺ إلى عثمان فاعتنقه ، وقال : أنت وليي في الدنيا والآخرة »[١] .

❊ وورد عن ابن عباس عن النبيﷺ أنه قال : « إن اللهﷻ أوحى إلي أن أزوج كريمتي من عثمان »[٢] .

وهذه ما حصلت لأحد منذ عهد النبوة الأولى وإلى عهد نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، أن يُزوج نبي بنتين من بناته لرجل من أصحابه ، إنما حظي بها سيدنا عثمان ؛ ولهذا لقب بذي النورين .

فقد تزوجرضي الله عنه من السيدة رقية بنت رسول اللهﷺ ، وتوفيت يوم أن انتصر المسلمون في بدر . فلما جاء النبيﷺ ومضت مدة ، زوّجه من ابنته أم كلثوم بأمر من السماء ، وماتت كذلك عنده .

وورد عن عثمانرضي الله عنه أنه قال : « قال لي رسول اللهﷺ حين زوّجني ابنته الأخرى : لو أنَّ عندي عشراً لزوجتكهن واحدة بعد واحدة ، فإني عنك راض »[٣] .

وعن عصمة قال : « لما ماتت بنت رسول اللهﷺ التي تحت عثمان ، قال رسول اللهﷺ : زوّجوا عثمان ، لو كانت عندي ثالثة لزوّجته ، وما زوّجته إلا بوحي من اللهﷻ »[٤] .

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال : « ليدخلن بشفاعة عثمان

١- حديث صحيح الإسناد ، أخرجه الحاكم وأبو يعلى .
٢- رواه الطبراني في الصغير والأوسط .
٣- رواه الطبراني في الأوسط .
٤- رواه الطبراني .

سبعون ألفاً كلهم قد استوجبوا النار – أي دخلوها – الجنةَ بغير حساب ولا عقاب »[1] .

وهذا الحديث فيه فخر عظيم لسيدنا عثمانﷺ .

❊ وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً عن النبيﷺ قال : « إن الملائكة لتستحي من عثمان »[2] .

❊وعثمانﷺ هو الذي جاد بنفسه وماله في سبيل الله ، ولم يفارق النبيﷺ في غزواته . غير أنه تغيّب في موضعين :

الأول في معركة بدر الكبرى ليمرض زوجته رقية ، وكان ذلك بأمر من النبي عليه الصلاة والسلام . فجلس مع زوجه حتى ماتت منفذاً أمر رسول اللهﷺ ، لهذا جعله النبي من أهل بدر ، وقسم له في الغنيمة .

وتغيّب كذلك عن بيعة الحديبية ، إنما تغيبه كان شرفاً له حيث وقعت البيعة من أجلهﷺ .

فقد أرسله النبيﷺ رسولاً إلى قريش في السنة السادسة ، يخبرهم أنه أتى مكة ليعتمر ويعظم البيت ، ولم يأت مقاتلاً أو منابذاً . وكان قد أرسل قبله عدداً فلم يُستقبلوا ، وأراد أن يرسل عمر فقال عمر : يا رسول الله ، ترسلني إلى قريش ؟ أنت تعلم عداوتي لهم وعداوتهم لي ، لو ذهبتُ إليهم لقاتلتهم ولقاتلوني حتى الموت ، أرسل عثمان .

١- رواه ابن عساكر في ترجمة عثمان ، وأقرّه عليه الذهبي في اختصاره لتاريخه .
٢- أخرجه الذهبي من رواية أبي معشر البراء عن إبراهيم بن عمر عن أبيه عن جده ، وقال البخاري : في حديثه نظر .

فأرسل النبيﷺ عثمان لمكانته عندهم حيث كان رجلاً محبوباً ، فبلّغ رسالة النبيﷺ ثم حوصر ومُنع من العودة ، وقالوا له : نأذن لك أن تطوف حول الكعبة ، فقال عثمان : أعثمان بن عفان يطوف حول الكعبة ويعتمر قبل رسول الله ؟ فلا والله ما فعلتُ ذلك .

وأذاع إبليس أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان ، ويقف النبيﷺ تحت شجرة سمرة ويبايع الصحابة على الموت ، وهناك مَن أخذ بغصن من أغصانها ورفعه عن رأس رسول اللهﷺ حتى لا يتأذى . ويأتي القوم كلهم يبايعون ، ويأخذ النبيﷺ يده اليمنى ويضعها فوق يده اليسرى ، ويقول : هذه يدي أبايع بها عن عثمان بن عفان . فكانت بيعة عثمان أفضل من بيعة أي إنسان سواه يوم الحديبية .

وأما مَن يقول بأنه من الفارّين يوم هوازن ويوم حنين ، فإن الله قد غفر لهم ، وهو واحد من المغفور لهم .

* وكانرضي الله عنه دائماً يتسابق في مجال الخير ، وقد وفّقه الله تعالى للإنفاق على رسول اللهﷺ وعلى جيشه في شتى وفي كل المجالات .

- فهو الذي اشترى بئر رومة من ماله الخاص ، وكانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها بالمال الكثير . فقال رسول اللهﷺ : مَن يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين ، ويضرب بدلوه في دلائهم ، وله بها مشرب في الجنة ؟

فأتى عثمان اليهودي فساومه بها ، فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فقال له عثمان : إن شئتَ

جعلتَ على نصيبي يومين ، وإن شئتَ علي يوم ولك يوم . قال : لا ، بل لك يوم ولي يوم . فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فإذا جاء يوم اليهودي كانوا قد أخذوا كفايتهم من الماء . فصبر اليهودي فترة ثم قال لعثمان : أفسدتَ عليّ ركيتي ، فاشترى عثمان النصف الآخر بثمانية آلاف درهم .

وبذلك أصبحت بئر رومة كلها للمسلمين ، دلو عثمان كدلو أحدهم تماماً ، وبذلك ضمن له النبيﷺ الجنة .

- وكذلك له فضل بتوسيع المسجد النبوي . فقد روي عن رسول اللهﷺ قال : مَن يزيد في مسجدنا وله بيت في الجنة ؟ حيث كان المسجد سبعين ذراعاً بسبعين ذراعاً ، وقيل : كان مائة بمائة . فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده في المجلس ، وصار بعد ذلك ستاً وثلاثين ومائة في خمسين ومائة ذراع على أحد الأقوال ، وهذه هي حدود المسجد الأصلي الذي الصلاة فيه بألف صلاة من حيث الأجر .

- كما أنه قام وجهّز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً ، وأتمّ الألف بخمسين فرساً بأحمالها ، وأحلاسها ، وأقتابها .

وجيش العسرة كان في غزاة تبوك ، فعندما قال النبيﷺ : مَن يجهز جيش العسرة ؟ قام عثمان وقال : يا رسول الله ، هذه ألف بعير مني بأحلاسها وأقتابها . وحمل ألفي فارس ، ثم أتى بألف دينار ووضعها في ثوب رسول اللهﷺ ، فكان النبيﷺ يقلب هذه الدنانير ويقول : لا على عثمان ضير بعد اليوم هذا .

رضي الله عنك يا عثمان ، يا ذا النورين ، يا حبيب الرحمن ، ويا شهيد الدار ، نلتَ ما نلتَ من هذه المراتب الرفيعة العلية إنما بتوفيق الله ﷻ .

فكيف لهؤلاء الشيعة أن تسمح لهم قلوبهم وألسنتهم أن يلهجوا بسب ولعن عثمان ، هذا العبد الصالح الذي وفّقه الله هذا التوفيق كله ؟ !

فعثمان إنسان مدارك بالعناية والرعاية ، وهو حبيب الله . فمن كرهه كره النبي ، ومن كره النبي كره الإسلام ، ومن كره الإسلام كرهه الله . وهؤلاء الذين يلعنونه فإنما اللعنة تعود عليهم .

ذكر بيعة سيدنا عثمان بالخلافة

لقد انتخب سيدنا عثمان بن عفان وبويع بالإجماع بعد أن اتفق الأكثر عليه ، والكل بايعوا ليجمعوا كلمة الأمة .

وقد اختلف في يوم بيعته ، وهو مرتب على الخلاف في تاريخ وفاة عمر ﷺ . فقيل : في يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين ، وقيل : لعشر خلون من المحرم بعد مقتل عمر بثلاث ليال ، وقال أبو جعفر الطبري : يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، فاستقبل بخلافته شهر المحرم سنة أربع وعشرين .

قال الطبري : واستخلف وقد دخل وقت العصر ، وقد أذن مؤذن صهيب واجتمعوا في ذلك بين الأذان والإقامة . فخرج فصلى بالناس وزادهم مائة مائة ، ووَفّد أهل الأنصار وهو أول مَن صنع ذلك .

وقيل : لما بايع أهل الشورى عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، خرج وهو أشدّهم كآبة ، فأتى منبر النبيﷺ فخطب ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبيﷺ وقال :

أيها الناس ، إنكم في دار قُلْعة[1] ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير تقدرون عليه ، فلقد أوتيتم صُبِّحْتم أو مُسِّيتم .

ألا وإن الدنيا طُويت على الغرَر ، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[2] .

واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم .

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومُتّعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟

رُمُوا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن اللهﷻ قد ضرب لها مثلاً ، فقال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[3] .

وأخذ يومها سيدنا عثمانرضي الله عنه خاتم الخلافة الذي كان للنبيﷺ ، ثم لبسه أبو بكر طيلة خلافته ، ثم لبسه عمر .

ويروى أنه في سنة ثلاثين من الهجرة ، كانرضي الله عنه يوماً يجلس على بئر أريس

١- أي ليست دار إقامة .
٢- الآية (٥) من سورة فاطر .
٣- الآيتان (٤٥ ـ ٤٦) من سورة الكهف .

– وهي على بعد ميلين من المدينة – ، فسقط خاتم النبيﷺ من يده في البئر وكان قليل الماء ، فما أدرك قعره بعدُ .

ولما سقط الخاتم أمر عثمان بنزح الماء فما قدروا عليه ، فلما أيسَ منه صنع لنفسه خاتماً آخر على مثاله ، ونقش عليه : (آمنتُ بالذي خلق فسوّى) ، فكان هذا الخاتم في إصبعه حتى قتلرضي الله عنه .

عمال عثمان وولاته على الأمصار وما كتب إليهم

بعد أن بويع سيدنا عثمانرضي الله عنه بالخلافة ، قام ووزع عماله وحكامه على الأقاليم .

– فكان كاتبه مروان بن الحكم .

– وقاضيه : كعب بن سُور .

– وحاجبه : مولاه عمران .

– وصاحب شرطته : عبدالله بن قنفذ التميمي . فكان هو أول مَن اتخذ صاحب شرطة .

– وعلى الديوان وبيت المال زيد بن ثابت .

وأما ولاته على الأقاليم ، فكانوا في السنة التي قتل فيها :

– عبدالله بن الحضرمي على مكة .

– القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف .

– يعلى بن منبه على صنعاء .

– عبدالله بن ربيعة على الجند .

– عبدالله بن عامر على البصرة .

- أبو موسى الأشعري على الكوفة وعلى الصلاة .
- جابر بن فلان المزني ، وسِماك الأنصاري على خراج السواد .
- القعقاع بن عمرو على حربها .
- جرير بن عبدالله على قرقيسيا .
- الأشعث بن قيس الكندي على أذربيجان .
- عتيبة بن النهّاس على حلوان .
- مالك بن حبيب على ماه .
- النُّسَيْر على همذان .
- السائب بن الأقرع على الري وأصفهان .
- حُبَيْش على سَبَذان .
- معاوية بن أبي سفيان على الشام .
- وعبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر .

قال الطبري : وكان أول كتاب كتبه عثمانﷺ إلى عماله على الأمصار :

أما بعد ،

فإن الله تعالى أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُباة . وأنَّ صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جُباة . ولَيوشِكَنَّ أئمتكم أن يصيروا جُباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة ، والوفاء .

ألا وإنَّ أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم .

ثم تثنوا بالذمة وتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم .

ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء .

وقال الطبري : وأول كتاب كتبه عثمان إلى أمراء الأجناد في الفروج :

أما بعد ،

فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمرﷺ ما لم يغب عنا بل كان عن مِلاء منا .

ولا يبلغنا عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيُغيِّرُ الله بكم ويستبدل بكم غيركم .

فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه .

ذكر بعض أخلاقه وحياته في خلافته

يقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : « ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهاً ، وأحسنها أخلاقاً ، وأثبتها حياء ، إن حدّثوك لم يَكْذِبوك ، وإن حدثتهم لم يُكَذِبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[1] .

* شدة حيائه :

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال : « أشد أمتي حياء عثمان بن عفان »[2] .

وعنه كذلك عن رسول اللهﷺ قال : « عثمان أحيى أمتي وأكرمها »[3] .

١- رواه أبو نعيم في الحلية ، والطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمرو .
٢- رواه أبو نعيم في الحلية .
٣- رواه أبو نعيم في الحلية .

ويروى عن الحسن أنه ذكر عثمان وشدة حيائه فقال : « إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق ، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه »[١] .

فكانﷺ شديد الحياء حتى في بيته وفي خلوته ، ما كان يُبدي ولا يُظهر عورته ، وما نظر لعورته حياء من الله العلي الكريم .

وكان يقول : « ما أخذته بيميني منذ أسلمت – يعني ذكره – »[٢] .

ويروى عن عبدالله بن عامر بن ربيعة أنهم كانوا مع عثمانﷺ في الدار فقال : « وأيم الله ، ما زنيتُ في جاهلية ولا إسلام ، وما ازددت للإسلام إلا حياء »[٣] .

وروي أنهﷺ كان مضطجعاً على فراش عائشة وعليه مرط لها ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حالته ، ثم استأذن عمر فأذن له ، ثم استأذن عثمان فجلس النبيﷺ وأمر عائشة أن تجمع عليه ثيابه ، كما أمرها أن تجمع كذلك عليها ثيابها – وهذا كان قبل نزول آية الحجاب – ، ثم أذنﷺ لعثمان فدخل . فسألته عائشة بعد ذلك عن فزعه لعثمان فقال : ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة ؟ والذي نفس محمد بيده إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله ، وإني خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحالة ألا يبلغ لي حاجته .

١- رواه أحمد .
٢- رواه أبو نعيم في الحلية .
٣- رواه أبو نعيم في الحلية .

* زهده وتواضعه :

كان رضي الله عنه غنياً ذا أموال ، ومع ذلك ينام بالمسجد مع الضعفاء ، ويأكل هو الخل والزيت ، ويُطعم الناس اللحم والطعام الشهي .

يروى عن عبدالله بن شداد بن الهاد قال : « رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة ، وربطة كوفية ممشقة ، ضرب اللحم ، طويل اللحية ، حسن الوجه »[١] .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : « رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين »[٢] .

وعنه كذلك قال : « رأيت عثمان نائماً في المسجد حتى جاءه المؤذن فقام ، فرأيت أثر الحصى على جنبه »[٣] .

* خوفه من الله عز وجل وشدة تقواه :

كان رضي الله عنه شديد الخوف من الله تعالى ، كان إذا وقف على قبر يبكي حتى تبتل لحيته تماماً ، لا على صاحب القبر ولا خوفاً من الموت ، إنما يبكي على نفسه خوفاً من الله العلي القدير .

وكان يقول : « لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير »[٤] .

١- رواه الطبراني بإسناد حسن .
٢- رواه أبو نعيم في الحلية .
٣- أخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء .
٤- أخرجه الإمام أحمد من طريق عبدالله بن الرومي .

وكان ﷺ دائماً ملازماً للقرآن ، إذا قرأه يرتجف خوفاً من حضرة الله تبارك وتعالى .

وكان مع نفقاته وصدقاته يصوم الدهر كله ، ويحيي الليل كله بركعة واحدة يقرأ فيها القرآن كله ، فكان يبدأ بعد العشاء وينتهي صباحاً .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي مشجعة قال : عُدْنا مع عثمان ﷺ مريضاً ، فقال له عثمان : قل : لا إله إلا الله ، فقالها . فقال : والذي نفسي بيده لقد رمى بها خطاياه فحطّمها حطماً ، فقلت : أشيء تقول أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : بل سمعته من رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، هي للمريض فكيف هي للصحيح ؟ فقال : هي للصحيح أحطم .

❋ صلته للرحم وكرمه :

قال علي كرم الله وجهه : « كان عثمان أوصلنا للرحم ، وكان مِن الذين ﴿ ءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] »[2] .

فكان ﷺ يحب أقاربه وأهله كثيراً ، وكان يصل رحمه . ومن ذلك أن ولّى أقاربه الإمارة في بلاد الشام وغيرها من تلك الديار الشاسعة التي فتحها المسلمون ، وهذه التي أخذت عليه بعد ذلك .

كما كان ﷺ في غاية الصدقة والعطاء لأهل إمارته ، وقد أمضى ما جعله عمر من العطايا والفروض .

وكان يعطي الجيش حقه من العُدد ومن السلاح المناسب في كل زمان من أزمنته .

١- الآية (٩٣) من سورة المائدة .
٢- رواه أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال ج١٩ ص٤٥٠ .

الفتوحات والغزوات الإسلامية
في عهد عثمان

لقد حصلت في خلافة سيدنا عثمانﷺ فتوحات واسعة من بلاد الشام إلى بلاد الروم ، إلى بلاد فارس ، إلى بلاد ما وراء النهر ، حتى وصل المسلمون إلى أوروبا ، وإلى شرق وأواخر آسيا الصغرى .

❊ ❊ فتوح مصر ❊ ❊

ذكر إعادة فتح الإسكندرية :

ذكر صاحب فتوح مصر أنه في سنة خمس وعشرين من الهجرة نقض أهل الإسكندرية الصلح الذي بينهم وبين المسلمين . وذلك أن الروم حضروا إليهم من القسطنطينية ، ونفذ منهم مَنَّوَيل الخَصِيّ ، واتفقوا مع مَن بها مِن الروم ، ولم يوافقهم المقوقس وثبت على صلحه .

فسار عمرو بن العاص إليهم ، وسار إليه الروم واقتتلوا أشد قتال . فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية ، وقتلوا منهم في البلدة مقتلة عظيمة ، وقُتل مَنَّوَيل الخَصِيّ .

وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية أخذوا أموال أهل تلك القرى مَن وافقهم ومَن خالفهم ، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم ، فقالوا لعمرو بن العاص : إن الروم أخذوا أموالنا ودوابنا ، ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة . فردّ عليهم ما غرموا من أموالهم بعد إقامة البينة ، وهدم بعد ذلك سور الإسكندرية .

❊ ❊ فتوح إفريقيا ❊ ❊

وفي سنة خمس وعشرين أمر عثمان بن عفان عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن يوجه الجند إلى أطراف إفريقيا ، فانطلقت الجند فغنمت وعادت إلى مصر .

ثم استأذن عمرو بن العاص عثمان بن عفان في غزو إفريقيا فأذن له .

❊ ❊ فتوح أرمينية وبلاد فارس ❊ ❊

ذكر فتح أرمينية وأذربيجان :

لقد استعمل عثمان بن عفان الوليد بن عقبة بن أبي معيط – وهو أخو عثمان لأمه – على الكوفة . فعزل الوليدُ عقبةَ بن فرقد عن أذربيجان ، فنقض أهلها العهد ، فغزاهم الوليد في سنة خمس وعشرين ، ففتح وغنم وسبى . وطلب أهل كُوَر أذربيجان الصلح ، فصالحهم على صلح حذيفة وهو ثمانمائة ألف درهم ، فقبض المال ثم بث سراياه .

وبعث سليمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً ، فقتل وسبى وغنم . ثم انصرف وقد ملأ يده حتى أتى الوليد ، وعاد الوليد وجعل طريقه على الموصل .

ذكر فتح كابل :

وفي سنة خمس وعشرين كذلك ذكر ابن الأثير أن عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث عبدالله بن عامر إلى كابل ، فبلغها وكانت أعظم من خراسان ، ولم يزل إلى أن مات معاوية فامتنع أهلها ، والله تعالى أعلم .

ذكر إعادة فتح خراسان وكرمان وسجستان وكابل :

لقد نشط الجيش الإسلامي بعهد سيدنا عثمانﷺ وأعاد فتح خراسان بعد أن غدر أهلها لما قُتل عمر بن الخطاب ، فنقضوا العهد . فوجّه إليها عثمان بن عفان عبدالله بن عامر فأعاد فتحها ، ومصّر الأمصار فيها ، وولّى على الأقاليم من يقوم بشأنها من العلماء والأمراء .

كما أن أهل كرمان كانوا قد نكثوا وغدروا ، فأُعيد فتحها بعهد عثمانﷺ .

كذلك أهل سجستان وكابل وغيرهما من الأقاليم كانوا قد نكثوا عهودهم ، فأمر عثمان بن عفان الجيوش الإسلامية لإعادة فتحها ، وركّز على نشر الدعوة فيها .

ذكر غزو طبرستان :

وفي سنة ثلاثين من الهجرة ، أمر عثمان بن عفان سعيد بن العاص عامل الكوفة بغزو طبرستان ، ومعه الحسن ، والحسين ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وحذيفة بن اليمان ، وابن الزبير ، وغيرهم .

فأتى سعيد بجيشه جرجان ، فصالحه أهلها .

ثم أتى طميس – وهي كلها من طبرستان متاخمة لجرجان على البحر – فقاتله أهلها ، فصلى صلاة الخوف وحاصرهم ، فسألوه الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً ، واحتوى على ما في الحصن .

❊ ❊ فتوح بلاد الترك ❊ ❊

لقد أمر سيدنا عثمانﷺ جيوشه أن تدخل بلاد الروم بقوة ، وفتحت الكثير من الأراضي التركية .

ذكر غزو معاوية الروم :

في سنة خمس وعشرين غزا معاوية بن أبي سفيان الروم فبلغ عمورية ، فوجد الحصون التي بين أنطاكيا وطرسوس خالية ، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته .

ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسي الصائفة ، وأمره أن يفعل مثل ذلك ، ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكيا .

ذكر موقعة ذات الصواري :

كانت في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل : أربع وثلاثين .

وسببها أن المسلمين لما فعلوا بأهل إفريقيا ما فعلوا عند فتحها ، عظم ذلك على قسطنطين بن هرقل فخرج في جمع لم يجمع الروم مثله قبل مذ كان الإسلام . قيل : خرج في خمسمائة مركب ، وقيل : في ستمائة .

وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان ، وعلى البحر عبدالله بن سعد بن أبي سرح .

فالتقوا وقرَّبوا السفن بعضها إلى بعض ، فاقتتلوا بالسيوف والخناجر ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، فانهزم قسطنطين جريحاً ، ولم ينجُ من الروم إلا الشريد .

وأقام عبدالله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ثم رجع .

وأما قسطنطين فإنه وصل في مركبه إلى صقلية ، فقال أهلها : أهلكتَ النصرانية ، وأفنيتَ رجالها ، لو أتانا أهل المغرب لم يكن عندنا مَن يمنعهم . ثم أدخلوه الحمام وقتلوه .

❊ ❊ فتوح الأندلس وجزيرة قبرص ❊ ❊

ذكر فتح الأندلس :

لما فتحت إفريقيا أمر عثمان بن عفان عبدالله بن نافع بن عبدالقيس أن يسير إلى الأندلس ، فأتاها من البحر ففتح الله تعالى على المسلمين .

ذكر فتح قبرص :

وفي سنة ثمان وعشرين – وقيل : تسع وعشرين – ، سار معاوية بن أبي سفيان بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنهما إلى جزيرة قبرص ، وشهد هذه الغزاة جماعة من الصحابة : كأبي ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء . فصالحه أهلها على الجزية وهي سبعة آلاف دينار في كل سنة ، ويؤدون للروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك .

ولا زال أهل جزيرة قبرص على هذا الصلح حتى سنة اثنتين وثلاثين ، فإن أهل الجزيرة أعانوا الروم على غزو المسلمين بمراكب أعطوهم إياها .

فغزاهم معاوية في سنة ثلاث وثلاثين ففتحها عنوة ، فقتل وسبى . ثم أقرّهم على صلحهم ، وبعث إليهم اثني عشر ألفاً ، فبنوا المساجد وبنى بها مدينة .

وقيل : كانت الغزوة الثانية في سنة خمس وثلاثين .

خبر جمع القرآن في عهد عثمان

إنَّ الخليفة عثمان بن عفانﷺ هو الذي أمر بجمع القرآن ، وذلك في سنة ثلاثين من الهجرة الشريفة .

وفي سبب ذلك يروى : أن حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل كان قد توجّه

مـدداً لعبـدالرحمن بـن ربيعـة لحصـار البـاب ، فوصـل إلى أذربيجـان وهنـاك رأى المسـلمين علـى اخـتلاف شـديد في قـراءة القـرآن ، وكـادت أن تقـع مقـاتلات في أذربيجـان مـن أجـل القـراءة . كمـا مـرّ في طريقـه علـى أهـل حمـص يتلـون القـرآن وهم يقولون : إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، حيث أخذوا القرآن عن المقداد . ومرّ على أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، حيث أخذوا القرآن عن ابن مسعود . ومرّ على أهل البصرة وهم يقولون مثل ذلك ، حيث أخذوا القرآن عن أبي موسى الأشعري .

فرجع حذيفة وأخبر عثمان بذلك ، وقال : يا عثمان ، أنا النذير العريان ، فأدرك الأمة قبل أن تفنى وتهلك .

فحـالاً أرسـل عثمـان إلى السـيدة حفصـة بنـت عمـر : أن أرسـلي إلينـا بالصحيفة التي عندك لننسخها . وكانت مؤلفة من عدة صحف كُتب عليها القرآن كاملاً في عهد الصديق أبي بكر ووُضعت عندها .

فأخذها عثمان وجمع القراء من الصحابة القمة الذين يحفظون القرآن وهم : زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عباس ، وسعيد بن العاص ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام . وشكّل منهم لجاناً ، وطلب منهم أن يجمعوا القرآن . فهؤلاء هم الذين كتبوا ونسخوا ، والصحابة يُملون عليهم بالإجماع .

فالقرآن ما أخذ فقط عن هؤلاء الذين اجتمعوا ، بل كل واحد كان مرجعه إلى مائة . فتوضع الآية الفلانية ويقال : أهذه الآية التي وضعتها سمعتها من رسول الله ؟ فيقولون : نعم ، سمعناها من رسول الله ﷺ .

وهكذا ما وضعت آية في القرآن الذي بين أيدينا إلا وأجمعت عليها الأمة بأنهم سمعوها من رسول الله ﷺ ، سوى آية واحدة لم يكن فيها الإجماع الذي كان على إجماع غيرها من باقي القرآن ، إنما أجمع عليها عدد كان صدقاً ، وهي : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

فكتب القوم أربع نسخ ، فأرسل واحدة إلى الكوفة ، وأخرى إلى البصرة ، وأخرى إلى الشام ، وأبقى نسخة عنده . وأعاد الصحف إلى حفصة ، وأمر أن يحرق ما سوى ذلك ، فعرف الناس فضل عثمان .

وقيل : كانت النسخ سبعاً ، فوجّه واحدة إلى مكة ، وواحدة إلى اليمن ، وأخرى إلى البحرين . والقول الأول هو الأصح .

فله ﷺ فضل على الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة ، ولولاه لما وجدنا قرآناً بين أيدينا الآن ، جزاه الله عن المسلمين خيراً .

وما من مسلم يقرأ القرآن إلا ولعثمان بن عفان برقبته مِنّة وفضل ، وله أجر كأجره ، ولو أقسمتُ بذلك ما كنت حانثاً .

ذكر خبر عثمان وأبي ذر الغفاري

كان أبو ذر الغفاري ﷺ يعيش في دمشق ، وقد اختلف مع سيدنا معاوية حول الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

١- الآيتان (١٢٨ ـ ١٢٩) من سورة التوبة .

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] . أبو ذر يقول : إنها آية عامة ، فيحرم على الإنسان أن يبيت ومعه ما يكفيه لأسبوع وما بعده ، إنما عليه أن يبيت ومعه ما يكفيه ليوم واحد فقط ، والباقي يتصدق به . ومعاوية يقول : إنها نزلت بحق أهل الكتاب . فرفع معاوية الأمر إلى عثمان ، فقال : أرسله إلي .

فذهب أبو ذر إلى المدينة ، فاجتمع أهلها عليه أفواجاً أفواجاً وكأنهم لم يروا أبا ذر قبل ذلك . فذهب أبو ذر إلى عثمان وشكا له أن الناس يجتمعون عليه كثيراً . فعرض عليه سيدنا عثمان المقام بمكة ، أو أن يعود إلى الشام ، أو أن يذهب إلى الكوفة ، أو . . . ، فاختار أبو ذر رضي الله عنه المقام في الربذة وهي على طريق قوافل العراق ، وأعطاه عثمان رضي الله عنه قطيعاً من الإبل فيه ثلاثون ناقة ، وعبدين ، وشياه ، وجعل له نفقة يومية .

فبقي أبو ذر يتردد ما بين الربذة والمدينة ، حيث خشي على نفسه أن يكون أعرابياً بائداً ، إنما غالب أوقاته في الربذة حتى كانت وفاته رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين ، وقيل : في التي بعدها وعليه الأكثر .

ويروى أنه لما حضرته الوفاة وكان قد مرض مرضاً شديداً ، قال لابنته : يا بنية انظري ، أتشاهدين أحداً يأتي من بعيد ؟ فنظرت فقالت : لا ، فقال : إذاً لم يئن بعد الموت ، اذبحي شاة . فذبحتها فأحسنت صناعتها ، ثم قال لها : يا بنية ، إنه سيأتي وفد صالحون من هذا الفج ، فإذا رأيت هؤلاء فقولي : إن أبا ذر هنا يريد مَن يصلي عليه فقد مات . ثم قال لها : انظري إلى ذلك الفج ، هل ترين أحداً ؟ قالت : نعم ، فقال : وجّهيني إلى القبلة . فوجّهته نحو القبلة وقال : بسم الله الرحمن الرحيم وبالله وعلى ملة رسول الله ، ثم مات .

١ـ الآية (٣٤) من سورة التوبة .

ووصل الركب وكان به عبدالله بن مسعود في رهط من أهل الكوفة ، فأشارت إليه ابنة أبي ذر ، فنزل ابن مسعود يترحم على أبي ذر ، واستهل يبكي ويقول : صدق رسول اللهﷺ حيث قال : « أبو ذر يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة أمة وحده »[1] .

ثم نزل هو وأصحابه فكفنوه وصلوا عليه ، ثم دفنوه . وأخذ ابن مسعود أهل أبي ذر وسار بهم إلى مكة .

وقيل : اجتمع ابن مسعود مع عثمان رضي الله عنهما في الحج ، وذكر له موت أبي ذر . فعندما رجع عثمان إلى المدينة مرّ على الربذة ، وأخذ ابنة أبي ذر وأهله وضمّهم إلى عائلته .

ولم تكن الروايات الثانية بأنه فعل وفعل ، فعثمانﷺ كان يحترم الصحابة وما ظلم أحداً ، إنما كان يعطي كل ذي حق حقه .

ذكر ما وقع في خلافة عثمان من غير ما ذكرناه

* في سنة أربع وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة حجّ عثمانﷺ بالناس .

* وفي سنة ست وعشرين من الهجرة الشريفة زاد عثمانﷺ في المسجد الحرام

١- قالها النبيﷺ في غزوة تبوك عندما تأخر أبو ذر عن الركب وكان بعيره ضعيفاً نحيلا ، فلما أبطأ به أخذ رحله ووضعه على كتفه ، ثم سار يتبع أثر رسول اللهﷺ ماشياً . ولما نزل رسول اللهﷺ في بعض منازله ، رأى بياضاً من بعيد فقال : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر . فقال : أبو ذر يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة أمة وحده .

ووسّعه ، وابتاع أملاك قوم ، وامتنع آخرون فهدم عليهم ، ووضع الإيراد في بيت المال . فصاحوا بعثمان ، فحبسهم وقال : قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا ، ثم أطلقهم .

❊ وفي سنة سبع وعشرين حجّ عثمان بالناس .

❊ وفي سنة ثمان وعشرين بنى عثمانﷺ الزَّوْراء ، وحجّ كذلك بالناس .

❊ وفي سنة تسع وعشرين في شهر ربيع الأول ، زاد عثمان بن عفان في مسجد رسول اللهﷺ ، فجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين ومائة ذراع . وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب ، وبناه بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص .

❊ وفي سنة ثلاثين من الهجرة زاد عثمانﷺ النداء الثالث يوم الجمعة على الزَّوْراء .

❊ وفي سنة إحدى وثلاثين حجّ عثمان بالمسلمين . وكانﷺ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويدلهم على المناسك ، ويسير دائماً في جميع طرق الخيرات من صدقات وهبات إلى أن عاد من الحج .

❊ وفي سنة اثنتين وثلاثين مات العباس بن عبدالمطلب وله من العمر ثمان وثمانون سنة .

وفي نفس السنة مات عبدالله بن مسعود ، وصلى عليه عمار بن ياسر ، وقيل : عثمان بن عفان .

وكذلك توفي عبدالله بن زيد بن عبدربه الذي أريَ أمر الأذان .

وتوفي أيضاً عبدالرحمن بن عوف عن خمس وسبعين ، أو اثنتين وسبعين ، أو ثمان وسبعين سنة ، والله أعلم بالصواب .

وقوع الفتنة ومقتل عثمان

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في حائط مِن حيطان المدينة ، فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا أبو بكر ، فبشرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله . ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله . ثم استفتح رجل فقال لي : افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ثم قال : الله المستعان[1] .

وورد عن عبدالله بن عمرو قال : « قال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان : يا عثمان ، إن ألبسك الله قميصاً فأرادك الناس على خلعه فلا تخلعه ، فوالله لئن خلعته لا ترى الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط »[2] . والمقصود هنا بالقميص الخلافة .

فقد كان رضي الله عنه في الحقيقة عبد الله الصادق ، إنما إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه ، ولا تستطيع الدنيا كلها أن تقف أمام أمر أراده الله سبحانه .

إذا أراد الله أمراً بامرئ ... وكان ذا عقل ورأي ونظر
وحيلة يعملها في دفع ما ... يأتي به مكروه أسباب القدر
غط عليه سمعه وعقله ... وسله من ذهنه سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه أمره ... ردّ عليه عقله ليعتبر

فمن قبل وجود سيدنا عثمان كان الله تعالى قد قدّر له ما حصل به .

١- رواه البخاري في صحيحه ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان .
٢- رواه الطبراني في الأوسط والكبير .

والذي نعتقده هو أن سيدنا عثمانﷺ عاش مؤمناً ، ومات مؤمناً ، وسيُبعث مؤمناً ، وسيدخل الجنة مؤمناً . وأنه قُتل مظلوماً ، وكان قاتله ظالماً ، ومن تنحّى من الصحابة عنه كان معذوراً .

وهذه عقيدة السلف والخلف كما قال سعيد بن المسيب سيد التابعين عندما سئل عن قتل عثمان .

ابتداء أمر الفتنة :

هناك أقوال كثيرة وردت في سبب مقتل سيدنا عثمان ، وفي كيفية الحصار الذي كان .

يقول الزهري أحد التابعين : قلت لسعيد بن المسيب : كيف كان قتل عثمان ابن عفان ؟ قال :

لما ولي عثمان الأمر كره ولايته نفر من الصحابة ؛ لأنه كان كثيراً ما يُولي بني أمية ممن لم يكن له صحبة ، إنما كان يعتقد بهم بأنهم أهل لذلك ، وهذا رأي واجتهاد . فكان يجيء من أمرائه ما تنكره الصحابة ، وكان عثمان يُستعتب فيهم فلا يعزلهم لأمر عنده .

فلما كان في الست الأواخر من ولايته ، استأثر بني أمية فولاّهم دون غيرهم ، وأمرهم بتقوى الله والعمل الصالح ، والعدل في الرعية . فولّى عبدالله بن أبي سرح مصر ، فمكث عليها سنتين ، فجاء أهل مصر يشكون ويتكلمون فيه . وقد كان قبل ذلك هناك من عثمان عدم التفاتة إلى عبدالله بن مسعود وقد شكا إليه موضوعاً يتعلق بالمسلمين واستهان بأمره ، ومن أبي ذر وعمار بن ياسر كذلك . فكانت بنو هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيهم على سيدنا عثمان ، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان أيضاً .

فجاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح ، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدّده ، غير أن ابن أبي سرح أخذ كتاب عثمان ولم يعمل به ، وضرب بعض مَن أتاه من قبيل عثمان فقتله .

فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل بسلاحهم إلى المدينة ليضعوا الأمور ، فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة . فقام يومها طلحة بن عبيدالله فكلّم عثمان بكلام شديد .

وأرسلت عائشة إليه تقول له : تقدّم إليك أصحاب محمد وسألوك يا عثمان عزل هذا الرجل فأَبَيْتَ ؟ فهذا قد قتل منهم الآن قتيلاً فأنصفهم مِن عاملك .

ودخل عليه بعد ذلك علي بن أبي طالب ، وقال له : إنما سألوك رجلاً مكان رجل وادّعوا قبله دماً ، فاعزله عنهم واقض بينهم ، فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه .

فقال عثمان لأهل مصر : اختاروا لي رجلاً أميراً لأُوَلّيه عليكم مكانه ، فاجتمعوا على محمد بن أبي بكر الصديق . فكتب عثمان كتاباً إلى عامله في مصر ابن أبي سرح بأنك معزول ، وأن الحاكم بعدك محمد بن أبي بكر الصديق ، فإذا أتاك فسلمه الإمارة .

وانطلق وفد مصر من المدينة إلى مصر ومعهم محمد بن أبي بكر وعدد من المهاجرين والأنصار ، ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح . فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ، إذ هم بغلام أسود على بعير وهو يخبطه خبطاً كأنه رجل يُطلب ، فقالوا له : ما شأنك يا هذا ؟ فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين وجّهني إلى عامل مصر ، قالوا : هذا عامل مصر ، فقال : ليس هذا أريد .

وأخبر بأمره محمد بن أبي بكر ، فبعث في طلبه رجلاً فجاء به إليه ، فقال له : غلام مَن أنت ؟ فمرة يقول : غلام أمير المؤمنين ، وأخرى يقول : غلام مروان ابن الحكم ، وهكذا كان يتردد بين هذا وهذا . ثم قال له محمد بن أبي بكر : إلى مَن أرسلتَ يا هذا ؟ قال : إلى عامل مصر ، قال : بماذا ؟ قال : برسالة ، قال : معك كتاب ؟ قال : لا . ففتشوه فوجدوا معه كتاباً ، وكان قد خبأه في الأداوة .

وجمع محمد بن أبي بكر المهاجرين والأنصار وقال : يا قوم ، هذا كتاب من عثمان لا ندري ما فيه . ثم فضّ الكتاب أمامهم وكان فيه البلاء الأكبر . حسب ظاهره كان خطاباً من عثمان إلى حاكم مصر ابن أبي سرح : إذا أتاك محمد بن أبي بكر الصديق فاقتله واقتل مَن معه ، وأبطل كتابه الذي معه ، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي ، واحبس مَن يجيء يتظلم إلي منك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله .

فلما قرأه الجميع فزعوا ، وغيّروا طريقهم ورجعوا إلى المدينة ، وكانت هذه هي بداية الفتنة .

ابتداء الحصار وما كان من أمر الصحابة :

عندما وصل وفد مصر المدينة ، جمعوا طلحة ، والزبير ، وعلياً ، وسعداً ، وجمعاً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ . وقام محمد بن أبي بكر وأخبرهم بقصة الغلام ، وفضّ الكتاب أمامهم ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حقن على عثمان . وذهب أصحاب النبي ﷺ إلى منازلهم ، وما منهم مِن أحد إلا وهو مغتم

من هذا الخبر ، فالكتاب باسم عثمان وعليه ختمه ، والعبد لعثمان ، والبغلة لعثمان كذلك .

ثم حاصر هؤلاء المصريون بيت عثمان وكانوا سبعمائة كما ذكرنا ، وأجلب عليهم محمد بن أبي بكر بني تيم وغيرهم من عشيرته .

فلما رأى علي ذلك أرسل إلى طلحة ، والزبير ، وسعد ، وعمار ، ونفر من الصحابة كلهم بدري . ثم دخل على عثمان والكتاب معه ، وأدخلوا العبد والبغلة معهم ، وعثمان هنا لا زال لا يدري ما القصة . فقال علي لعثمان : أهذا الغلام غلامك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : والبعير بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك ، وبكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به ؟ فحلف عثمان بالله : ما كتبت هذا الكتاب ، وما أمرت به ، وما وجّهت هذا الغلام إلى مصر قط .

فعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل ، فنظروا إلى الكتاب فعرفوا أنه خط مروان ، فسألوه أن يدفع لهم مروان فأبى ذلك ، علماً أنه كان عنده في الدار . فشكّوا في أمر عثمان ، وخرج الصحابة من عنده غضاباً ، وجلسوا في بيوتهم ينتظرون .

وإنَّ ما عليه أهل السلف والخلف أنَّ الذي فعل هذه الفتنة هو الداهية مروان بن الحكم كاتب عثمان ، فهو الذي كان يلعب الدور الكبير في إمارة سيدنا عثمان ، ويفعل باسمه وعثمان لا يدري ، وهو الذي سبّب المشكلة كلها . وإنهم ينزهون عثمان أن يطلب سفك دم إنسان مسلم غدراً ، أو أن يعمل خديعة ليقتل مسلماً ، أو أن يكون وراء قتل إنسان مسلم بريء .

وهنا نقول : قد يكون عثمان أراد هو أن يعاقبه وحده كأمير للمؤمنين ، وأن يقيم عليه الحد ويفعل به ما يجب ، لذلك كان يرفض تسليم ابن الحكم .

اشتداد أمر الحصار والاتفاق على قتل عثمان :

واشتدت الأمور بعد ذلك أكثر حين جاء أهل البصرة وأهل الكوفة يشكون أميرهم ، وجلسوا مع المصريين يحاصرون عثمان . ومنعوه مع زوجه من الماء الذي هو اشتراه ، فأشرف عثمان على الناس فقال : أفيكم علي بن أبي طالب ؟ قالوا : لا . قال : أفيكم سعد بن أبي وقاص ؟ قالوا : لا . قال : ألا أحد يُبلّغ علياً ليسقينا ماء ؟

فبلغ ذلك علياً فبعث له بثلاث قرب مملوءة بالماء ، فما كادت تصل إليه والمحاصرون قد منعوا وصول الماء ، وجُرح من غلمان بني هاشم وبني أمية عدة . فأُخبر علي فأرسل الحسن والحسين ، فقاتلا حتى أوصلا الماء إلى سيدنا عثمان . ثم كان يأتيه ماء بالتهريب ليلاً من جيرانه .

وقد روى البخاري في صحيحه بإسناد حسن عن أبي عبدالرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم وقال : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبيﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول اللهﷺ قال : مَن حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : مَن جهّز جيش العسرة فله الجنة فجهّزته ؟ قال : فصدقوه بما قال .

إلا أن قوماً قالوا : لا يبرأ عثمان مِن قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان بن الحكم ونعرف حال الكتاب ، إن يكن عثمان كتبه عزلناه ، وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون منا من أمر مروان .

ودخل المغيرة بن شعبة على عثمان وهو محاصر في الدار ، فقال له : إنك إمام العامة ، وقد نزل بك ما نرى وما ترى ، وإني أعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فخذ بواحدة منها : أن تخرج فتقاتل فإن معك عدداً وقوة ، وأنت على الحق وهم على الباطل . أو أن تخرق لك باباً من هذا الجدار سوى بابك الأصلي ، فتقعد على راحلتك فتلحق بمكة ، وهناك ستجد لك من يناصرك . أو أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فأجابه : أما الأولى ، فلن أكون أول من يسفك دماء المسلمين . وأما الثانية ، فإني سمعت النبيﷺ يقول : رجل من قريش يفجر في مكة ، فلن أكون هذا الرجل . وأما قولك أن أذهب إلى بلاد الشام ، فلن أترك دار هجرتي حتى ألحق بربي .

وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول اللهﷺ : ادعو إلي بعض أصحابي ، فقلت : أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت : عمر ؟ قال : لا . فقلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟ قال : نعم . فلما جاء قال لي بيده فتنحيت ، فجعل رسول اللهﷺ يُسارُّه ولون عثمان يتغير . فلما كان يوم الدار وحُصِرَ ، قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا ، إن رسول اللهﷺ عَهِد إلي عهداً وأنا صابر النفس عليه .

وهكذا دام حصار سيدنا عثمان أربعين يوماً ، وقيل : تسعاً وأربعين ، وقيل : ستين ، وقيل : تسعين يوماً .

ثم بلغ علياً أن القوم يريدون قتل عثمان ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا . ثم قال للحسن والحسين : اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه . ثم طلب منهما أن يطلبا من عثمان أن يسلم مروان لتنتهي الفتنة .

وكذلك بعث الزبير ابنه عبدالله ، وبعث طلحة ابنه محمداً ، وبعث كذلك عدة من أصحاب النبيﷺ أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان .

فالموضوع خطير فيه إنهاء للخلافة ، وضرب لبيضة الإسلام في ذلك الوقت والإسلام لا زال غضاً طرياً . ولكن قدر الله واقع ، والفتنة إذا هاجت فإنها لا تعرف أماً ولا أباً .

كانت الدماء تسيل غزيرة من كل من أتى ليحرس عثمان ، ضربوا بالسهام وبالسيوف على أماكن غير قاتلة ، ونالوا مشقة شديدة حتى ناداهم عثمان وأقسم عليهم بالله أن يدخلوا البيت ويغلقوا الباب .

كان الآخرون يصرون على الدخول على عثمان ؛ لأنهم سمعوا أنَّ نجدة أتت من الشام ومن مكة لتخلصه ، فأرادوا أن ينهوا الموضوع قبل وصول النجدة . فحاولوا أن يدخلوا الدار من الباب فلم يستطيعوا، فأتوا بنار وحرقوا المظلة التي كانت أمام الباب .

وفي هذه الأثناء توضأ سيدنا عثمان ووقف يصلي ، وقرأ بطه بكاملها ، ثم جلس يقرأ القرآن . وهو كذلك إذ نام فرأى النبيﷺ يقول له : يا عثمان ، إنك ستفطر الليلة عندنا . وكان في ذلك اليوم صائماً .

تسوّر النفر الثلاثة وقتل عثمان :

لما رأى محمد بن أبي بكر الدماء على وجه الحسن والحسين من أثر السهام ، خشي أن يثور عليهم بنو هاشم ، فطلب من رجلين من المصريين أن يتسوّرا معه الجدار الخلفي لبيت عثمان ، ليقتلوه بدون علم أحد .

فتسوّروا من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ، ولم يعلم أحد ممن كان يحرسه على الباب بدخول هؤلاء النفر الثلاثة حيث كانوا على أسقف البيوت ، ولم يكن أحد مع عثمان سوى امرأته نائلة الكلبية . فقال لهما محمد بن أبي بكر : مكانكما على الباب فإنَّ معه امرأته حتى أبدأكما بالدخول ، فإذا أنا ضبطته فادخلا فاقتلاه .

فدخل محمد فأخذ بلحية عثمان ، فقال له عثمان : دعها يا ابن أخي ، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها ، ولو رآك الآن لَساءه مكانك مني . فارتجفت يده وارتدع ، واستحيى وتاب إلى الله وخرج .

ثم دخل عليه الرجلان ، وقام واحد منهما وضرب القرآن برجله – كما ورد في إحدى الروايات – ، فاستدار القرآن وعاد إلى مكانه كما كان .

أما أحدهما ويدعى رومان بن سرحان من قبيلة مراد ، وهو رجل أزرق العينين ، قصير مجدوع ومجدور . فقال لسيدنا عثمان : على أي دين أنت يا نعثل ؟ فقال عثمان : أنا لست بنعثل ولكني عثمان بن عفان ، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين . فقال رومان : كذبتَ ، وضربه على صدغه .

وأما الآخر ويدعى عمرو بن الحمقة ، فقد وثب على صدر عثمان وهو في الرمق بعد أن ضربه الأول الذي ذكرناه ، فطعنه تسع طعنات في صدره .

وعلى بعض الأقوال : أراد عمرو قطع رأس عثمان فصاحت النساء ، فقال عبدالرحمن بن عديس رئيس الحملة المصرية الذي كان وراء هذه الفتنة من المصريين : اتركوه بدون أن يُقطع رأسه . وكان ابن عديس قد دخل على عثمان قبل قتله وقال له : نحن أتينا من مصر إما لخلعك أو قتلك يا عثمان .

وقيل : إنَّ الذي قتله رجل من مصر اسمه جبلة بن الأيهم ، وهذا بعد مقتل عثمان طاف بالمدينة ثلاثة أيام يقول : أنا قاتل نعثل .

وقيل : كان القاتل رجلاً غافقياً ، وقيل : بل كنانة بن التجوبي .

وكانت زوجة سيدنا عثمان نَعْمَتِ المرأة المخلصة ، فعندما شُهِر السيف على عثمانﷺ قامت ووقفت أمامه تدافع عنه ، وأخذت السيف بيدها فقطع أصابعها وكفها ، وهي بعد ذلك قد حنت بكاملها على سيدنا عثمان وأرادت أن تقتل دونه ، وكانت تصرخ فلا يُسمع صراخها من كثرة اللغو واللغط .

وأول قطرة من دم سيدنا عثمانﷺ نزلت على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] . والمصحف موجود الآن في استنبول ودم عثمان لا زال عليه .

ثم فرّ الرجلان هاربين من حيث دخلا ، كما فرّ يومها مروان وولده إلى الشام .

ثم خرجت نائلة إلى الناس وقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحاً .

فبلغ الخبر علياً ، وطلحة ، والزبير ، وسعداً ، ومَن كان في المدينة . فخرجوا وقد ذهبت عقولهم من الخبر الذي أتاهم ، ثم دخلوا على عثمان فوجدوه مذبوحاً ، فاسترجعوا وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم قال علي لابنه الحسن : كيف قُتل أمير المؤمنين وأنت على الباب ؟ ورفع يده ولطمه ، وضرب الحسين على صدره ، وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير ، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله لا يدري ماذا يصنع .

١ـ الآية (١٣٧) من سورة البقرة .

ثم جاء علي زوجة عثمان فقال لها : مَن قتل عثمان يا نائلة ؟ قالت : لا أدري ، دخل عليه رجلان لا أعرفهما ومعهما محمد بن أبي بكر الصديق ، وأخبرته ما صنع . فدعا علي محمد بن أبي بكر وسأله عما ذكرت نائلة ، فقال : لم تكْذِب ، قد دخلتُ عليه وأنا أريد قتله ، فذكّرني أبي فقمتُ عنه وأنا تائب إلى الله تعالى ، ووالله ما قتلته ولا أمسكته . فقالت نائلة : صَدَق ولكنه أدخلهما .

وكان قتل عثمان يوم الجمعة لثماني عشرة أو سبع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين . وقيل : وسط أيام التشريق . وقيل : لثمان ليال خلين من ذي الحجة في يوم التروية . وقيل : لليلتين بقيتا من ذي الحجة .

وقال ابن إسحاق : على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب ، وعلى رأس خمس وعشرين سنة من متوفى رسول الله ﷺ .

ولقد اختلف بعمر عثمان يوم قتله ، فقيل : كان ابن ثمانين عاماً ، وقيل : ابن ثمان وثمانين ، وقيل : بلغ التسعين من عمره .

ولقد قام سيدنا عثمان بأعباء الخلافة كاملة ، وجلس فيها اثني عشر عاماً سوى قليل من الأيام أو الشهور .

وبعد قتله رضي الله عنه ترك في الدار ثلاثة أيام لم يجرؤ أحد أن يدخل عليه ، فالمصريون كانوا قد منعوا الناس أن يدخلوا ليدفنوه .

وقيل : ألقي على المزبلة ثلاثة أيام ومنعوا أحداً من الدنو منه ، فأتى بعض الصحابة ليلاً وحملوه ، وأرادوا أن يدفنوه في البقيع فلم يُمَكَّنوا ، فدخلوا

حش كوكب وهذا كان بستاناً يمر عليه عثمان في حياته ويقول : سيُدفن في هذا المكان رجل صالح . فصلوا عليه هناك ، ودفنوه في ثيابه التي قتل فيها وكان غريقاً بدمه . ولم يتغير لونه ﷺ ولم ينتفخ ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانته عند الله ﷻ .

وأما قميص عثمان وأصابع نائلة التي قطعت بالسيف وهي تدافع عنه ، فقد نقلت إلى الشام ونصبها معاوية هناك ، وجلس ستون ألفاً من مشايخ الشام يبكون أمامها .

وبعد مقتل سيدنا عثمان رثاه حسان بن ثابت فقال :

مَنْ سَرَّه الموتُ صِرْفاً لا مِزاجَ له ... فليأتِ مأدُبَة في دار عثمانا
ضَحَّوْا بأشمَط عُنوانُ السُّجودِ به ... يُقطعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا
صبراً فِدىً لكمُ أمي وما وَلدَتْ ... قد يَنفعُ الصبرُ في المكروه أحيانا
لتسْمَعَنَّ وشيكاً في ديارهِمُ ... الله أكبر واثاراتِ عثمانا

وقال أيضاً :

إنْ تمسي دارُ ابن أروى اليومَ خالية ... بابٌ صريعٌ وبابٌ مُخْرَقٌ خَربُ
فقد يُصادفُ باغي الخير حاجَته ... فيها ويَأوي إليها الجودُ والحَسَبُ

وفي الحقيقة كانت نكبة عثمان نكبة للعالم الإسلامي كله ، أن يُذبح خليفة المسلمين في ديار المسلمين من قبل جماعة من المسلمين وهو يقرأ القرآن بسبب فتنة عمياء أو هيجاء ، فكان أمراً مزعجاً ومؤلماً للجميع .

وكم يتألم الإنسان عندما يسمع هذا الأمر ، وكنت لا أحب أن أسرده أبداً في كتابي هذا ، إنما كان لا بد لي من أن أضعه أمام المسلمين لنكون على عقيدة أهل السنة والجماعة من السلف والخلف .

وكان ما حصل بين هؤلاء الصحابة الذين شهد الله لهم بالرجولة أنَّ الكل كان مجتهداً يريد وجه الله ، ويريد إرضاء الحق .

فمقتل عثمان لم يكن برضا واحد من الصحابة ، الكل التزم بيته لأمر يريده اللهﷻ ، والكل ابتعد عن الساحة . وهؤلاء تجرؤوا وفعلوا ما فعلوا من إسالة دم بريء وإمام عادل .

وإنَّ ما يدور في أيامنا هذه من أمور المسلمين هو من آثار تلك الفتنة ، فقد ورد عن النبيﷺ أنه قال : « إن لله سيفاً مغموداً في غمده ما دام عثمان حياً ، فإذا قُتل عثمان جُرِّدَ ذلك السيف فلم يُغمد إلى يوم القيامة »[1] .

هذا الحديث يشير إلى أنه بمقتل سيدنا عثمان سيُفتح باب الفتنة ، وسيبقى مفتوحاً إلى يوم القيامة . بمقتل سيدنا عثمان السيف المغمود قد شُهِر ، ولا زال مشهوراً ومسلطاً على هذه الأمة إلى يومنا هذا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فعندما ينظر الإنسان إلى الأمة الإسلامية في زماننا يبكي ويحق له أن يبكي بدلاً من الدمع دماً ، والسبب في نفوسنا .

هكذا قضاء الله ، عصيناه فعوقبنا بأنْ قتل بعضنا بعضاً . وليتنا نتعظ ونعتبر ، والتاريخ يشهد لنا أننا أمة لن تموت إذا كانت مجتمعة .

ولكن أملي بالله سبحانه كبير أن تتلاءم هذه الجروح المفتوحة التي تنزف ، وأن تجتمع هذه القلوب المتنافرة ، وأن تشتبك هذه الأيدي المتباعدة ،

١- رواه ابن عساكر .

وأن يلتقي الرجال المسلمون الصادقون الذين يريدون الله واليوم الآخر على حكم الله وحده الذي لا يظلم الخلق سبحانه ، وأن يجمعنا على كتابه وسنة نبيه ، وأن نكون الأمة التي يريدها لنا النبيﷺ .

قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] .

١- الآية (١١٠) من سورة آل عمران .

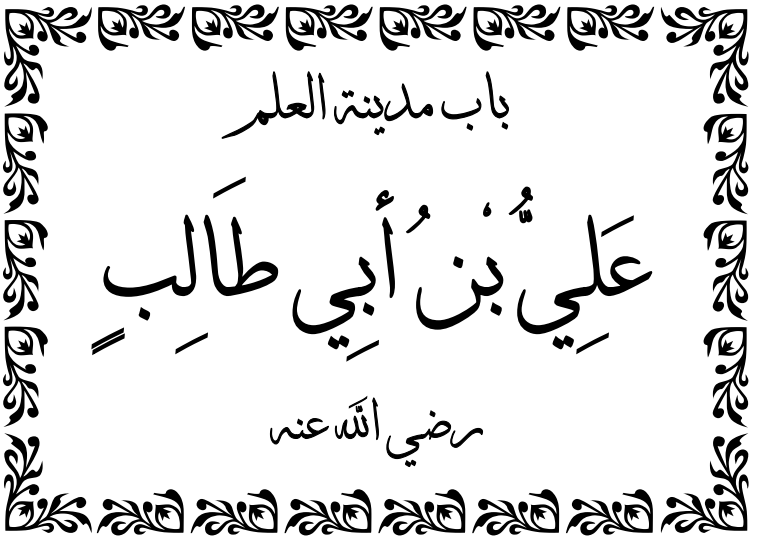

قال رسول الله ﷺ :

﴿ علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ﴾

نسبه وكنيته

هو علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ، ابن عم رسول اللهﷺ الذي وقف موقفاً مشرفاً معهﷺ حتى مات ، وقد قال النبيﷺ بحقه : « مِن أحب الناس إلي من أعمامي بعد أبي طالب الحمزة بن عبدالمطلب » .

وأمه هي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وقد قامت كثيراً بأعباء النبي عليه الصلاة والسلام بعد وفاة جده عبدالمطلب . وعندما بعث الله سيدنا محمداً نبياً ورسولاً آمنت به وحسن إسلامها ، وهاجرت إلى الله والرسول . وكان النبيﷺ يزورها ويقيل في بيتها ، وقال في حقها : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها . وقد توفيت ودفنت بالمدينة ، وكفنها النبيﷺ بقميصه ، ونزل في قبرها ، ولم يتركها حتى دخلت الجنة وفاء منهﷺ .

فعلي هو أول أمير للمؤمنين من أبوين هاشميين .

وكانرضي الله عنه يكنى بأبي الحسن بأكبر أولاده .

ويروى أن النبيﷺ وجد علياً مضطجعاً في المسجد وقد سقط الرداء عن شقه فأصابه تراب ، فجعل النبيﷺ يمسح التراب عنه ويقول : قم أبا تراب[1] .

كانت مداعبة من النبيﷺ إنما كانت هذه أحب أسمائه إليه .

صفاته الذاتية

كانرضي الله عنه حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسناً ، يميل إلى السمرة .

وكان مربوع القامة لكنه إلى القصر أميل ، وإلى السمن أقرب منه إلى النحف .

١- رواه البخاري ومسلم .

كان ضخم البطن ، عريض المنكبين لهما مشاش[١] كمشاش السبع الضار ، شثن الكفين[٢] ، لا يَبين عضده مِن ساعده قد أدمجا إدماجاً .

وكان أدعج العينين[٣] ، أغيداً[٤] كأن عنقه إبريق فضة .

وكان كبير اللحية ، أصلع الرأس ، ليس في رأسه شعر إلا من خلفه ما يدل على كثرة الذكاء .

إسلامه ونشأته

هو أول من أسلم على وجه الأرض من الصبيان ، وكان ابن عشر سنين .

يقول علي : بُعث النبيﷺ يوم الإثنين ، وأسلمت يوم الثلاثاء .

وقد نشأ رضي الله عنه وترعرع ورُبيَ في بيت النبوة حتى أصبح رجلاً ، حيث كان أبو طالب ذا عيال ، فأخذ النبيﷺ علياً ليخفف عنه أعباء المعيشة .

وكانت السيدة خديجة هي القائمة على تربيته .

زوجاته وأولاده

تزوّج سيدنا علي ثمانية سوى السراري :

١- السيدة فاطمة بنت رسول اللهﷺ : فهي الزهراء ، الطاهرة ، المطهرة ، البتول ، التي لم تحض ولم تنفس ، ودخلت تحت الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

١- المشاش : هي رؤوس العظم الكبيرة .
٢- هو من بكفيه غلاظة .
٣- الدعج : هو سواد يحيط به بياض صاف مع عروق حمر في العينين .
٤- هو عنق مائل لين الأعطاف ، كإبريق الفضة طويلا .

عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1] .

وقد كانت من أجمل نساء العرب جمالاً ، وصفة ، وحديثاً ، وعلماً ، ومنطقاً ، وفصاحة ، وبلاغة ، وديناً ، وتقى .

وهي التي قالت بعد وفاة النبيﷺ :

صُبَّتْ عليّ مصائب لو أنها صُبَّتْ على الأيام عُدْنَ لياليا

وقالت : فقدت رسول اللهﷺ لا كأب فقط . غير أنها كانت تحمل في قلبها الألم والوجع على مفارقة النبيﷺ ، وكان الألم يزداد في قلبها ، فلهذا كتمت وكتمت حتى ذهبت شهيدة الحب النبوي الشريف بعد ستة أشهر – وقيل : ثلاثة أشهر – من وفاتهﷺ .

وقد أراد يوماً عليٌّ أن يتزوج عليها بنت أبي جهل ، وكانت قد أسلمت وحسن إسلامها . فذهبت فاطمة وشكت للنبيﷺ فقالت : يا رسول الله ، أترضى أن يتزوج عليَّ عليٌّ ؟ فقال : لا . ثم رقى المنبر وقال : لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في بيت واحد . فلم يتزوج عليها طيلة حياتها .

ومنها أنجب : الحسن ، والحسين ، ومحسن . وقد سمّاهم النبيﷺ على أسماء أبناء نبي الله هارون : شبر ، وشبير ، ومشبر .

٢– أم البنين بنت حرام .

٣– ليلى بنت مسعود .

٤– أسماء بنت عميس : وهذه ما تزوّجت أحداً إلا وقُتل عندها .

٥– أمامة بنت أبي العاص بنت السيدة زينب .

١- الآية (٣٣) من سورة الأحزاب .

٦- خولة بنت جعفر من بني حنيفة .
٧- أم سعيد بنت عروة بن مسعود .
٨- محياة بنت امرئ القيس .

وأما أولاده فقد أنجبﷺ خمسة عشر ولداً ذكراً ، وتسع عشرة بنتاً .

أما الذكور فهم : سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين ، ومحسن - وقد مات صغيراً - ، والعباس ، وجعفر ، وعبدالله ، وعثمان ، وعبيدالله ، وأبو بكر ، ومحمد بن الحنفية ، ومحمد الأوسط ، ومحمد الأصغر ، ويحيى ، وعون ، وعمر .

وأما بناته فهن : زينب الكبرى ، وأم كلثوم وهما من السيدة فاطمة . ثم رقية ، وأم الحسن ، ورملة الكبرى ، وأم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة ، وجارية ، وأمامة .

ذكر بعض مناقبه وفضائله

❊ لقد شهد المشاهد كلها مع رسول اللهﷺ سوى غزوة تبوك ، فإن النبيﷺ خلّفه مع النساء والأطفال من بني هاشم ، فقال : يا رسول الله ، تخلفني على النساء والأطفال ؟ فقال : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1] .

١- خرّجه البخاري ومسلم ، وأحمد والبزار عن أبي سعيد الخدري .

❊ وعن سهل بن سعد أن رسول اللهﷺ قال يوم خيبر بعد أن تأخر الفتوح : « لأُعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسولَه ، ويحبه الله ورسولُه »[١] .

وكانت الراية لعلي ، وليس هناك بعد هذه الفضيلة .

❊ وعن سعد بن أبي وقاص قال : « لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾[٢] ، دعا رسول اللهﷺ علياً ، وفاطمة ، وحسيناً ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي »[٣] .

❊ وعن عليرضي الله عنه قال : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لَعهد النبي الأميﷺ إلي ألا يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق »[٤] .

فكان أبو سعيد الخدري يقول : « كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً »[٥] .

فالنفاق وحب علي لا يجتمعان في قلب كاجتماع النار والثلج ، أو كاجتماع الليل والنهار . ولا يجتمع كذلك بغض علي وإيمان في قلب .

فهذا ميزان يكون مع كل واحد منا ، فلينظر إن كان يحب علياً فهو مؤمن .

❊ وعن زيد بن أرقم قال : « سمعت رسول اللهﷺ يقول يوم غدير خم : مَن كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم والِ مَن والاه ، وعادِ مَن عاداه »[٦] .

١- رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .
٢- الآية (٦١) من سورة آل عمران .
٣- أخرجه مسلم .
٤- رواه مسلم واللفظ له، وكذلك الترمذي والنسائي بلفظ آخر ، وقال الترمذي: حسن صحيح.
٥- رواه الترمذي .
٦- رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وأحمد ، والنسائي ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي .

❊ وعن النبيﷺ قال : « علي مني وأنا مِن علي ، ولا يؤدي عني إلا أنا وعلي »[١] .

❊ وقالﷺ : « إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم ، قيل : يا رسول الله ، سَمِّهم لنا . قال : علي منهم ، علي منهم ، علي منهم – قالها ثلاثاً – . ثم قال : وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان »[٢] .

فنشهدك ربنا أنا نحبهم لحبك لهم .

❊ وعلي هو عالم الإسلام بعد النبيﷺ ، وبعد أناس من الصحابة . فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام بحقه : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأته مِن بابه »[٣] .

❊ وعن عمر بن أبي سلمة ربيب النبيﷺ قال : « لما نزلت هذه الآية على النبيﷺ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ في بيت أم سلمة ، فدعا فاطمة ، وحسناً ، وحسيناً ، فجلّلهم بكساء وعلي خلف ظهره ، فجلّلهم – وفي رواية فجلّله – بكساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ، قال : أنتِ على مكانك ، وأنتِ على خير »[٤] .

فهذه مزية ما كانت لغير فاطمة ونسلها إلى يوم القيامة ، فإذا اجتمعتَ مع رجل من أهل البيت اجتمعتَ مع رجل مطهر بدعوة النبيﷺ .

١- رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة . وقال الترمذي : حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح .
٢- رواه الترمذي والحاكم وصحّحه عن بريدة ، وابن ماجة .
٣- رواه الترمذي والحاكم وحسّنه .
٤- رواه الترمذي واللفظ له ، وأحمد ، والطبراني في الأوسط والكبير ، والذهبي .

❊ وهو كذلك من العشرة المبشرين بالجنة ، فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي ، وعمار ، وسلمان »[١] .

❊ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله ، آخيتَ بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد . فقال له رسول الله ﷺ : أنت أخي في الدنيا والآخرة »[٢] .

لهذا كان علي دائماً يفتخر ويقول : أنا أخو رسول الله ﷺ ، ويحق له أن يفتخر .

❊ وعن خيثمة قال : « سمعت سعد بن مالك وقال له رجل : إن علياً يقع فيك إنك تخلّفتَ عنه ، فقال سعد : والله إنه لرأي رأيته وأخطأ رأيي ، إن علي ابن أبي طالب أعطي ثلاثاً لأن أكون أعطيتُ إحداهن أحب إلي مِن الدنيا وما فيها . لقد قال له رسول الله ﷺ يوم غدير خم بعد حمد الله والثناء عليه : هل تعلمون أني أولى بالمؤمنين ؟ قلنا : نعم ، قال : اللهم مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه . وجيء به يوم خيبر وهو أرمد ما يُبصر ، فقال : يا رسول الله ، إني أرمد . فتفل في عينيه ودعا له ، فلم يرمد حتى قتل ، وفتح عليه خيبر . وأخرج رسول الله ﷺ عمه العباس وغيره من المسجد ، فقال له العباس : تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علياً ؟ فقال : ما أنا أخرجتكم وأسكنته ، ولكن الله أخرجكم وأسكنه »[٣] .

١- رواه الترمذي في سننه ، وقال : حديث حسن غريب .
٢- رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب .
٣- أخرجه الحاكم في المستدرك .

❊ وعن أبي هريرة قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : « لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال ، لأن يكون لي خصلة منها أحب إلي من أن أعطى حمر النعم . قيل : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزويجه فاطمة بنت رسول اللهﷺ ، وسكناه المسجد مع رسول اللهﷺ يحل له فيه ما يحل له ، والراية يوم خيبر »[١] .

❊ وهو من المسلمين الأُول الذين صلوا إلى القبلتين ، فقد قالﷺ : « السبق ثلاث : السابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب »[٢] .

❊ وكان فدائياً للنبيﷺ ، حيث أمره النبي أن يبيت في فراشه ليلة الهجرة ليرد الأمانات إلى أهلها ، فتأخر في هجرته إنما كانت كرامة له .

❊ ومن فضائله أيضاً قولهﷺ : « علي مني بمنزلة رأسي من بدني »[٣] .

❊ وقالﷺ : « إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه ، وجعل ذريتي في صلب علي ابن أبي طالب »[٤] .

فلا يجوز لغير أهل بيت النبي أن ينتسبوا إليه ، فأهل النبي محصورون ومعروفون ، ومن انتسب إلى غير أبيه فهذا عمل إجرامي عظيم .

ومن انتسب إلى أهل البيت فعليه أن يحافظ على نسبه بالدين ، فهؤلاء

١- رواه أحمد في مسنده، وأبو يعلى في الكبير، وابن أبي شيبة في مصنفه .
٢- أخرجه الديلمي عن عائشة ، والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس .
٣- أخرجه الديلمي عن ابن عباس ، والخطيب عن البراء .
٤- رواه الطبراني عن جابر ، والخطيب عن ابن عباس .

هم خلاصة الأمة ، وهم النطفة الطاهرة التي بها نسقى ، وبها نرزق ، وهم الذين يكفينا الله الأعداء بهم إن حفظناهم وأكرمناهم ، وقمنا بحقوقهم .

❊ وروي عن عبدالله بن مسعود عن النبيﷺ قال : « إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي »[١] ، وهذه مزية كبيرة .

❊ وعن عمار بن ياسر قال : « وقف على علي بن أبي طالبؓ سائل وهو راكع في تطوع ، فنزع خاتمه فأعطاه السائل ، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه بذلك ، فنزلت على رسول اللهﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[٢] . فقرأها رسول اللهﷺ ثم قال : مَن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه »[٣] .

❊ وعن أبي الحمراء خادم رسول اللهﷺ قال : سمعت النبيﷺ يقول : « لما أسري بي إلى السماء ، دخلتُ الجنة فرأيت في ساق العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أيدته بعلي ونصرته »[٤] .

❊ وقال النبيﷺ : « علي مع القرآن ، والقرآن وعلي لا يفترقان حتى يَردا عليَّ الحوض »[٥] .

وهذه ضمانة من النبيﷺ ومن الله أن علياً سيبقى مع الحق ، ولن ينافق ويترك الحكم بالقرآن والعمل به ، ولن يميل للدنيا حتى يموت .

١- رواه الطبراني .
٢- الآية (٥٥) من سورة المائدة .
٣- رواه الطبراني في الأوسط .
٤- رواه الطبراني .
٥- رواه الطبراني في الأوسط .

* وقالﷺ كذلك بحقه : « هذا سيد العرب ، فقالت عائشة : ألستَ سيد العرب يا رسول الله ؟ فقال : أنا سيد العالمين ، وهو سيد العرب »[1] .

فإذا قلنا : إن علياً هو سيد الأمة لم نكن قد تجاوزنا حدنا ؛ لأن النبيﷺ قد سيّده .

* ويروى عن أبي سعيد الخدريﷺ عن النبيﷺ قال : « أُوصيكم بهذين خيراً - يعني علياً والعباس - ، لا يكفي عنهما أحد ولا يحفظهما إلا أعطاه الله نوراً يرد به علي يوم القيامة »[2] .

* وقالﷺ : « خير إخواني علي ، وخير أعمامي حمزة »[3] .

* وقد وصل إلى علي في خلافته أن معاوية يفتخر بنسبه بعد معركة صفين ، فقال لغلامه : اكتب إليه هذه السطور . فحمل القلم ووضع الدواة أمامه ، وكتب هذه الأبيات :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... غلاماً ما بلغت أوان حلمي

فلم يرد معاوية بكلمة واحدة على علي بعد هذا .

١- رواه البيهقي .
٢- رواه الديلمي .
٣- رواه ابن حجر في الإصابة من طريق عمرو بن أبي المقدام .

ففضائلهﷺ في كل شيء مشهورة غير منحصرة ، لم يشترك معه بها أحد من الصحابة ، لِما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كانت لعلي ثماني عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة »[١] .

وهذا لا يدل على أنه أفضل من أبي بكر ، إنما يدل على أنه مقرب عند الله تعالى ، عزيز عند النبي عليه الصلاة والسلام .

ذكر بعض كراماته

- يروى عن علي أن الشمس رُدَّتْ عليه لَمّا كان رأس النبيﷺ في حجره والوحي ينزل عليه ، وعلي لم يُصَلِّ العصر بعدُ . فما سُرّيَ عن النبيﷺ الوحي إلا وقد غربت الشمس ، فعاد النبيﷺ فرأى علياً بهذه الحالة ، فقال : يا رب إنه كان في طاعتك وطاعة نبيك ، فاردد عليه الشمس يا رب . فردَّ الله عليه الشمس ، فقام وصلى العصر ثم غابت[٢] .

- ومنها ما رواه الطبراني في الأوسط أن علياً حدّث بحديث فكذبه رجل ، فقال له علي : أدعو عليك إن كنت كاذباً ؟ قال : ادعُ . فدعا عليه ، فلم يبرح حتى ذهب بصره .

١- رواه الطبراني في الأوسط .

٢- صحّحه الطحاوي والقاضي عياض في كتابه الشفاء ، وحسّنه شيخ الإسلام أبو زرعة وتبعه غيره ، وردوا على جمع قالوا : إنه موضوع . وللسيوطي جزء في تتبع طرق هذا الحديث سمّاه (كشف اللبس في حديث رد الشمس) ، وختمه بقوله : ومما يشهد بصحة ذلك قول الشافعيﷺ وغيره : (ما أوتي نبي معجزة إلا أوتي نبينا ﷺ نظيرها أو أبلغ منها ، فقد صح أن الشمس حُبست ليوشع ليالي قاتل الجبارين ، فلا بد أن يكون لنبينا نظير ذلك) .

❋ ويروى أنهﷺ لما بعثه إلى اليمن قاضياً قال : يا رسول الله ، بعثني أقضي بينهم وأنا شاب لا أدري ما القضاء . فضرب رسول اللهﷺ في صدره وقال : اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه . قال : فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين[1] .

❋ وعن أبي مريم عن علي قال : انطلقت أنا والنبيﷺ حتى دخلنا الكعبة ، فقال لي رسول اللهﷺ : اجلس ، وصعد على منكبي . فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً ، فنزل وجلس لي نبي اللهﷺ وقال : اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه . قال : فنهض بي ، فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلتُ أفق السماء ، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس ، وجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله ، وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول اللهﷺ : اقذف به ، فقذفت به فتكسّر كما تتكسر القوارير . ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول اللهﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت ، خشية أن يلقانا أحد من الناس[2] .

❋ ومنها كذلك ما رواه البخاري ومسلم ، أن النبيﷺ قال لأصحابه عندما تأخر فتوح خيبر : لأُعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسولَه ، ويحبه الله ورسولُه .

١- رواه الترمذي والحاكم وابن ماجة والبزار عن علي ، ورواه ابن حبان عن ابن عباس عن علي .
٢- رواه أحمد وابنه ، والنسائي ، وأبو يعلى ، والبزار . ورواه الحاكم كذلك بسند آخر .

فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول اللهﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها .

وفي رواية أخرى ذكرها ابن أبي شيبة عن عمر يقول : ما تمنيت الإمرة إلا يومئذ ، فلما كان الغد تطاولت لها .

فقال النبيﷺ : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يشتكي عينيه يا رسول الله ، قال : فأرسِلوا إليه فَأتوني به . فلما جاء بصق رسول اللهﷺ في عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال علي : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

وحصل بعد ذلك أن احتملرضي الله عنه باب خيبر بيده اليسرى ، وقاتل به من الصباح إلى المساء ، وفتح الله تعالى على يديه . وعندما ألقاه أراد ثمانية من الصحابة أن يرفعوه فما استطاعوا ، وقيل : كانوا أربعين أو سبعين رجلا .

وبالمناسبة هناك أبيات ذكرها الإمام الباجوري مَن حفظها عافاه الله من الرمد ، وأنا أعتقد بذلك ومنذ حفظتها ما رأيت رمداً صحيحا ، فمن أراد منكم فليحفظها ، وهي :

يا ناظريَّ بيعقوب أعذيكما ... بما استعاذ به إذ مسّه الكمد
قميص يوسف إذ جاء البشير به ... بحق يعقوب اذهب أيها الرمد

وكرامات سيدنا علي كرم الله وجهه كثيرة ، إنما أتيت بنموذج لأبين بأنه ولي الله وحبيبه ، وقريب منهجل جلاله .

١- بمعنى يخوضون ويتحدثون .

البيعة لسيدنا علي بالخلافة
وما كان من أمر الصحابة في ذلك

لقد اختلف في كيفية بيعة سيدنا علي ﷺ ، فقيل : إنه لما قتل سيدنا عثمان استحلّ المصريون المدينة ستة أيام ، وساحت الأمور كثيراً ، أخذوا فيها الأموال وفعلوا وفعلوا . ثم اجتمعوا على أن ينصبوا إماماً ، حيث إذا رجعوا إلى ديارهم سيسألهم قومهم : ماذا فعلتم ؟ قتلتم الإمام وأتيتم إلينا ؟ تركتم بلاد المسلمين وعاصمة ديار المسلمين بدون إمام ؟

فأتوا علياً فقال : أنا لست أهلاً لذلك ، وأتوا طلحة فقال : لا أريدها ، وأتوا الزبير فقال كذلك ، فأتوا سعد بن أبي وقاص وقال : دعوني من هذا الشأن ، وأتوا عبدالله بن عمر فلم يرد عليهم بخبر .

الكثير من الصحابة تخلّوا ، فرفع المصريون سيوفهم وقالوا : إذا لم تستجيبوا لنا قتلناكم . وقرّروا أن يقتلوا علي بن أبي طالب ، وطلحة ، والزبير ، وكبار الصحابة . وقد اشترك معهم كذلك عدد من أهل البصرة والكوفة .

فكان لا بد من اجتماع كلمة أهل المدينة ، ومن بيعة أمير . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، فأتوا علياً في بيته ، وقيل : في بستان جلس فيه وابتعد عن مواطن الفتن ، وقيل : في بيت عمرو بن مبذول. وقالوا له: إنه لا بد من إمام ، فقال : إنه لا حاجة لي في أمركم ، مَن اخترتم رضيتُ به . قالوا : لا نختار غيرك ، فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً مِن أن أكون أميراً . فقالوا : والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك أنت . فعندما رأى علي إصرارهم على بيعته قال : إذاً في المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

وهناك أقوال كثيرة غير هذا القول إنما هذا المعتمد .

فخرج علي إلى المسجد يتوكأ على قوس بيده ، فقام الناس فبايعوه . وكان أول من بايع طلحة بن عبيدالله ، حيث قيل : إنه جاء وبايع إسكاتاً للفتنة . وقيل : أخذوه بالسيف وساقوه سوقاً ، ولا زالوا يضربونه بالسيف ويدفعونه حتى أوصلوه إلى علي فبايع إكراهاً . وهكذا فعلوا مع الزبير .

وقيل : بل بايعا بدون إكراه ، حيث قال لهما علي : إن أحببتما تبايعاني ، وإن أحببتما أبايعكما . فقالا : بل نبايعك ، وهذا هو القول المعتمد .

وأما سعد بن أبي وقاص ، فجاءوا به دفعاً بالسيف : إما أن تبايع أو أن نقتلك ، فبايع ثم تركوه . وهناك قول آخر أن سيدنا علياً قال له : بايع ، فقال : لا حتى يبايع الناس ، والله ما عليَّ منك بأس . فقال : خلوا سبيله .

وجاءوا كذلك بعبدالله بن عمر فقال مثل ما قال سعد ، فقال علي : ائتني بكفيل يكفلك ، فقال : لا أرى كفيلاً . فقام الأشتر وقال : دعني أضرب عنقه ، فقال علي : أنا كفيله بألا يفعل شيئاً تكرهه .

وبايع الأنصار سوى نفر يسير تأخروا ثم بايعوا ، ومنهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وأبو سعيد الخدري ، وزيد بن ثابت .

فإمارة سيدنا علي ليس مشكوكا فيها ، وبيعته لم تكن كبيعة غيره بجو مليء بالنور والإيمان ، إنما كانت أشد الثلاث . الدماء سائلة بالمدينة ، والنهب جار ، والسيف مرفوع عليهم ، والناس همج وفوضى بين مَن يريد الانتقام حالا ، وبين مَن يطلب الانتظار .

يروى أنه بعد أن بويع سيدنا علي رضي الله عنه في المسجد ، رجع إلى بيته فدخل عليه طلحة والزبير في عدد من الصحابة ، فقالوا : يا علي ، إنا قد اشترطنا إقامة

الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل ، فقال لهما : يا إخوة ، إني لست أجهل منكم ، ولكن كيف نصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد سارت معهم عبدانكم ، وسابت إليهم أعرابكم وهم في قوة ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرتي عليهم ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله لا أرى إلا ما ترون أبداً إلا أن يشاء الله أمراً . ثم ذكر علي بأنه إذا هدأت الأمور ، وقعدت القلوب في مواقعها أن يأخذ الحقوق ، وأن يؤدي ما يجب عليه في هذا الأمر .

ثم قام سيدنا علي بعد بيعته وفرّق عماله على الأمصار ، فعيّن عبدالله ابن رافع مولى رسول اللهﷺ كاتباً ، وقد ولاه أيضاً على بيت المال .

وكتب له كذلك في إمارته سعيد بن نمران الهمداني .

كما عيّن شريح بن الحارث قاضيا . ومعقل بن قيس الرياحي صاحب شرطة ، وقيل : سليمان بن صُرد .

وكان نقش خاتمهرضي الله عنه : (المُلك لله الواحد القهار) .

ثم كتب علي إلى معاوية ، وإلى أبي موسى الأشعري . فأجابه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة ، وبيّن له الكاره منهم .

وأما معاوية فإنه أرسل إلى علي بكتاب مع قبيصة العبسي ، وقال له : إذا وصلتَ المدينة فارفع الكتاب بيديك ليراه الناس ، ثم ادخل على علي وأعطه الكتاب . ففعل ، ففتح علي الكتاب وإذ رأى كتاباً لا كتابة فيه ، فقال للرسول : ما شأنكم ؟ قال : أتومّنني ؟ قال : نحن لا نقتل الرسل . فذكر له العبسي بعد أن أمّنه : إن القوم لا يرضون إلا بالقَوَد ، قال : ممن ؟ قال : من خيط رقبتك .

ثم يقول العبسي : تركت ستين ألفاً من أهل الشام من شيوخهم يبكون قميص عثمان . فجلس يومها علي وشاور أصحابه : ماذا تصنعون ؟ فقالوا له : أنت الأمير وتسير بنا كيف تريد .

وقيل : دخل عليه المغيرة بن شعبة وكان محنكاً وذا رأي وخدعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لك عندي نصيحة . قال : وما هي ؟ قال : إن أردتَ أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة بن عبيدالله على الكوفة ، واستعمل الزبير بن العوام أميراً على البصرة ، وابعث كتاباً إلى معاوية بن أبي سفيان وثبته على إمارة الشام حتى تلزمه طاعتك ، فإذا استقرت لك الخلافة وهدأت الأمور فادرأهم كيف شئت برأيك . فقال علي : أمّا طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما ، وأمّا معاوية فلا يراني الله مستعملاً له ولا مستعيناً به ما دام على حاله ، ولكني أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فإن أبى حاكمته إلى الله تعالى . فانصرف المغيرة مغضباً لمّا لم يقبل منه علي هذه النصيحة .

فقد كان رأي سيدنا علي أن يُسكن الفتنة ، وبعدها يقوم ويطبق حكم الله عليهم واحداً واحداً ؛ لأنه لو طلب دم قتلة عثمان لما سلّموه ولوقعت مذبحة أكبر .

وفي اليوم الثاني جاء المغيرة وقال : يا أمير المؤمنين ، إني فكرت في الأمر فرأيت رأيك مقدماً على رأيي . فسأله يومها الحسن – وقيل : العباس – : مَن هذا الأعور ؟ وكانت قد قُلعت عينه في معركة اليرموك ، فقال : إنه المغيرة ، قال : ماذا يريد ؟ قال : في اليوم الأول قدّم النصيحة ، واليوم يأتي ويقول : رأيك هو المقدم . فقال الحسن – أو العباس – : يا علي ، إنه في اليوم الأول نصحك وكان صادقاً ، وأما في اليوم الثاني فإنه قد راوغك .

هكذا كان الأمر صعباً ، فبمقتل سيدنا عثمان فتح باب الفتنة على مصراعيه . وسيدنا علي استقبل أمراً لو يتصوره كل واحد منا لقال : يحتاج إلى حلم الله ، ولو تصورتُ نفسي في تلك الأيام لوجدت صعوبة بالغة في إعطاء الحل .

فكانت هذه الأحداث بداية لمعارك قادمة واجهها سيدنا علي بكل قوة وحزم .

نبذة عن أخلاقه وحياته في خلافته

لقد بدأ سيدنا علي ورضع من حليب رسول اللهﷺ ، فكان موفقاً بأن تأثر بالنبيﷺ وانتفع ، وأخذ من أخلاقه كثيراً ، وعاش مجاهداً ومكافحاً بين يديه .

وجامع أخلاق سيدنا علي ما رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي صالح قال : دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية ، فقال له : صِف لي علياً ، فقال : أوتعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قال : أما إذ لا بد ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى . يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من نواحيه . يستوحش من الدنيا وزهرتها ، يستأنس بالليل وظلمته . كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه . يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب . كان والله كأحدنا ، يُدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم . يُعظّم أهل الدين ، ويحب المساكين . لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يميل في محرابه ، رأيته قابضاً على لحيته

يتململ تململ السليم[1] ، ويبكي بكاء الحزين . فكأني أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا ، يتضرع إليه . ثم يقول للدنيا : إليَّ تغررتِ ؟ إلي تشوفتِ ؟ هيهات هيهات . ويقول : غُرّي غيري ، قد بتتك ثلاثاً ، فعمركِ قصير ، ومجلسكِ حقير ، وخطركِ يسير . آه آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق . فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال : كذا كان أبو الحسن رحمه الله ، كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد مَن ذبح واحدها في حجرها ، لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها . ثم قام فخرج .

وكانت هذه الحادثة بعد أن سافر سيدنا علي إلى الله تعالى .

❊ شجاعته وقوته :

كان رضي الله عنه بطلاً قوياً شجاعاً منصوراً على مَن لاقاه دائماً .

وكان ثبت الجنان ، شديد الساعد واليد ، إذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه وروحه . وإذا مشى إلى الحرب هرول ، لا يلتفت حتى يحقق الهدف .

روى الحاكم في المستدرك عن ابن إسحاق ما مختصره : كان عمرو بن عبد ود بطلاً مشهوراً في العرب ، وكان قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، ولم يشهد أحداً . فلما كان يوم الخندق طلب مبارزاً ، فقام علي وهو مقنع في الحديد فقال : أنا له يا نبي الله ، فقال : إنه عمرو بن عبد ود ، اجلس . فنادى عمرو : ألا رجل ، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي ، فمشى إليه علي رضي الله عنه وهو يقول :

١- أي العليل .

لا تعجلـــــن فقـــــد أتـــــاك مجيـــب صـــوتك غيـــر عـــاجز
ذو نبهـــــــة وبصـــــــيرة والصـــدق منجـــا كـــل فـــائز
إنـــــي لأرجـــــو أن أقـــــيم عليـــــك نائحـــــة الجنـــــائز
مـــــن ضـــــربة نجـــــلاء يبقـــى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا علي ، قال : ابن من ؟ قال : ابن عبدمناف ، أنا علي بن أبي طالب . فقال : عندك يا ابن أخي مِن أعمامك مَن هو أسن منك ، فانصرف إني أكره أن أهريق دمك . فقال علي : لكني والله ما أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو فسلّ سيفه ثم أقبل نحو علي مغضباً ، واستقبله علي بدرقته ، فضربه عمرو في الدرقة فقدّها وأثبت فيها السيف ، فأصاب علي رأسه فشجه ، وضربه على حبل العاتق فسقط وثار العُجاج ، فسمع رسول اللهﷺ التكبير فعرف أن علياً قتله .

* زهده وتواضعه :

روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : « لقد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع ، وإن صدقتي لتبلغ في اليوم أربعة آلاف دينار»[1] .

وقال الواقدي : كان مع عليرضي الله عنه أربعة دراهم ، فتصدق بواحد ليلاً ، وبواحد نهاراً سراً ، وتصدق بواحد علانية ، وبواحد بعد ذلك جهراً ، فنزل بحقه قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] .

١- رواه الإمام أحمد .
٢- الآية (٢٧٤) من سورة البقرة .

سيدنا علي كان سبب نزولها ، إنما هي آية عامة وشاملة للأمة الإسلامية . تصدّق وقصد وجه الله ولم يقصد مدحاً أو فخراً ، وكل مَن قام بمثله فإنه ممدوح عند الله ﷻ .

وعن عمرو بن قيس أن علياً رئي عليه إزار مرقوع ، فعوتب في لبوسه فقال : يقتدي بي المؤمن ، ويخشع له القلب[1] .

وقال علي بن الأقمر عن أبيه : رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له في السوق ، ويقول : مَن يشتري مني هذا السيف ؟ فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته[2] .

وكان رضي الله عنه لا يترك في بيت المال إلا ما يعجز عن قسمته في يوم .

يروى أن خازن بيت المال ناداه يوماً وقال له : امتلأ بيت المال بالصفراء والبيضاء ، فقام يهرول ودعا جميع أشياخ الكوفة ومَن له عطاء ، ولا زال يعطي ويعطي حتى لم يترك في بيت المال درهماً ولا ديناراً .

وذكر ابن حنبل في فضائل الصحابة وابن أبي عاصم في الزهد أن علياً كان يأمر ببيت المال فيكنس ، ثم ينضح ، ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين .

* عدله وصلابته في الحق :

هو مؤمن صلب بعقيدته ، لا يعرف المراوغة ولا المواربة . إنما علّمه النبي ﷺ أن يكون في حياته ، في حكمه ، في قضائه ، وفي أموره كلها وسطاً .

١، ٢- رواه أبو الفرج في صفوة الصفوة ج١ ص٣١٨ .

وهكذا عاش على قدم النبيﷺ فيما عهد له .

يروى عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال : « شكا الناس علياً ، فقام رسول اللهﷺ خطيباً فقال : يا أيها الناس ، لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخيشن في ذات اللهعزوجل »[1] .

وكانرضي الله عنه صلباً في حقوق الله ، ما كان يماري في الحق أحداً لا سيما في أموال المسلمين وعلى أقربائه ، فقد كان شديداً للغاية .

أخرج الذهبي عن حميد بن هلال قال : سأل عقيل علياً وشكا حاجته ، قال : اصبر حتى يخرج عطائي . فألح عليه فقال : انطلق فخذ ما في حوانيت الناس ، قال : تريد أن تتخذني سارقاً ؟ فقال : وأنت تريد أن تتخذني سارقاً وأعطيك أموال الناس ؟ فقال : لآتينّ معاوية ، قال : أنت وذاك .

فسار إلى معاوية ، فأعطاه مائة ألف وقال : اصعد على المنبر فاذكر ما أوْلاك علي وما أوْلَيْتك . فصعد وقال : يا أيها الناس ، إني أردتُ علياً على دينه فاختار دينه علي ، وأردت معاوية على دينه فاختارني على دينه .

وكذلك روي عن عمرو بن يحيى عن أبيه قال : أهدي إلى علي بن أبي طالب أزقاق سمن وعسل ، فرآها قد نقصت فسأل ، فقيل : بعثت أم كلثوم فأخذت منه . فبعث إلى المقوّمين فقوّموا النقص بخمسة دراهم ، فبعث إلى أم كلثوم : ابعثي إليّ بخمسة دراهم[2] .

١- رواه أبو نعيم في الحلية .
٢- رواه أبو الفرج في صفوة الصفوة ، ج١ ص٣٢٠ .

وكانﷺ يسير في إمارته بسيرة أبي بكر الصديق في تقسيم الفيء ، ولم يكن يستأثر من الفيء بشيء لنفسه ، ولا يخص به حميماً ، ولا قريباً ، ولا ولداً ، ولا زوجة .

* ورعه وتقواه :

كانﷺ في إمارته يحمل العصا ويمر في الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يأمر بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وحُسن البيع ، والوفاء ، والكيل الصحيح والميزان . ويقول : يا قوم ، اتقوا الله فإنكم مسؤولون يوم القيامة عن هذه الأمور .

وكان دائماً على عماله في الأمصار مراقباً ، يحاسبهم على الصغيرة والكبيرة ، إذا سمع أن عاملاً من عماله رفع رأسه ، أو فعل ، أو تغيّر ، أو ظلم ، فحالاً يغيره أو يؤنبه .

وكانﷺ يمثل الإمارة تمثيلاً صحيحاً وما أخذ عليها من ثمن .

يروى عن أبي مطرف قال : رأيت علياً مؤتزراً بإزار ، مرتدياً برداء ، ومعه الدرة كأنه أعرابي يدور حتى بلغ سوق الكرابيس[1] ، فوقف أمام شيخ فقال : يا شيخ ، أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم ، فلما عرفه الشيخ أراد أن يعطيه القميص بدون ثمن ، فتركه علي وسار إلى حانوت آخر به غلام حدث لا يعرفه ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم . ثم جاء أبو الغلام فقال له الغلام : بعت ذلك الرجل ، فقال : هذا أمير المؤمنين . فأخذ درهماً ثم جاء به علي بن أبي طالب ،

---

١ ـ القطن .

فقال : هذا الدرهم يا أمير المؤمنين ، قال : ما شأن هذا الدرهم ؟ قال : كان قميصنا ثمنه درهمين ، فقال : باعني رضاي وأخذ رضاه ، فلا أرد ذلك[١] .

وقد رفض علي ذلك ؛ لأنه اعتبرها رشوة على إمرة المؤمنين .

❋ سعة علمه وحفظه للقرآن :

قال مسروق : « انتهى علم أصحاب النبيﷺ إلى هؤلاء النفر : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومعاذ ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي الدرداء ، وأبي موسى الأشعري »[٢] .

وقال أيضاً : « القضاة أربعة : عمر ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري »[٣] .

وقال عبدالله بن مسعودرضي الله عنه : « كنا نتحدث أنَّ أقضى أهل المدينة علي ابن أبي طالب »[٤] .

فكان حالاً يلهم القضاء ، ويقضي بالحق . وقد كان في عهد أبي بكر وعمر قاضياً ، ومرجعاً في المعضلات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « أعطي علي تسعة أعشار العلم ، ووالله لقد شاركهم في العشر الباقي »[٥] .

١- رواه عبدالرحمن أبو الفرج في صفوة الصفوة ج١ ص٣١٧ .
٢- أخرجه الحاكم في المستدرك .
٣- أخرجه الحاكم في المستدرك .
٤- رواه الحاكم وصحّحه ، والبزار .
٥- أخرجه أبو زكريا في تهذيب الأسماء ج١ ص٣١٧ .

وكانﷺ أعلم الناس بالفرائض ، وله في ذلك أخبار منها ما قاله رزين ابن حبيش أنه أتته امرأة وهو على المنبر يخطب أمام المسلمين ، وتظلّمت فقالت : إن أخي قد مات وخلّف ستمائة دينار ، وأعطيتُ ديناراً واحداً . فقال لها علي : لعل أخاك ترك زوجة ، وأماً ، وبنتين ، واثني عشر أخاً ، وأنتِ ؟ قالت : نعم ، فقال : هذا حقك .

وهذه المسألة مشهورة ومسطورة في كتب الفقه في علم المواريث ، وتسمى المسألة المنبرية أو الدينارية . وهي تدل على حفظ علي لعلم المواريث ، وكثرة علمه في هذا المجال . وكذلك على نباهته وسرعة بديهته ، وقوة إدراكه وفهمه .

كما كان علم القرآن كله عند عليﷺ ، فيقول في ذلك : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت ، وأين نزلت ، وعلى مَن نزلت . إنَّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً نطوقاً »[1] .

وقال أيضاً : « سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار ، في سهل أم في جبل »[2] .

ويقول : « والله لو أردت أن أملأ من تفسير سورة الفاتحة وقر بعير لفعلت » . وفي رواية أخرى : وقر عشرين بعيراً .

ومما يدل على حفظه للقرآن ما أخرجه ابن سعد في طبقاته عن محمد ابن سيرين قال : نبئت أن علياً أبطأ عن بيعة أبي بكر ، فلقيه أبو بكر فقال : أكرهتَ إمارتي ؟ فقال : لا ، ولكن آليت بيمين أن لا أرتدي بردائي

١- رواه أبو نعيم في الحلية ، وابن سعد في طبقاته إلا أنه قال : ولساناً طلقاً .
٢- رواه ابن سعد في طبقاته .

إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن . قال : فزعموا أنه كتبه على تنزيله . قال محمد : فلو أصيب ذلك الكتاب كان فيه علم .

وليت هذه النسخة وصلت إلى أيدي التابعين أو الصحابة ، لتعلّمنا منها كثيراً لما فيها من العلوم الكثيرة .

بعض من كلامه ونصائحه

❋ يقول سيدنا علي : « تمنيت أن يكون عنقي كعنق البعير حتى أفكر بالمسألة قبل أن تخرج من صدري على لساني » .

❋ وقال رضي الله عنه : « ألا إن الفقيه الذي لا يُقنط الناس من رحمة الله ، ولا يُؤمّنهم من عذابه ، ولا يُرخّص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره » .

وتفسير ذلك أن الفقيه هو الذي يجعل الناس بين خائف وبين راجٍ ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

❋ وقال رضي الله عنه : « لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فَهْمَ فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها » .

فالعبادة التي لا علم فيها مجهولة ، والجاهل عبادته غير صحيحة ومرفوضة ، فلا بد لكل عابد من علم ليعمل به وإلا رُفضت عبادته .

❋ وعن الشعبي أن علياً كرم الله وجهه قال : « يا أيها الناس ، خذوا عني هؤلاء الكلمات ، فلو ركبتم المطي حتى تنضوها[1] ما أصبتم مثلها : لا يَرجونّ عبد

١ـ أنضى الدابة أي هزلها وأتعبها .

إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحيي إذا لم يعلم أن يتعلم ، ولا يستحيي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم . واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس له » .

يعني بذلك أن لا تقصد بعملك إلا وجه الله وإلا كان شركاً أصغر ورياء لا ثواب عليه، ولا تخف من عدو بل خف من ذنبك أكثر من خوفك من عدوك.

❊ وقال عليرضي الله عنه : « ما أبردها على كبدي إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول : الله أعلم » .

❊ وقال كميل بن زياد وكان واقفاً وكاتباً لعلي : « أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبّانة[1] ، فلما أصحرنا جلس ثم تنفس ، ثم قال : يا كميل ابن زياد ، القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للعلم . احفظ ما أقول لك » .

❊ وقال سيدنا علي : « الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق » .

وهذا هو البلاء في زماننا ، وهؤلاء هم أَحَدُّ على الإسلام والمسلمين من الكافرين . فالإنسان يجب أن يكون له عالم يثق به ليسير معه وليستقيم .

والعالم الرباني هو العالم الذي يعمل بعلمه ، ويقصد به وجه الله لا الدنيا . العالم الرباني عليه أن يعطي كل موضوع حقه ، وأن يكون ثابتاً في عقيدته وإيمانه .

١- هي المقبرة .

❊ وقالﷺ : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم يزكو بإنفاقه على العمل ، والمال تنقصه النفقة . العلم حاكم والمال محكوم عليه ، وصنيعة المال تزول بزواله ، ومحبة العلم دين يدان بها . العلم يكسبه الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد مماته . مات خزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة » .

❊ وقال : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك. ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين : رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات . ولا يَقِلُّ عمل في تقوى ، وكيف يقل ما يُتقبل؟ » .

❊ وروى أبو نعيم في الحلية عنهﷺ أنه قال : « أشد الأعمال ثلاثة : إعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواساة الأخ في المال » .

❊ وقال كرم الله وجهه : « الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على مخالطة الكلاب » .

❊ وقالﷺ: « مَن أراد أن يُنصف الناس من نفسه ، فليحب لهم ما يحب لنفسه » .

❊ وقالﷺ : « سبع من الشيطان : شدة الغضب ، وشدة العطاس ، وشدة التثاؤب ، والقيء ، والرعاف ، والنجوى ، والنوم عند الذكر » .

❊ وقال أيضاً : « التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميراث ، ولا وحشة أشد من العجب » .

ذكر معركة الجمل

اجتماع السيدة عائشة والزبير وطلحة في مكة على المطالبة بدم عثمان ومسيرهم إلى البصرة :

بعد بيعة سيدنا علي استأذن طلحة والزبير بن العوام لأداء العمرة ، والتقيا هناك مع السيدة عائشة زوج رسول اللهﷺ . حيث عندما سمعت بأمر الحصار ذهبت إلى مكة لأداء الحج ومعها جميع أمهات المؤمنين ، وفي العودة سمعت بمقتل عثمان فرجعت إلى مكة .

وهناك وقفت أمام الكعبة وفي الحِجر ، واجتمع عليها أمير مكة عبدالله ابن عمرو الحضرمي ، وانضم إليه عدد كبير ممن وُجد بمكة . فطلبت من المسلمين أن يقفوا مع كتاب الله ، وكانت تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . ثم قالت : أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، ومن عبيد أهل المدينة ، اجتمعوا إلى قتل هذا الرجل ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدث من أبناء عمه ومن أبناء قومه ، فقتلوا وسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ونهبوا المال الحرام . ثم قالت : والله لأطالبن بدم عثمان ، ولإصبع واحد مِن عثمان خير من طباق الأرض من أمثال هؤلاء القتلة ، ووالله لو كان الذي اعتدوا به عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من الخبث ، والثوب من الدنس عند الغسيل .

فقال يومها عبدالله بن عمرو الحضرمي : هأنذا أول طالب بدم عثمان معك ، وأجاب بعده بنو أمية على ذلك وكانوا قد هربوا من المدينة إلى مكة بعد مقتل عثمان ، وتبعه سعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وقدم عليهم عبدالله بن عامر

من البصرة بمال كثير ، ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف دينار . وانضم إلى هذا العدد أعداد كثيرة .

ثم ينادي منادي السيدة عائشة : إن أم المؤمنين ، وطلحة ، والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن أراد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بالثأر لعثمان ، وليس له مركب ولا جهاز فليأت ليأخذ ذلك . فاجتمع عدد وصل إلى الثلاثين ألفاً .

أما أمهات المؤمنين فإنهن رفضن ذلك وانطلقن إلى المدينة ، وفي الطريق بكين بكاء شديداً على الإسلام ، وسمي ذاك اليوم بيوم النوح والبكاء .

وهكذا ذهب بعائشة إلى البصرة ، وأقنعت بأنها ستنال ما تريد من الصلح ولن تكون الدماء ، وكانت على جمل أورق أحمر .

وعائشة ما أرادت يومها دماً ، ولا أرادت قتالاً ولا مبارزة ، إنما أرادت أن يصطلح المسلمون ، وأن يجتمعوا كإخوان في الله .

وفي الطريق وصلوا إلى مكان وسمعت عائشة نباح الكلاب ، فقالت : أين نحن ؟ فقالوا : في حَوْأب ، فقالت : قفوا هنا فإني لن أسير معكم ، فقال لها الزبير : يا أماه ، سيري بنا لنتمم الطريق . قالت : لا ، إن كلاب حوأب تنبحنا ، والنبيﷺ قال وأعلم أن كلاب حوأب ستنبح واحدة ، وأنا هذه الواحدة ، وأريد أن أرجع إلى المدينة . فحاول إقناعها فلم تقبل ، ثم قال : لسنا نحن في حوأب ، فقالت : مع هذا أريد أن أرجع إلى المدينة ، وأصرّت على ذلك . فقال لها : هذا علي قد جاء بجماعته ، فعندها تمت مسيرها حتى وصلت البصرة .

وكان عامل البصرة موالياً لسيدنا علي ، فأرسل يومها عمار بن ياسر وقال : اذهب إلى أم المؤمنين وانظر ماذا تريد . فذهب إلى هودجها وقال : يا أماه ، علام أتيتِ ؟ قالت : يا بني ، إننا أتينا لنصلح بين المسلمين ، ولنحكّم كتاب الله وسنة نبيه . وقرأت قول الله ﷻ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1] . فقال : يا أماه ، هل تريدين غير ذلك ؟ قالت : لا ، فقال : إذاً أرسلي خلف الزبير وطلحة لأتكلم معهما بحضرتك ، فتسمعي حديثي معهما .

فأتى الزبير وطلحة ، فقال عمار : إن أم المؤمنين تقول : إنها تريد الإصلاح بين الناس ، وإنها تريد أن تجمع الكلمة وأن توحد الصف ، وإنها تريد أن يكون المسلمون أقوياء ، فماذا تريان أنتما ؟ أتأخذان برأي أم المؤمنين ؟ قالا : نعم ، على أن يُحكّم القرآن بيننا .

ويرجع عمار إلى أمير البصرة ، ويخبره أنهم اتفقوا على أن يصلحوا بين الناس ، فقال : هذا الرأي المصيب .

مسير علي إلى البصرة وإرساله القعقاع طليعة له :

بعد وصول السيدة عائشة ومَن معها من المسلمين البصرة ، أرسلوا إلى علي رضي الله عنه يذكرون له ذلك ، وكان يومها قد ندب المسلمين للذهاب إلى بلاد الشام لمقابلة معاوية . فغيّر قصده وجعل مسيره إلى بلاد البصرة ، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين من الهجرة .

١- الآية (١١٤) من سورة النساء .

وفي الطريق أرسل علي القعقاع بن عمرو إلى البصرة ، وطلب منه أن يلقى طلحة والزبير وأن يطلب منهما الأُلفة للجماعة ، والمحبة ، والوئام ، والصلح .

ووصل يومها القعقاع قبل علي بكثير ، وهناك التقى بالسيدة عائشة وقال لها : يا أماه ، علام أتيتِ إلى البصرة ؟ قالت : أتيت لأُصلح بين الناس ، قال : إذاً أحب أن تسمعي حديثي مع الزبير وطلحة .

وأرسلت خلفهما ، وتكلم معهما بحضرة الجميع ، واتفقوا على أن يُحكّم الجميع كتاب الله ، وأن يصطلح الجميع على الرجوع إلى الله ﷻ ، وأن يجمعوا كلمة المسلمين .

ورجع القعقاع وأخبر علياً بالاتفاق ، فارتاح علي لما توصل إليه القعقاع .

وصول علي إلى البصرة ومراسلته طلحة والزبير :

وصل علي رضي الله عنه ومَن معه البصرة ، والتقى الفريقان عند موقع قصر عبدالله ابن زياد ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين .

فلما تراءى الجمعان ، خرج الزبير على فرس عليه سلاح ، فقيل لعلي : هذا الزبير ، قال : أما إنه أحرى الرجلين إنْ ذكّر بالله أن يذكره . وخرج طلحة على خيل ، فخرج إليهما علي فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم . فقال علي : لعمري لقد أعددتما سلاحاً ، وخيلاً ، ورجالاً ؟ إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما ؟ فهل من حدث أحل لكما دمي ؟ قال طلحة : ألبت الناس على عثمان رضي الله عنه ، قال علي : ﴿ يَومَئِذٍ يُوفِيهِمُ اللَّهُ

دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[1] . ثم قال : يا طلحة ، تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان . يا طلحة ، أتيت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبّأت عرسك في البيت ؟

ثم قال علي للزبير : ما أخرجك ؟ قال : أنت ، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ، ولا أوْلى به منا . فذكّره علي بأشياء فقال له : يا زبير ، أتذكر يوم مررتَ مع رسول الله ﷺ في بني غَنْمٍ ، فنظر إليّ النبي فضحك وضحكتُ إليه ، فقلتَ : لا يَدَعُ ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله ﷺ : صه ، إنه ليس بزهو ، ولتقاتله وأنت له ظالم . فقال : اللهم نعم ، ولو ذكرتُ ما سِرْتُ مسيري هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . فانصرف علي إلى أصحابه فقال : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم .

وبعد انصراف سيدنا علي ، رجع الزبير إلى عائشة فقال لها : ما كنتُ في موطن منذ عقلتُ إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا ، قالت : فما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب . فقال له ابنه عبدالله : وما يردك يا أبتاه ؟ قال : يردني ما لو علمته أنت لصرفك عن مراده ، فقال : بل رأيت عيون ابن هاشم تحت المفاخر فراعك ذلك ، وعلمت أن سيوفهم حداد ، وثمنها فتية أنجاد . قال : أمثلي يخشى من ذلك يا عبدالله ؟ إني قد حلفت ألا أقاتله ، فقال : كَفِّر عن يمينك وقاتله ، فدعا بغلام له يقال له : مكحول فأعتقه .

وفي عشية المعركة بعث عليٌّ ابنَ عباس إلى طلحة والزبير ، وهما بعثا محمد ابن طلحة . وحصلت مفاوضات كثيرة بينهم ، وحاول ابن عباس أن يجمع

١ـ الآية (٢٥) من سورة النور .

الصف ، وأن يُذهب ما بالأمر من حِدّة ، ويحافظ على دماء المسلمين ، وتكلم بما يرضي الله ﷻ . ثم رجع ابن عباس وبات الناس بخير ليلة وقد التأم الأمر ، فشعر كل من الطرفين بأن الآخر يريد أن يجمع الصف .

وأما أهل البصرة فإنهم قبل المعركة افترقوا إلى ثلاثة أقسام : قسم انضم إلى علي وكانوا عشرين ألفاً ، وقسم انضم إلى عائشة وطلحة وكانوا ثلاثين ألفاً ، وقسم اعتزل القتال .

ابتداء وقعة الجمل :

كانت معركة الجمل فاجعة لا يرضاها علي ، ولا يرضاها كذلك غيره ، إنما قضاء الله هو الذي حصل .

وقد سُمّيت المعركة بذلك لأن السيدة عائشة كانت توضع في هودج على ظهر البعير ، والناس كلهم التفوا حول الجمل ، هي تطالب بالصلح إنما الآخرون الذين استغلوا الموضوع يطالبون بسفك الدماء ، والإسراع بالقصاص ممن كانوا خلف مقتل سيدنا عثمان .

وكان ابتداء أمرها أن أصحاب الدماء الذين اشتركوا في دم عثمان انزعجوا لهذا الصلح وكانوا خمسمائة بعد الألفين ، وكانوا يسيرون مع علي باسم أنهم يريدون الصلح بين المسلمين ، وهم في الحقيقة يُسِرُّون أشياء ثانية .

وكان ابن السوداء عبدالله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي ادّعى الإسلام ودخل دسيسة ليوقع بين المسلمين ، هو الذي ألقى الفتنة بين المسلمين ، وهو الذي كان يشعلها بين حين وآخر حيث لم يعجبه الاتفاق . فاجتمع سراً مع مَن اتفقوا

على قتل عثمان وقال لهم : هذا الاتفاق يقوم على سفك دمائنا ، قالوا له : فما العمل ؟ قال : يجب أن نهيّجها وبدون هوادة ، ويجب أن تقع الحرب بينهم .

وتبادلوا الحديث كثيراً ، ثم انتهوا برأي ابن سبأ وهو يقول : إذا اجتمع الصفان فإنا نبادلهم القتال دون أن يعرف أحد ، فيظن كل فريق من الفريقين بأن الآخر بادله وغدر به ، فتكون المعركة وننجو من سفك دمائنا . وافترقوا على ذلك .

وفي صبيحة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، وفي غلس بعد أذان الصبح مباشرة ، قام هؤلاء الألفان والخمسمائة وهجموا على الجيش ، فظن طلحة والزبير أن علياً غدر بهم ، وأصروا على سفك الدماء . وعلي عندما سمع الضجة سأل ، فقالوا له : إن القوم قد غدروا بنا .

وبدأت المعركة التي لم تكن منتظرة ، وقد فرضت عليهم فرضاً . ونادوا عائشة وكانت بين البيوت ، وأتي بجملها ووقفت في خضم المعركة .

ثم التقى الزبير مع سيدنا علي وسمع منه الحديث ، ورجع ولم يقاتل . وأصيب طلحة بسهم في رجله ، فترك المعركة وذهب إلى البصرة ولم يقاتل ، وبقي هناك حتى كانت منيته . ثم انفض الناس بعد أن ذهب بطلا المعركة .

مقتل طلحة :

هو أبو محمد طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التميمي . فهو أقرب العشرة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، يجتمع نسبه مع نسب أبي بكر في عمرو بن كعب بن سعد ، ومع نسب رسول الله ﷺ في مرة بن كعب .

أمه هي الصعبة بنت عبدالله بن عَبّاد – وقيل : عماد – الحضرمية .

كان يُعْرَف بطلحة الخير ، وطلحة الفيّاض . حيث ذكر أنه اشترى مالاً بموضع يقال له : بيسان ، فقال له رسول اللهﷺ : ما أنت إلا فيّاض ، فسُمّي بذلك من يومئذ .

كانرضي الله عنه رجلاً آدم ، حسن الوجه ، كثير الشعر ، ليس بالجعد القطط ولا بالسبط .

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين مات رسول اللهﷺ وهو عنهم راض .

وقد آخى رسول اللهﷺ بينه وبين كعب بن مالك حين آخى بين المهاجرين والأنصار .

شهد أحداً وما بعدها ، ويوم بدر قسم له النبيﷺ سهمه وأجره .

وقد أبلى يوم أحد بلاء حسناً ، ووقى رسول اللهﷺ بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شُلت إصبعه ، وضرب في رأسه . وحَمَل رسولَ اللهﷺ على ظهره حتى صعد الصخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر : اليوم أَوْجَبَ طلحةُ يا أبا بكر .

وروي أن رسول اللهﷺ نظر إليه فقال : « مَن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة »[1] .

وروى ابن سعد في طبقاته بسند إلى قيس بن أبي حازم قال : رمى مروان ابن الحكم طلحة يوم الجمل بسهم في ركبته ، فجعل الدم يسيل ، فإذا أمسكوه

١- رواه الترمذي ، والحاكم ، والطبراني .

استمسك ، وإن تركوه سال ، فقال : دعوه فإنما هو سهم أرسله الله . قال : فمات فدفناه على شاطئ الكلأ[١] ، وأطلق على موضع بالبصرة .

وقد قتلﷺ وهو ابن ستين سنة ، وقيل : اثنتين وستين سنة .

وروي أن رجلاً رأى فيما يرى النائم أن طلحة بن عبيدالله قال : حَوِّلوني عن قبري فقد آذاني الماء . وتكررت هذه الرؤيا ثلاث ليال ، فأتى ابن عباس فأخبره ، فنظروا فإذا شِقُّهُ الذي يلي الأرض في الماء فحوّلوه . قال : فكأني أنظر إلى الكافور في عينيه ، لم يتغيّر إلا عقيصته فإنها مالت عن موضعها[٢] .

مقتل الزبير :

هو أبو عبدالله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشي الأسدي .

أمه هي صفية بنت عبدالمطلب عمة رسول اللهﷺ .

هو قديم الإسلام ، واختلف في سنه يوم أسلم ، فقيل : خمس عشرة سنة ، وقيل : ست عشرة ، وقيل غير ذلك .

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى .

وفي بيان فضله روي عن رسول اللهﷺ أنه قال : « لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير »[٣] .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي »[٤] .

١- الكلأ هو مرفأ السفن بساحل النهر .
٢- ذكرها النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب .
٣- حديث حسن رواه البخاري ومسلم .
٤- أخرجه الديلمي بإسناد حسن ، والضحاك ، والذهبي ، وغيرهم .

قال النويري : وقد جمع رسول اللهﷺ أبويه للزبير مرتين : يوم أحد ويوم بني قريظة ، فقال : ارم فداك أبي وأمي .

وهوﷺ أول من سلّ سيفا في سبيل الله .

كان له من الولد عشرة : عبدالله ، وعروة ، ومصعب ، والمنذر ، وعمرو ، وعبيدة ، وجعفر ، وعامر ، وعمير ، وحمزة .

وقد آخى رسول اللهﷺ بينه وبين عبدالله بن مسعود حين آخى بين المهاجرين ، وبينه وبين سلمة بن سلامة بن وقش حين آخى بين المهاجرين والأنصار .

وكان الزبير تاجراً مجدوداً[1] .

وفي سبب قتله قيل : لما بدأت معركة الجمل نزع الزبير سج رمحه ، وهجم بعصاه بنصل الرمح على القوم ، فلما رآه علي : قال إنه قد أغضب فافسحوا له المجال ولا تتعرضوا له فإنه مغادر المعركة ، ثم خرج .

فلما انصرف الزبير من المعركة نزل بعمرو بن جرموز فقال له : يا أبا عبدالله ، جَنَيتَ حرباً ظالماً أو مظلوماً ثم تنصرف ؟ أتائب أم عاجز ؟ فسكت عنه الزبير ، ثم عاوده فقال : ظُنَّ فِيَّ كل شيء غير الجبن . فانصرف عنه ابن جرموز وهو يقول : والهفي على ابن صفية ، أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ، قتلني الله إن لم أقتله .

ثم رجع إليه كالمُتنصّح فقال : يا أبا عبدالله ، دون أهلك فيافٍ ، فخذ نجيبي[2] هذا وخلّ فرسك ودرعك فإنهما شاهدان عليك بما تكره . وأراد بذلك أن يلقاه حاسراً[3] .

١- أي صاحب حظ في التجارة .
٢- النجيب من الإبل القوي السريع .
٣- الحاسر الذي لا درع عليه ولا وقاية .

ولم يزل به حتى تركهما عنده وأخذ نجيبه ، وسار معه ابن جرموز كالمُشَيّع له حتى انتهيا إلى وادي السباع[1] ، فاستغفله ابن جرموز وطعنه .

وقيل : إنه تبعه في الوادي فقتله وهو في الصلاة ، وقيل : بل قتله وهو نائم ، وقيل غير ذلك في قتله .

وإذا أراد القارئ شرحاً لذكر ومناقب الزبير فليرجع إلى تاريخ نهاية الأرب ، وابن الأثير ، وغيرهما .

رجوع الناس واقتتالهم حول الهودج :

بعد أن انفض الناس عن ساحة القتال ، لم يُعجب ذلك جماعة عبدالله بن سبأ ، فأرادوا أن يصيبوا عائشة زوج رسول اللهﷺ . فعندما رأت عائشة أن القوم يريدونها ، حرّضت القوم على الوقوف أمام الهودج وأمام الظلمة ، ونادت : يا للإسلام . فرجعوا بعد أن فرّوا والتفوا حولها ، ثم تصادم القوم بمعركة لم يعلم القوم قبلها مثلها أبداً . كانوا يقاتلون بصدق ، وهؤلاء يصرون على الوصول إلى هودج عائشة ، وقد قتل حول الجمل جماعة كثيرة .

ثم جاء رجل من كبار الزهاد والعباد من أهل البصرة اسمه كعب بن سُور وأخذ بخطام الجمل ، فقالت له عائشة : يا بني ، خلِّ عن الجمل وتقدّم بالمصحف فادعهم إليه . وناولته مصحفاً من هودجها ، فقابل القوم بالمصحف ، فقاومه أصحاب ابن سبأ بأن رموه بالسهام حتى قتلوه ، ثم رموا هودج السيدة عائشة الذي كان بعد ذلك كالقنفذ ، ما مِن شبر إلا وبه ضربة بسهم .

١- هو على أربعة فراسخ من البصرة كما في كتاب خزانة الأدب ، وانظر إلى معجم البلدان .

ثم تكتل الناس كثيراً أمام الهودج ، واشتعلت الفتنة إلى قمتها ، فكانت معركة يقول مَن حضرها : ما رأينا قبلها مثلها قط . كانت معركة دامية للغاية ، كلما قتل واحد جاء الآخر وأخذ بالخطام .

ولا زال الأمر كذلك حتى قتل على خطامه أربعون رجلاً ، ثم أخذ خطام الجمل رجال من قريش كذلك كلهم قُتلوا ، فقُتل بعد ذلك سبعون رجلاً ، وجُرح عبدالله بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحاً وهو أمام ذلك .

وهنا عائشة عندما لم تر أناساً من الأعداء يراعون حرمتها كزوجة نبيهم ، رفعت صوتها بالدعاء وجعلت تقول وتنادي : البقيةَ البقيةَ يا بني ، ويعلو صوتها : الله الله ، اذكروا الله والحساب . فيأبون إلا إقداماً ، فقالت لمن حولها : أيها الناس ، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم . وأقبلت هي تدعو عليهم ، فضجّ الناس بالدعاء من حولها ، فسمع علي هذا الضجيج من بعيد فقال : ما هذه الضجة ؟ قالوا : إنها عائشة تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم ، فقال : اللهم العن قتلة عثمان .

عقر البعير وانتهاء المعركة :

بعد أن اشتد أمر الناس حول الهودج نادى علي أصحابه : اعقروا البعير ، وأمر بضرب قوائمه ، فمال على جانبه ، فأمر علي القعقاع وآخر – وقيل : أخا عائشة محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر – ، فهرولا وحملا الهودج ووضعاه على الأرض ، وعائشة هنا لم تمس بأذى أو سوء .

وعندما رأى الناس البعير قد سقط صريعاً ، فروا إلى البصرة يتسابقون ، وقد كانوا يختفون خلف الهودج . وأمر علي منادياً ينادي : ألا يُتبعوا ، وألا يَدخلوا البيوت ، وألا يُزفّف على جريح .

ثم أمر علي أن يحملوا الهودج من بين القتلى ، وأمر أخاها أن يضرب عليها قبة ، وقال : انظر هل وصل إليها شيء مِن جراحة ؟ فأدخل رأسه هودجها فقالت : مَن أنت ؟ قال : أبغض أهلك إليك ، قالت : ابن الخسعمية (أسماء بنت عميس) ، قال : نعم ، قالت : الحمد لله الذي عافاك .

ثم قال لها عمار بن ياسر : كيف وجدتِ بنيك يا أماه ؟ قالت : لست أماً لك ، فأجابها : بلى وإن كرهتِ .

وأتاها علي بعد ذلك وقال لها : كيف أنت يا أماه ؟ قالت : بخير ، قال : فيغفر الله لكِ ، قالت : ولك كذلك .

ثم جاء أعين بن مضيعة المجاشعي حتى اطلع على عائشة ، فقالت : إليك لعنك الله ، فقال : والله ما أرى إلا حميراء ، فقالت : هتك الله سترك ، وقطع يدك ، وأبدى عورتك . فقُتل بعدها وسُلب ، وقُطعت يده ، ورُمي عرياناً في خربة من خربات الأزد . فاستجاب الله دعاءها ، وكيف لا وهي أم المؤمنين ؟ !

ثم أتى وجوه الناس من كل الأطراف إلى السيدة عائشة وهي في حالتها في الهودج يسلمون عليها ، فقالت : والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وهكذا انتهت المعركة عن قتل عشرة آلاف شخص من الطرفين مناصفة ومن كرام الناس . لهذا كان علي إذا مرّ بالقتلى ورأى الصالحين يقول : كيف كنتم

تقولون : إنا كنا نقاتل رعاء الناس ؟ هذا الرجل العالم ، وهذا الرجل الصالح ، وهذا الرجل الزاهد ، وهذا . . . . فكانت معركة محزنة ومؤلمة .

وكان علي رضي الله عنه ينشد بعد فراغ المعركة هذه الأبيات وهو في قمة الحزن :

إليك أشكو عُجري وبُجري[1] ومعشراً أعشوا عليّ بصري
قتلت منهم مضري بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري

وروي عنه كذلك بعد المعركة أنه قال : والله إني لأرجو أن أكون أنا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ممن قال الله بحقهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[2] .

وبعد المعركة أقام سيدنا علي بظاهر البصرة ، وصلى على القتلى جميعهم ، وأمر بدفنهم وهو يترحم على الجميع .

ثم جمع المسلمين وذكر لهم بأن المعركة كانت بين أخ وأخيه ، وبين ابن عم وابن عمه ، فلا شماتة .

وكان قد جمع ما كان من العسكر من أموال وأدخلها الجامع ، وقال : مَن تعرّف على شيء له فليأخذه سوى السلاح . وهكذا أتى الناس وأخذوا ما كان لهم .

دخول علي البصرة ومبايعة أهلها :

كان دخول سيدنا علي البصرة في يوم الإثنين ، فبايعه أهلها حتى الجرحى والمستأمنين ، ثم استعمل عليها عبدالله بن عباس .

١- العُجر هو النفخة في الظهر ، والبُجر هو النفخة في البطن . ويعني بذلك أن هؤلاء قوتهم من أمامهم ومن خلفهم .
٢- الآية (٤٧) من سورة الحجر .

وكان قد وجد في بيت المال أموالاً كثيرة ، فوزعها بالسوية على المسلمين .

وكانت هناك امرأة قُتل زوجها في المعركة ، فشتمت علياً وقالت له : يتم الله أطفالك كما يتمت أطفالي ، فلم يلتفت إليها . وأراد مَن معه أن يفعلوا شيئاً ، فقال لهم : لا ، إننا لا نتعرض للنساء الكافرات فكيف نتعرض للنساء المؤمنات ؟ وهذه محروقة على زوجها وأطفالها .

خروج عائشة من البصرة ورجوعها إلى مكة :

بعد انتهاء معركة الجمل ، نقلت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى بيت من أحسن بيوت البصرة ، وجلست فيه فترة .

ثم زارها علي وجلس معها فترة وتبادلا الحديث ، وخيّرها : أتحبين المقام معنا يا أماه ؟ قالت : بل أعود . فقام علي بتجهيزها بكل ما ينبغي لها من مركب ، وزاد ، ومتاع ، وغير ذلك .

فلما كان اليوم الذي خرجت فيه من البصرة ، جاء علي ووقف على بابها حارساً . وقالت يومها : يا بَنِيَّ ، لا يعتب بعضنا على بعض ، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإن كان على معتبة فإن علياً من الأخيار . فقال علي : صَدَقَتْ ، والله ما كان بيننا سوى ما قالت ، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة .

وسار معها علي أميالاً ، ثم أمر ولده الحسن أن يسير مع الركب يوماً وليلة ، كما سيّر معها أخاها محمداً ، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات . وبعث معها كل ناج ممن كان معها من المقاتلين إلا مَن أحب المقام في البصرة .

وكان خروجها يوم السبت غرة رجب ، ولم تشأ أن تعود إلى المدينة إنما اختارت أن ترجع إلى مكة ، وجلست هناك حتى موسم الحج ، فحجّت واستغفرت كثيراً . ثم ذهبت إلى بيتها في المدينة ، وعاشت هناك حتى أتاها رسول رب العالمين .

هذه هي أول معركة استقبلت إمارة سيدنا علي بن أبي طالب ، وإنها والله كانت دامية وموجعة ، وكانت مرضاة للشيطان وأحباب الشيطان ، إنما هكذا قضاء الله ﷻ قديم لا بد من نفاذه .

كانت لا ترضي مَن في قلبه إيمان ، إنما الفتنة إذا هاجت فإنها لا تعرف أحداً . الفتنة كالنار القوية إذا هاجت ، مهما أراد الناس أن يطفؤها تكون النار أقوى ، فتشعل الأخضر واليابس .

وهكذا الحرب إذا بدأت ، بدأت فتية وانتهت عجوزاً ، انتهت على أشلاء أبطال المسلمين ، وبتحريض من أعداء الله الذين كانوا يُبيّتون للإسلام والمسلمين هذا الغدر .

والإنسان يتأسف ويعز عليه أن رأى دماء المسلمين تسفك بأيدي المسلمين بغزارة ، وبأن تؤخذ عرس رسول الله ﷺ الطاهرة النقية ، ويُنطلق بها إلى تلك البلاد النائية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هذا ما نستطيع أن نضعه على هامش معركة الجمل ، ورحم الله مَن استشهد ومَن قُتِلَ فيها ، ورحم الله من قاتل ، ورحم المظلومين القاتلين والمقتولين .

وأعتقد جازماً بأن الله سيُرضي الجميع من هؤلاء ؛ لأنهم أحبابه وسادة الأمة ، ونخبتها الأولى التي كانت قد رفعت راية الإسلام خفاقة عالية . فالله جعل

القتيل في رحمته ، والنبيﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإن حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد »[1] .

هكذا حصل والكل كان مجتهداً ، مَن طالب بدم عثمان فهو مجتهد ، ومَن فكر بأن تستتب الأمور وأن يؤخذ هؤلاء القتلة فرداً فرداً كذلك كان مجتهداً ، والله ﷻ يؤتي الجميع من فضله وكرمه .

ذكر معركة صفين

إرسال علي إلى معاوية وما كان من جوابه :

لما فرغ سيدنا علي من حرب الجمل ، وبعد أن وطد الأمر في البصرة انتقل إلى الكوفة . ثم وجد أمامه بلاد الشام متناثرة ترفض أن تبايع ، وجد أمامه معاوية يقول ويطالب بدم عثمان ، ويعتبر علياً قاتلاً ، ويعتبر عمار بن ياسر قاتلاً .

فاستقبل سيدنا علي هذا الوضع الخطير ، وأرسل إلى جرير بن عبدالله البجلي ، وكان عثمان قد استعمله على همذان . وبعث كذلك إلى الأشعث بن قيس ، وكان عثمان قد استعمله على أذربيجان . فأرسل إليهما أن يبايعا له بالخلافة ، فقاما وأجريا المبايعة .

ثم طلب من جرير أن يذهب بكتاب منه إلى معاوية في بلاد الشام ، وكان الأشتر – وهو تابعي من كبار أنصار علي – يمانع إرسال جرير ، وقال : إنه يميل قلبه إلى معاوية لا ترسله ، فقال علي : بل أرسله .

١- رواه البخاري ، والحاكم ، والدارقطني .

فكتب علي كتاباً واضحاً وأعطاه إلى جرير ، وبعث به إلى معاوية يُعْلِمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار عليه ، وأنه كان لا يريد الإمارة فأجبروه بعد أن خوّفوه بتقوى الله . ثم قال : فبويعت من قبل أهل الحل والعقد من أصحاب محمد ، وكانت بيعة عامة . وكان بعد أن بويعت وقعت معركة الجمل – وذكر له بإيجاز أن طلحة ، والزبير ، وعائشة ، اجتمعوا في البصرة وطالبوا بدم عثمان – . وما كان عندي ذلك فاضطررت فقاتلنا ، وانتهت المعركة على أن نصر الله الحق . ثم يدعو علي معاوية في هذا الكتاب إلى البيعة له ، والدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار .

فلما قدم جرير على معاوية ، استشار معاوية عمرو بن العاص وكان قد ترك بلاد مصر وجاء إلى الشام ، فأشار إليه أن يجمع أهل الشام وأن يُلزم علياً دم عثمان .

ففعل معاوية وذكر لهم مقتل عثمان ، وغلّظ لهم فيه وطلب رأيهم ، فالكل قام وقال : نطالب بدم عثمان .

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة ، سابع سبعة في الإسلام ، وأحد أصحاب الشورى الذين انتخبهم عمر بن الخطاب . كان قد اعتزل الفتنة وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام .

فطمع معاوية فيه ، وفي عبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة كذلك . فكتب إليهم يدعوهم إلى عونه على الطلب بدم عثمان ، ويقول لهم : إنهم لا يُكَفّرون ما أتوه من قتله وخذلانه إلا بذلك . وقال : إنَّ قاتله وخاذله سواء . فأجابه كل واحد منهم يرد عليه ما جاء به من ذلك ، وينكر عليه مقالته ، ويُعرّفه أنه ليس بأهل لما يطلبه .

وكان في جواب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

مُعــــاويَى داؤكَ الـــــداءُ العَيـــــاءُ ... ولـــيس بمـــا تجـــيءُ بـــه دواءُ
أيَـــدْعوني أبـــو حســـن علـــيٌ ... فلـــم أرْدُدْ عليـــه مـــا يشـــاءُ
وقلـتُ لـه اعطنـي سـيفاً قصـيراً ... تمـــازُ بـــه العـــداوة والـــولاءُ
فـــإنَّ الشـــرَّ أصـــغرُه كبيـــرٌ ... وإنَّ الظهْـــرَ مُثقِلـــهُ الـــدِّماءُ
أتطمـــعُ فـــي الـــذي أعيـــى علياً ... علـــى مـــا قـــد طمِعْـــتَ بـــه العفـــاءُ
ليـــومٌ منـــه خيـــرٌ منـــك حيـــاً ... ومَيْتـــاً أنـــتَ لِلمـــرء الفـــداءُ
وأمـــا أمـــرُ عثمـــان فَدَعْـــهُ ... فـــإنَّ الـــرأيَ أذهبـــه الـــبلاءُ

ثم أجمع معاوية بعد أن استشف أمر الناس ، وكتب كتاباً وأعطاه لجرير بأن أهل الشام أجمعوا على المطالبة بدم عثمان . ورجع جرير بكتاب معاوية إلى علي يخبره بإجماع أهل الشام على قتاله ، حيث اعتبروه قد آوى القتلة وله يد بقتل عثمان ، وإنهم يقولون : إنا لا ننتهي عنه وعن مطالبته حتى نقتلك أو تقتلنا ، أو أن تسلمنا القتلة وأنت واحد منهم .

ووصل الكتاب إلى علي ، فكان لا بد له من الخروج .

خروج علي وما كان بينه وبين معاوية من مراسلات :

خرج علي رضي الله عنه وعسكر في النحيلة[1] ، وسار كذلك معاوية وتأنى في مسيره ، وكان قد سبق على الماء وجلس في مكان ، فعندما أتى علي لم يجد ماء يشربه هو وجيشه . فلما عطش الناس كثيراً طلبوا الماء من معاوية فاستشار قواده ، فقال عمرو بن العاص : نفتح بينهم وبين الماء ، والأكثر قالوا : بل نمنعهم من شرب الماء . ويأخذ معاوية برأي الأكثر من جماعته ، ويقول : لن نسمح لكم أن تأخذوا

١- هي موضع بقرب الكوفة من جهة بلاد الشام .

قطرة ماء . فأرسل علي قائلاً : إما الماء وإما أن نقاتلكم على الماء ، فلم يلتفت إليه معاوية وجيشه ، فزحف علي بجيشه وقاتلوا قتالاً مريراً وشديداً ، ولا زالوا يقاتلون حتى أخذوا الماء . ويقف يومها جيش علي ويقول : والله لا نسقيهم ، فقال علي : لا ، نأخذ من الفرات حاجتنا ثم نفتح بينهم وبين الماء ، والله فإنا لا نكون ظالمين كما كانوا ظالمين ، وخلوا عنهم فإن الله تعالى نصركم عليهم بغيهم وظلمهم ، فإياكم أن تكونوا ظالمين كما كانوا فينصرهم الله عليكم . فأخذ الكل من الماء ما تيسّر له وما استطاع .

وبعد أن جلس الناس أياماً واستراحوا ، أرسل علي وفداً إلى معاوية يفاوضونه ويردعونه ، وذلك في أول ذي الحجة . وكان الوفد مؤلفاً من ثلاثة رجال من قواده : أبو عمرة بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري ، سعيد بن قيس الهمداني ، وشَبَث بن ربعي التميمي . فدعاهم علي وقال لهم : ائتوا هذا الرجل وادعوه إلى الله تعالى ، وإلى الطاعة والجماعة .

فأتوه فدخلوا عليه ، فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري الكلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لمعاوية : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه . وإني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة يا معاوية ، وألا تسفك دماءها بينها . فقطع عليه معاوية الكلام وقال له : هلاّ أوصيتَ بذلك صاحبك ؟ فقال بشير : صاحبي ليس مثلك ، وإنه أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل ، والدين ، والسابقة في الإسلام ، والقرابة من رسول اللهﷺ . فقال معاوية : فماذا تقول أنت ؟ قال : نأمرك بتقوى الله ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعو إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دينك ، وخير لك في عاقبة أمرك . فقال معاوية : ونترك دم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً .

ثم قام شبث بن ربعي المبعوث الثاني من هذا الوفد وتكلّم بعد أن قطع الكلام على سعيد بن قيس المبعوث الثالث ، فحمد الله وأثنى عليه ، وطلب من معاوية أن يذعن للحق ، وكشف له ما يخفى ، وبأن الموضوع فيه تستر بدم عثمان وهو ليس ذلك . فقال : يا معاوية ، كنتَ والله تحب قتل عثمان لتستلم الأمر بعده ، وقد أبطأتَ المسير لنجدته وقد وصل إليك الأمر وكنت تستطيع أن تنصره ، إنما إبطاؤك إلى نجدته كان دليلاً على أنك تريد الإمارة بعده ، فاتق الله يا معاوية ودع الأمر الذي أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فرد عليه معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله فقال : فإن أول ما عرفتُ به سفهك وخفة حلمك أنك قطعت الحديث على الحسيب النسيب سعيد بن قيس – وأراد أن يوقع بينهما وهو سيد قومه – ، ثم اعترضتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، فقد كذبتَ ولؤمتَ كذلك أيها الأعرابي الجافي في كل ما ذكرتَ ووصفتَ .

ثم قال : انصرفوا من عندي ، فليس بيني وبينكم إلا السيف . فقال له شبث : أتهول بالسيف ؟ أقسم بالله لنجعلنها إليك . ثم رجع الوفد إلى علي وأخبروه برأي معاوية الأخير .

حصول الموادعة بين علي ومعاوية :

لقد دار بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رسل كثيرون ، وحصلت مهاترات أكثر من الطرفين . سيدنا علي يقول : الموضوع ليس موضوع دم عثمان ، إنما يريد الإمارة لنفسه . ومعاوية يقول : لا ، بل نحن نريد دم عثمان ، ونريد أن نأخذ الثأر وحقنا ممن اشترك بمقتل عثمان .

وحصل لقاء بين الطرفين ، وكان القتال متفرقاً في أيام ذي الحجة كلها سنة سبع وثلاثين ، وربما كانوا يقتتلون في اليوم الواحد مرتين .

وفي المحرم حصلت الموادعة على ترك الحرب بينهما حتى ينقضي الشهر الحرام ، وذلك طمعاً في الصلح .

وتحصل بينهما في هذا الشهر عدة مراسلات ووفود ، ولم يصل الجميع إلى حل ، بل أصر معاوية على تسليم قتلة عثمان ، وأن ينتخب المسلمون أميراً بعد أن يخلع علي نفسه .

ذكر الحروب التي كانت بصفين :

وبعد الموادعة احتدمت الأمور بين الجيشين ، فعبّأ كل واحد منهما جيشه تعبئة كاملة .

فجعل علي بعد أن صلى الصبح بغلس يصف جيشه ، وعيّن القواد على الفرق والقبائل . فجعل على الكوفة في خيلها مالك الأشتر ، وعلى خيل البصرة سهل بن حنيث ، وعلى رجالة الكوفة عمار بن ياسر الذي قال النبيﷺ بحقه : « تقتله الفئة الباغية عن الطريق ، وإن آخر رزقه ضياح لبن »[1] ، وعلى رجالة البصرة قيس بن سعد بن عبادة .

وبدأت معركة صفين ، وكان اللقاء الأول في أول يوم من شهر صفر حين خرج الأشتر مع أهل الكوفة ، وخرج له من جيش معاوية يومها حبيب بن مسلمة مع أهل الشام ، وحصلت مبارزة ومقاتلة حتى المساء ، ثم تراجع الطرفان .

١ـ أخرجه الخطيب في تاريخه .

وفي اليوم الثاني حصل قتال متفرق ، وكذلك في اليوم الثالث ، والرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع . في كل يوم يخرج قائد من قواد جيش علي ، ويخرج مقابله قائد من قواد جيش معاوية ومعهما النفر والجيش ، فيقتتلان حتى المساء ثم يعود كل واحد منهما إلى معسكره .

وهكذا كانت مبارزات ومقاتلات ، ووقع دماء في هذا المجال .

وفي صبيحة اليوم الثامن خرج علي بالناس بعد صلاة الصبح ، وزحف بهم إلى أهل الشام . ولقد حصلت في هذا اليوم أمور كثيرة من البطولات ، وكان القتال على أشده حتى انسحب جيش معاوية ، ولا زال ينسحب أمام علي وجيشه حتى قبة معاوية . وكاد معاوية أن يفر من أرض المعركة وقد طلب فرسه كما قال هو بنفسه ، وكاد الناس أن يلحقوا به فارين غير أن الغروب أتى وتراجع الجيشان .

ودخل الليل والناس يقتتلون ، واستمر إلى الصباح . وسميت هذه الليلة بليلة الهرير ؛ لكثرة ما هرّ فيها من دماء . فقد قتل فيها من جماعة علي خمس وعشرون ألفاً ، ومن جماعة معاوية أربعون ألفاً ، وقتل من أهل بدر في صف سيدنا علي خمس وعشرون .

مقتل عمار بن ياسر :

في ليلة الهرير قتل عمار بن ياسر بعد معركة شديدة قاتل فيها قتالاً مريراً ، وكان يومها ابن تسعين عاماً . وقد قال قبل أن يقتل : إيتوني بآخر رزق لي من الدنيا ، فأتي بلبن في قدح أروح له حلقة حمراء ، فقال : اليوم ألقى الأحبة

محمداً وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل . ثم جعل يقول : الموت تحت الأسل ، والجنة تحت البارقة .

وإن الذي قتله أبو الغادية يسار بن سبع الجهيني[1] ، واحتز رأسه حوي ابن ماتع .

خبر رفع أهل الشام المصاحف وكتابة العهد بين الطرفين :

لما قُتل عمار بن ياسر ، اجتمع حول علي اثنا عشر ألفاً وتقدمهم ببغلته إلى معاوية ووصل قريباً منه ، فقال : علام يُقتل الناس بيننا ؟ هلم أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور . فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إنه أنصفك . فقال معاوية : ما أنصفتَ بكلامك ، إنك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله . فقال عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته يا معاوية فإنه قد طلبك ، فقال معاوية : لقد طمعتَ فيها بعدي يا عمرو ؟ ورفض أن يخرج .

ودخل الأشتر ومَن معه من جيش علي معسكر معاوية ، وكادت أن تنتهي المعركة لصالح علي ، وتقهقر الجيش الشامي كثيراً ، ولم يبق سوى فترة حتى يستسلم الجيش كله ، علماً أنه كان عدد مَن يقاتل مع سيدنا علي يومها تسعين ألفاً ، ومَن يقاتل مع سيدنا معاوية عشرين بعد المائة .

١- عاش قاتل عمار إلى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق ، فدخل على الحجاج وقال له : أنت قاتل عمار ؟ قال : نعم ، فقال الحجاج : مَن سَرَّهُ أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل عمار بن سمية . ثم دخل أبو الغادية على الحجاج سائلا يريد مالا ، فلم يعطه ما سأله ، فقال : نوطئ لهم الدنيا ولا يصلونا منها ، ويزعم أني أعظم الباع يوم القيامة ؟ فقال الحجاج على ظلمه : أجل والله ، مَن كان ضرسه مثل أحد ، وفخذه مثل جبل ورقان ، ومجلسه مثل المدينة والربذة ، لعظيم الباع يوم القيامة . ثم قال : والله لو أن عماراً قتله أهل الأرض لدخلوا كلهم النار . فلم يتكلم أبو الغادية بشيء .

ولما رأى عمرو بن العاص أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك ، قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك ، إذا فعلته يزيدنا قوة ويزيد عدونا فرقة ؟ قال : نعم ، قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم الله بيننا وبينكم . فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم مَن يقول : ينبغي لنا أن نقبلها فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل .

فقبل معاوية هذه الإشارة ، حيث أراد أن يؤجل المعركة ليجمع صفه ليلتئم ، ثم يقاتل بقوة غير هذه القوة .

فحالاً أمر برفع المصاحف ، فأخذوها وربطوها على رؤوس أسنة الرماح ، ورفعوها وقالوا : هذه المصاحف والقرآن حكم بيننا وبينكم ، مَن لثغور الشام بعد أهله ؟ ومَن لثغور العراق بعد أهله ؟ ونادوا بها .

فالناس لما رأوا ذلك قالوا : نجيب إلى كتاب الله ، فقال لهم سيدنا علي : عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم ، فإن معاوية ، وعَمراً ، وابن أبي معيط ، وحبيباً ، وابن أبي سرح ، والضحاك ، ليسوا بأصحاب دين وقرآن ، أنا أعرفهم وهم في صباهم وهم رجال ، فكانوا شر الناس أطفالاً ، وشر الناس رجالاً ، وبحكم رب العالمين . ثم قال : هذه خديعة وإنهم فعلوها عندما رأوا خذلانهم ، وضعفهم ، وانتهاءهم . فقالوا : لا بد لك من أن تقبل هذه الدعوة . قال لهم : يا قوم ، كيف نقبل هذا وقد انتصرنا ووصلنا إلى معسكرهم ، وكدنا أن ننهي المعركة ؟ ! فأصروا وقالوا : لا بد لك أن تقبل وإلا قتلناك وألحقناك بعثمان ، وكانوا عدداً كبيراً . فعند ذلك كان لا بد لسيدنا علي من أن يلتفت إلى كلامهم .

وهنا وقعت الفتنة ، وبهذا الوقت ظهر الخوارج . وهؤلاء هم الذين كانوا سبب الهوان والضعف في جيش سيدنا علي .

وبعد ذلك ارتفعت الأصوات ، وظهرت دلائل الفتح والنصر لجيش علي ، ودلائل الخذلان والإدبار لجيش معاوية . فقال القوم : ما نراك إلا أمرتَ الأشتر أن يقاتل ، فقال علي : هل رأيتموني خليت به وتكلمت بأُذنه ؟ قالوا : بل هناك بينك وبينه شيء . ثم قالوا : ابعث إليه فليأت حالاً وإلا نفذنا بك الحكم .

فأرسل علي إلى الأشتر رجلاً اسمه يزيد ، فقال الأشتر : كيف نرجع وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه ، وكيف نتقهقر بعد هذا التقدم ؟ فقال يزيد : لا بد لك من أن ترجع وإلا رأيت فتنة خلفك كبيرة . ولكن الأشتر يرفض أن يعود .

فرجع يزيد وأخبر علياً بذلك ، فقال كرم الله وجهه : ويلك يا يزيد ، هل رأيتَ الجماعة يصدقون ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب واطلب من الأشتر ومن الجيش أن يعود .

فرجع الأشتر من المعركة متألماً ، وهكذا جميع الجيش العراقي ، وحصل صدام كبير بالكلام وبالفعل بين الأشتر وبين هؤلاء الناس ، فسبهم وسبوه ، وتكلم عليهم وتكلموا عليه ، وقال : يا أهل العراق ، يا أهل الذل والهوان ، حين علوتهم وتقدمتُ عليهم ، وظن الجماعة أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم لما هم فيه وهم قد تركوا سنة وفرضاً ، فكيف يُحَكّمون كتاب الله ؟ فأمهلوني عدوة الفرس فإني قد طمعتُ بالنصر . قالوا : إذاً ندخل معك في الخطِيئة ، لا ولن نسمح لك . ثم قال لهم : هذه الوجوه السود التي أراها أمامي هي التي تأمرنا أن نترك ما أتينا من أجله لنحق الحق ، وهذا ابن عم رسول الله ، وأحد العشرة ، وزوج بنت رسول اللهﷺ ، وصاحب الحق ، وأمير المؤمنين ، ويطالب بالحق . . . ، وحصلت مشادة شديدة بينهم وتضاربوا بالسياط .

ثم جاء الأشعث بن قيس فقال لعلي : أرى الناس قد قبلوا بتحكيم القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاوية وسألته عما يريد . فقال علي : ائته . فذهب فأتى معاوية وقال : يا معاوية ، لأي شيء رفعتم المصاحف ؟ قال : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه ، تبعثون رجلاً ترضون ونبعث رجلاً نرضى به ، نحن نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ولا يلتفتا لغير كتاب الله ، ثم نتبع ما اتفقا عليه . فقال له : هذا حق .

فعاد الأشعث إلى علي فأخبره ، فقال الناس : رضينا وقبلنا بالقرآن حكماً . وقال أهل الشام : رضيناً بعمرو بن العاص ، وقال الأشعث وأولئك النفر الذي صاروا بعد ذلك خوارج : فإنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري . فقال علي : قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، لا أرى أن أولّي أبا موسى . فقال الأشعث والقوم : لا نرضى إلا به ، فقال علي : نرسل عبدالله بن عباس ، فأبو موسى لا يستطيع أن يقف أمام عمرو بن العاص الداهية . فقالوا : لا نرضى سواه . فحاول علي أن يُلفتهم إلى غيره وهم يرفضون ويصرون ، فقال : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ، فقال : اصنعوا ما شئتم .

ثم وقف القتال واعتزل الناس بعضهم عن بعض ، فرجع جيش معاوية إلى عسكره ، ورجع جيش علي إلى معسكره كذلك .

ثم حضر عمرو بن العاص عند علي لكتب القضية ، فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى به أمير المؤمنين . فقال عمرو : لا نقبلك أميراً للمؤمنين ، فتمحى هذه وتقول : هذا ما تقاضى به علي بن أبي طالب مع معاوية ابن أبي سفيان . وحصلت نزاعات كثيرة هنا ، وفي النهاية قبل علي وكتب ابن عباس الكتاب .

فقاضى علي على أهل الكوفة ومَن معهم ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومَن معهم : إننا ننزل عند حكم الله وعند كتابه ، وألا نجتمع بعد ذلك على قتال ، وأن كتاب الله يكون بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيى ، ونميت ما أمات ، فما وُجد فيه أخذنا ، وما وَجد فيه الحكمان عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله تعالى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة .

ولقد كُتب الكتاب في يوم الأربعاء لثلاثة عشر خلون من صفر سنة سبع وثلاثين .

وقد أخذ الحكمان من علي ، ومعاوية ، ومن الجند ، من العهد والمواثيق أنهما آمنان على نفسيهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى عبدالله بن قيس أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها في الحرب أو الفرقة حتى يعصيا .

وقد أجّلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يؤخرا أكثر فلا مانع ، وإنَّ مكان القضاء في مكان عادل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، واتفقوا على دومة الجندل ، وشهد على ذلك جماعة من الطائفتين .

اجتماع الحكمين وما كان من أمرهما :

وفي الموعد المقرر اجتمع الحكمان ، وجاء مع كل واحد أربعمائة من الفرسان . ومنذ البداية كان عمرو بن العاص يُجلّ أبا موسى إجلالاً كثيراً ، ويُظهر له قمة الاحترام والتواضع ، فيقول له : أنت صحابي قديم ، وأنت ممن أسلم قديماً ، وأنت ممن لك الباع في الإسلام فلا أتقدم عليك ، تكَلَّمْ وأنا أتكلم بعدك . فكان أبو موسى يتكلم ثم يتكلم عمرو بن العاص .

وقد تفاوضا في موضوع عثمان كثيراً . فيقول عمرو لأبي موسى : يا أبا موسى ، ألستَ تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ؟ قال : أشهد ، قال : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بلى ، قال : فما يمنعك إذاً يا أبا موسى منه وبيت معاوية في قريش معروف هو من أسياد قريش ، فإن خفتَ أن يقول الناس : ليس لمعاوية سابقة ، فقل : هو أولاً أخو أم حبيبة أم المؤمنين ، وكاتب رسول اللهﷺ وقد صحبه . وجعلها عشائرية وجاهلية ، ثم عرض عليه السلطان إذا كانت الأمور لمعاوية . فقال أبو موسى : يا عمرو ، اتق الله . أمّا ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يُولاّه أهله ، إنما هو لأهل الدين والشرف . وأمّا قولك : معاوية وَلِيُّ دم عثمان ، فلم أكن لأوليه معاوية وأدَعَ المهاجرين الأولين فهم أوْلى به ، وعثمان من المهاجرين الأوَل . وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي معاوية من سلطانه كله ما قبلته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله .

ثم حصلت مقالات كثيرة بينهما ، ثم قال عمرو : ماذا ترى بعد ذلك ؟ إلى أي شيء وإلى أي حد توصلنا يا أبا موسى ؟ قال : أنا أقول : نخلع الرجلين ، ثم يجتمع أصحاب رسول اللهﷺ المهاجرون الأوَل أهل الحل والعقد وينتخبون مَن رأوا أهلاً للخلافة . ولقد قالها وهو يعتقد بأنهم لن ينتخبوا سوى علي فهو أحد الستة أصحاب الشورى ، وكان مؤهلاً للانتخاب قبل عثمان . فقال عمرو : الرأي هو ما رأيتَ يا أبا موسى ، ثم قال له : يا أبا موسى ، اعلم أن الناس يثقون بدينك وبأخلاقك ، وأنت دائماً مقدم ، فقف أمام الناس وأعلمهم بما رأيتَ أنت .

فوقف أبو موسى بالناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبيﷺ وقال : أيها المسلمون ، لقد رأينا أن نخلع الرجلين لننتخب أميراً للمؤمنين ، ينتخبه المهاجرون والأنصار . فنزل ثم طلع عمرو وقال : هل سمعتم ما قاله أبو موسى ؟ إنه يقترح ذلك ، فنزولاً عند اقتراحه لقد قبلنا ذلك .

ثم عادا للمشاورة ، وطلب عمرو من أبي موسى أن يتقدم في خلع علي وهو يقول : أنت أفضل وأتقى مني ، وأعلم مني في الدين ، أنىّ لمثلي أن يتقدم عليك يا أبا موسى ؟ ثم قال له : قف أمام القوم واخلع صاحبك حتى أخلع صاحبي ، فقال : أفعل .

فقام أبو موسى وحمد الله وصلى على النبيﷺ ، ثم قال : اتفقنا على خلع الرجلين ، وها أنا أبدأ بخلع علي وخلع معاوية كما أخلع خاتمي ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم مَن رأيتموه أهلاً ، فنسأل الله أن يُهَيِّء للمسلمين الرجل المناسب ليجمع كلمة الإسلام والحق . وكان ابن عباس قبل أن يخلع أبو موسى الخاتم صرخ عليه وقال : يا أبا موسى لا تفعل قبله ، فإنه صاحب خدعة ، قد يكون دبّر لك أمراً . فلم يلتفت إليه وقال : بل إنه صاحب عهد وميثاق ، وخلع الخاتم من يده ثم نزل .

فخرج عمرو وقال : لقد سمعتم مقالة الرجل أبي موسى ، فإنه خلع صاحبه كما سمعتم ، أشهدتم ؟ قالوا : نعم ، فقال : وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي كما أثبت خاتمي في إصبعي ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقاله . فقال أبو موسى : لا وفقك الله ، غدرتَ وفجرتَ ثم فعلتَ فعلتك هذه ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . فقال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وحصلت الغوغاءات ، ورجع وفد معاوية إليه ينادونه : يا أمير المؤمنين ، ورجع وفد علي وأخبروه بالقصة ، فقال : كنتُ أعرف أنَّ أبا موسى ليس حشواً لذلك .

وكان علي بعد ذلك إذا صلى الغداة يقنت ويلعن في صلاته معاوية ، وعمرو ابن العاص ، وحبيباً ، وعدداً من هؤلاء . فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً ، وابن عباس ، والحسن ، والحسين ، والأشتر .

وأما أبو موسى فإنه كان شديد الندم ، فركب دابته وسار مباشرة إلى مكة وهو يلعن عمرو بن العاص ، ولم يرجع إلى العراق .

وهنا الأمور لم تنته بعد ، ففي هذه الأثناء ظهرت فئة الخوارج ، وجماعات أخرى تكفر علياً . فاشتغل علي بمقاتلتها ، وحصلت أمور شداد للغاية .

وأحب هنا أن أبين لك أيها القارئ عقيدة أهل السنة والجماعة فيما جرى بين سيدنا علي وسيدنا معاوية من الحروب . فهي لم تكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة أبداً ، فهو كان يعترف له بالخلافة ، إنما الخلاف بأن سيدنا معاوية طالب بدم سيدنا عثمان ليأخذ بحقه من القتلة ، ولكن سيدنا علياً اجتهد وقال : لا نسلم القتلة ؛ لأنه رآهم مع أتباعهم وعشائرهم في جنده أكثر من عشرة آلاف ، فإذا سلمهم خشي من فتنة ، ومن ذهاب الخلافة وذهاب بيضة المسلمين ، إنما أراد أن يسلمهم بعد ذلك واحداً واحداً .

فهنا خلاف جرى ، واللهﷻ هو حكم بينهما .

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه بأن أحد الأولياء رأى القيامة قد قامت ، والميزان قد نصب ، والمحكمة قد عُقدت . فأُتي بعلي وأدخل

المحكمة ، ثم أتي بمعاوية وأدخل كذلك . ثم خرج علي بعد فترة وقال : حُكم لي ورب الكعبة ، ثم خرج معاوية يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : غُفر لي ورب الكعبة .

وسئل عبدالله بن المبارك العبد الصالح التقي الورع : أيهما أفضل عمر ابن عبدالعزيز أم معاوية بن أبي سفيان ؟ فقال : لغبار فرس معاوية خير من سبعين من مثل عمر بن عبدالعزيز .

فابن المبارك يعرف فضل عمر بن عبدالعزيز ، ولكن فضله مهما كان رفيعاً فلا يصل إلى مستوى الصحابي .

ذكر خبر ظهور الخوارج

كانت موقعة صفين صدمة ألمت بالمسلمين ، وجعلت الناس يتبلبلون كثيراً في مجالات واسعة . وقد نتج عنها ضعف ووهن ، وأدت إلى ظهور جماعة الخوارج .

عن أبي أمامة قال : سمعتُ رسول اللهﷺ يقول : « افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، تزيد عليها أمتي فرقة ، كلها في النار إلا السواد الأعظم »[1] .

وقالﷺ لعلي : « تفترق فيك أمتي كما افترقت بنو إسرائيل في عيسىعليه السلام »[2] .

١- رواه الطبراني . كما رواه بلفظ آخر أبو يعلى عن أنس ، والبزار عن سعد بن أبي وقاص .

٢- رواه أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال ج٢٠ ص٤٨٥ .

وكذلك قال لهﷺ: « يهلك فيك رجلان : محب مفرط ، وكذاب مفتر »[1] .

فالمحب المفرط : هو الذي يعطي سيدنا علياً أكثر من حقه ، كالذين يقولون : هو الله ، أو إنَّ الوحي قد أخطأ .

وكما قال ابن حجر الهيتمي : الشيعة قاموا ووضعوا أحاديث مئات وآلاف مكذوبة على علي بمدحه .

فلقد جاءهرضي الله عنه من المدح من الله ومن النبيﷺ ما يكفيه ، ومكانته مشهورة عند كل المسلمين ، وهو مقدم على غيره بكثير ، فلماذا هذا الكذب على علي ، وعلى الإسلام ، وعلى الله والنبيﷺ ؟ !

والكذاب المفتري : هو الذي يكره علياً ويسبه ، وهذه حصلت في عهد بني أمية .

وعن أبي البختري قال : قال عليرضي الله عنه : « ليحبني قوم حتى يُدخلهم حبي النار ، وليبغضني أقوام حتى يُدخلهم بغضي النار »[2] .

فالحق إعطاء سيدنا علي حقه ، فنبتعد عن هذين الإثنين .

وفي رواية عن عليرضي الله عنه قال : « دعاني رسول اللهﷺ فقال : إن فيك مثلاً من عيسى ، أبغضته اليهود حتى بهّتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به . ألا وإنه يهلك فيّ اثنان : محب مفرط يقرظني بما ليس فِيَّ ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني . ألا وإني لست بنبي ولا يوحى إلي ، ولكني أعمل

١- رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ، والخطيب وابن أبي عاصم بإسناد ضعيف عن أبي البختري عن عليرضي الله عنه .

٢- سنده صحيح على شرط الشيخين ، ورواه عبد الله بن أحمد ، وابن أبي عاصم ، وابن حنبل .

بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعتُ ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

هنا يشبهه النبيﷺ بسيدنا عيسى حيث كرهه اليهود فنعتوا أمه بالزنا وهي نظيفة منظفة وبريئة مبرأة ، وأحبه النصارى فنعتوه بالألوهية ، فكلاهما من أعدائه .

فهذه كلها أحاديث صحيحة ذكرها النبيﷺ من قبل ظهور الخوارج بأكثر من عشرين عاماً ، وأخبرنا بأمرهم الذي سيكون .

وإن أول من خرج من زعماء هؤلاء الخوارج : حسكة بن عباس الحبطي ، وعمران بن فضل الرجحي . فهذان تزأسا جماعة كبيرة من الناس بعد الفراغ من معركة الجمل ، وسار معهم صعاليك من العرب حتى نزلوا سجستان من بلاد ما وراء النهر . وقد اعتدوا على أهلها فأصابوا منها مالاً . ثم أتوا منطقة بزيرنج من سجستان ، وقد خافهم الناس حيث قطعوا الطريق ، وسفكوا الدماء ، وسلبوا الأموال .

فبعث علي كتاباً إلى عبدالله بن عباس يأمره أن يسير إليهم جماعة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقُتل رئيسهم حسكة ، وضبطت البلاد بأيدي جماعة الحق والصواب .

وأما جماعة الخوارج الآخرون الذين انشقوا عن جيش سيدنا علي ، فهم الذين تكلموا مع علي وأجبروه على إيقاف الحرب في صفين ، وعلى قبول تحكيم

١- رواه البزار عن محمد بن كثير ، وعبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن الحكم بن عبدالملك ، وهو ضعيف .

الرجال ، وهم الذين تكلموا في قبول الرجوع إلى كتاب الله ، وهدّدوا علياً بالقتل إن لم يقبل برفع المصاحف ووقف القتال . فهؤلاء فارقوا الجماعة ، ورجعوا عن الطريق الذي أقبلوا منه ، وكانوا بعد ذلك يقطعون الطريق على الناس ، ويقتلون ويسلبون الأموال .

هذه الفئة من الخوارج هي الحرورية التي ظهرت وكبرت ، وصارت تهدد الإسلام . وكان علي بين أمرين : أيرسل جيشاً لمقابلة معاوية الذي أتى بأمور تخالف العهد وفعل ما ذكرنا ، أم يقاتل الخوارج ؟ فكان أمر الخوارج أهم في هذا المجال .

فأرسل إليهم علي جيشاً ، وقاتلهم في عدة معارك طويلة ودامية سنة ثمان وثلاثين ، وفي النهاية انتصر عليهم . ثم قال علي : انظروا إلى هذا الذي ذكره رسول اللهﷺ ، ووالله ما كذب رسول الله .

وكان دائماً يذكر لأصحابه : « كنت عند رسول اللهﷺ وليس عنده أحد إلا عائشة ، فقال لي : يا علي ، كيف أنت وقوم يخرجون بمكان كذا وكذا – وأومأ بيده نحو المشرق – ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم أو تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، فيهم رجل مخدج اليد[1] كأن يده ثدي حبشية »[2] .

ففتشوا وإذ وجدوه ، فقال لهم : صدق رسول اللهﷺ ، صدق رسول اللهﷺ .

١- أي في يده قطعة لحم زائدة في العظم تشبه ثدي المرأة .
٢- رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والبيهقي من وجه آخر . وروى نحوه البزار ، وأبو يعلى .

ثم لاقى سيدنا علي بعد ذلك جموعاً كثيرة متفرقة من الخوارج ، فاشتغل بها عن ملاقاة معاوية . وكانت آخر هذه المعارك معركة النهروان ، وانتهت بأن أبطل الله الباطل وأحق الحق .

وفي سنة أربعين كان سيدنا علي يجمع جيشه لينطلق لمقاتلة معاوية ، فمنهم مَن ينتقض ، ومنهم مَن يرجع ، ومنهم مَن يناقش .

وقد قُتِلَ رضي الله عنه قبل أن ينتهي إلى تحقيق ما رآه واجباً عليه .

ذكر مقتل سيدنا علي

عن عمار بن ياسر قال : « كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها رأينا أناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم أو في نخل ، فقال لي علي : يا أبا اليقظان ، هل لك أن نأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون ؟ قال : قلت : إن شئتَ فجئناهم . فنظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم ، فانطلقت أنا وعلي حتى في ظل صور من النخل ودقعاء من التراب فنمنا ، فوالله ما أنبهنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله وقد تترّبنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها . فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي : ما لك يا أبا تراب ؟ لما يُرى عليه من التراب . ثم قال : ألا أحدثكما بأشقى الناس ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه – ووضع يده على قرنه – حتى يبل منها هذه – وأخذ بلحيته – »[1] .

١- حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ، وأخرجه النسائي وأحمد .

فكان علي دائماً يقول عندما يمل من أهل العراق : متى يُبعث أشقاها حتى يُخضّبَ هذه من هذه . حيث كانوا كالقميص البالي ، كلما أصلح صاحبه جهة منه فَسدت الجهة الأخرى .

وفي رواية أخرى عن الضحاك عن مزاحم قال : قال رسول اللهﷺ لعلي : « يا علي ، تدري من أشقى الأولين ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : عاقر الناقة. قال : تدري من أشقى الآخرين ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : قاتلك »[1] .

وسبب قتل سيدنا علي أن اجتمع ثلاثة من الخوارج وهم : عبدالرحمن بن ملجم المرادي الحميري ، والبرك بن عبدالله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي . وناقشوا أمورهم ووصلوا إلى حد ذكروا علياً ومعاوية ، وتذاكروا في أمر الناس ، ثم ذكروا أهل النهروان وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعد هؤلاء الناس ، يجب أن نموت أو أن نفعل شيئاً ، فلو شرينا نفوسنا وقتلنا أئمة الضلال : علياً ، ومعاوية ، وعمرو ابن العاص ، وأرحنا منهم البلاد . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علياً ، وقال البرك : أنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

ثم تعاهدوا على ذلك وأقسموا ، وصافحوا بعضهم البعض ، وسمّوا سيوفهم ، وعيّنوا ليلة معينة من السنة لقتل هؤلاء الثلاث عند ذهابهم إلى صلاة الصبح ، وكانت صبيحة بدر يوم الجمعة ليلة السابع عشرة من رمضان سنة أربعين . ثم قصد كل واحد منهم الجهة التي يريدها .

ولما كانت الليلة المعهودة توجّه البرك إلى معاوية ، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف فوقع في إليته ، ولكنه أخذ وقتل .

١- رواه الشيباني في فضائل الصحابة لابن حنبل .

وأرسل معاوية خلف الطبيب فقال له بعد أن فحصه : أنت واحد من إثنين : إما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد ، وإما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف . فأجاب معاوية : أما النار فلا صبر لي عليها ، وأما الولد ففي يزيد وعبدالله ما تقر عيني . فسقاه شربة ، فبرئ ولم يولد له بعدها .

وأما عمرو بن بكر فإنه جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة المعهودة ، ولكن عَمراً لم يخرج لشكاية نالته في بطنه ، ووكّل قائد جنده خارجة بن حبيب أن يصلي بالناس . فشد يومها هذا الخارجي وهو يرى أنه عمرو فقتله ، فأُتي به إلى عمرو فقال : مَن هذا ؟ قالوا : عمرو بن العاص ، قال : مَن قتلتُ إذاً ؟ قالوا : قتلتَ خارجة ، فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، ثم قتله .

وأما عبدالرحمن بن ملجم عليه من الله ما يستحق ، فإنه أتى الكوفة واشترى سيفاً بألف ، وسمّه بألف . وكان في هذه الفترة يزور سيدنا علياً ويطلب منه العطاء فيعطيه ، ويطلب منه المركوب فيعطيه ، وينتظر منه أموراً فما ردّه بطلب .

ثم اجتمع ابن ملجم بفتاة تدعى قطامي بنت علقمة وكانت رائعة الجمال ، فأخذت بمجامع قلبه ، فخطبها فقالت له : لقد آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه ، قال : فما هو ؟ قالت : عبد ، وقينة ، وقتل علي . فهي تريد الانتقام ، حيث أخواها كانا من الخوارج وقد قتلا بمعركة مع سيدنا علي . فقال لها : والله ما قصدتُ هذا المِصر إلا لذلك ، ولكني لما رأيتك آثرت الزواج منك . فقالت : إن عدتَ سالماً فأنا لك ، وإن قتلوك به فستجد أجمل مني في الجنة .

وندبت إليه ابن عمها شبيب لمساعدته في هذه المهمة الصعبة ، وانضم معهما رجل ثالث كذلك ، واتفقوا على أن يرصدوا علياً في الموعد المحدد .

وفي صبيحة بدر حيث لا حرس لعلي إذا خرج ، أخذوا أسيافهم وجلسوا قبالة السدة التي يخرج منها علي . فعندما خرج لصلاة الصبح قام شبيب فضربه فأخطأه ، ووقع سيفه بعضاة الباب . ثم تنحّى فضربه عبدالرحمن بن ملجم على رأسه ، وقال عند ضربه : الحُكْمُ لله يا علي ، لا لك ولا لأصحابك . فقال علي : فزتُ ورب الكعبة ، لا يفوتنكم الكلب .

وهرب شبيب خارجاً من باب كندة ، فلحقه رجل من حضرموت يقال له : عويمر ، فصرعه فأخذ سيفه وجلس على صدره ، فصاح الناس : عليكم بصاحب السيف ، فخاف عويمر على نفسه فتركه ، فهرب شبيب في غمرة من الناس ، ثم قتل بعد ذلك .

وأما عبدالرحمن فإنه بعد أن ضرب علياً حمل عليه الناس فتقامع معهم ، فتلقاه المغيرة بن الحكم بن حارث بن نوفل بن عبدالمطلب ، فرمى عليه قطيفة من الثياب واحتمله ، وصرعه وقعد على صدره . ثم قال علي لأصحابه : احبسوه ، إن مِتُّ فاقتلوه بي ولا تمثلوا به ، وإن لم أمت فالأمر لي في العفو عنه أو أن أقنص منه . ثم استخلف جعدة بن هبيرة ليصلي بالناس الصبح .

ثم جاءت أم كلثوم بنت علي وكانت زوجة عمر إلى ابن ملجم وهو مكتوف اليدين ، فقالت : أي عدو الله ، إنه لا بأس على أبي ، والله مخزيك يا عدو الله . فقال : علام تبكين ؟ والله لقد اشتريت سيفاً بألف ، وشرّبته بالسم بألف ، ولو كنت ضارباً به بأهل مصر ما بقي منهم أحد .

وحُمل بعد ذلك سيدنا علي ونقل إلى بيته ، وكان جرحه عميقاً .

ثم أوصى أولاده بتقوى الله ، ولم ينطق بعد هذه الكلمة إلا بقوله : لا إله إلا الله ، ثم مات رضي الله عنه وأرضاه عنا وقد تحقق قول النبيﷺ .

وكان عمره رضي الله عنه حين وفاته ثلاثاً وستين سنة ، وقيل : خمساً أو تسعاً وستين سنة ، والأول هو الأصح .

وقد دامت خلافته رضي الله عنه خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، وهناك رواية : إلا أربعة أشهر .

وبعد وفاته كرم الله وجهه قام ابناه الحسن والحسين وغسّلاه ومعهما عبدالله ابن جعفر ، وكُفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، ثم صلى عليه ابنه الحسن .

وقد اختلف في موضع قبره ، فقيل : دفن في قصر الإمارة في الكوفة . وقيل : عند مسجد الجماعة . وقال الواقدي : دفن ليلاً وأخفي قبره ، ولم يعرفه أحد إلى الآن . وهذا الذي تميل إليه النصوص ؛ لأن الخوارج لو عرفوا مكانه لأخرجوه من القبر وأحرقوه .

وكان رضي الله عنه قبل وفاته يشعر بأنه سيموت ، فقد حُكِيَ عن عثمان بن المغيرة أنه قال : لما دخل رمضان كان علي يتعشى ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند عبدالله بن جعفر ، لا يزيد على ثلاث لقم . ثم يقول : يأتيني أمر الله وأنا خميص ، وإنما هي ليلة أو ليلتان حتى قتل .

وذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه الصواعق المحرقة عن سيدنا الحسن بن علي أنه قال يوم قتل علي : خرجت البارحة وأبي يصلي في مسجد داره ، فقال لي : أقبل . فأقبلت فقال : يا بني ، إني بت أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة ولأنها صبيحة بدر ، فملكتني عيناي فنمت ، فعرض لي رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ماذا لقيت من أمتك من العوج والخصومة ؟ فقال لي : ادعُ عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم مَن هو خير منهم ، وأبدلهم بي مَن هو شر مني . يقول الحسن : فجاء

ابن النباح وكان مؤذناً لعلي يآذنه بالصلاة ، فخرج إليها وخرجت خلفه ، فضربه ابن ملجم فقتله .

وعندما خرج رضي الله عنه لصلاة الصبح يومها صاح الإوز كثيراً ، فكانوا يريدون إسكاته ، فقال : دعوهن فإنهن نائحات .

وبعد وفاة سيدنا علي رضي الله عنه أصرّوا على مبايعة ولده الحسن أميراً للمؤمنين فأبى ، فأصروا عليه . وبعد ستة شهور من مبايعته خرج عليه جماعة وتعرّضوا له ، وحاولوا قتله حتى أخذوا قطيفته عن كتفه . فكاتب معاوية وأرسل إليه كتاباً مفتوحاً ، ووقّع عليه وقال له : ضع الشروط التي تريدها ، وسُلِّمَت بعد ذلك الخلافة إلى معاوية .

رضي الله عنك يا علي وأرضاك عنا ، وجعلنا دائماً في بودقة العلم التي انطلقت بها مع العمل إن شاء الله تعالى .

الخَاتمَـــــــــــةُ

(رزقنا الله تعالى حسن الخاتمة)

وبهذا نكون قد ختمنا سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم عنا ، وجعلنا معهم في رحاب الله تعالى ، وأكرمنا باتباعهم .

كل واحد منهم له مشرب ، وكل واحد منهم له طريقة وشخصية مستقلة خاصة به ، إنما أصولهم واحدة ، ومنبعهم واحد ، وإن اختلفت الفروع والتفسيرات .

هم أصحاب رسول اللهﷺ الذين ثبتوا على عهودهم ونصروا الإسلام ، هم الذين فتحوا الأمصار ودوّخوا الأكاسرة الفرس والروم ، هم الذين حملوا مشعل الإسلام عالياً خفاقاً ابتغاء مرضاة الله وإعلاء كلمة التوحيد .

وكما ذكرت في بداية هذه السيرة العطرة أن أصحاب رسول اللهﷺ كلهم كرام ، وهم أسيادنا ومرجعنا بعد رسول اللهﷺ حيث قال عليه الصلاة والسلام في حقهم : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1] .

وقالﷺ : « لا تتخذوا أصحابي من بعدي غرضاً ، إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا »[2] .

١- رواه الدارقطني ، وعبد بن حميد .
٢- رواه الطبراني في الكبير .

فأوصيكم بالصحابة خيراً ، أوصيكم بحبهم خيراً ؛ لنكون معهم ، ولنبعث معهم ، ولنحشر معهم ، ولندخل الجنة معهم إن شاء الله تعالى .

وإذا ذكرنا سيرتهم فإنما مطلوب منا أن نعيد حساباتنا ، أين نحن ؟ ومَن نحن ؟ وماذا عملنا وقدمنا لديننا كما قدم آباؤنا وأجدادنا وسلفنا ؟

وإني أرجو من أخ ناصح اطّلع في هذا الكتاب على فائدة أن يدعو لنا بحسن الخاتمة .

وإن اطلع فيه على هفوة صغيرة أو كبيرة أن يحاول إيجاد تفسير لها إن استطاع ، فإن لم يجد لها مُسَوّغاً أصلحها بالتي هي أحسن ، وبذلك نكون قد اتصفنا بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين .

ولقد تم بحمد الله وبتوفيقه الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في صبيحة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول لسنة ثلاث وعشرين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية الشريفة ، الموافق الرابع والعشرين من الشهر الخامس الميلادي لسنة اثنتين بعد الألفين .

وصلى الله على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آل بيته وأصحابه الميامين ، وسلم تسليماً كثيراً .

والحمد لله رب العالمين .

خادم العلم الشريف

محمد عيد يعقوب الحسيني

أهم المصادر والمراجع

١ـ تفسير القرآن الكريم

تفسير القرطبي
تفسير الطبري
تفسير ابن كثير
تفسير ابن عباس
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي
تفسير البيضاوي
تفسير الجلالين
تفسير روح البيان
التفسير الكبير للإمام فخر الرازي

٢ـ المتون

أـ الصحاح
صحيح البخاري
صحيح مسلم
صحيح ابن حبان
المستدرك على الصحيحين
الأحاديث المختارة

ب- السنن
سنن الترمذي
السنن الصغرى
مجمع الزوائد
سنن البيهقي الكبرى
سنن الدارقطني
سنن أبي داود
السنن الكبرى
سنن النسائي (المجتبى)
سنن ابن ماجة
سنن الدارمي
سنن سعيد بن منصور

ج- المسانيد
مسند البزار
مسند أحمد
المعجم الصغير
المعجم الأوسط
المعجم الكبير
مسند أبي يعلى
الآحاد والمثاني
مسند عبد بن حميد

د- المصنفات والآثار
موطأ مالك
مصنف ابن أبي شيبة

هـ - أخرى

شعب الإيمان
الزهد لابن المبارك
الفردوس بمأثور الخطاب
كتاب الزهد لابن أبي عاصم
مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا
نوادر الأصول في أحاديث الرسول
الدلائل للبيهقي
المعرفة لأبي نعيم
الإفراد للدارقطني
مجمع بحار الأنوار
الترغيب والترهيب

٣- تراجم الرواة

أ- التراجم العامة

الكنى للحاكم
حلية الأولياء
تاريخ البخاري

ب- الثقات

سير أعلام النبلاء

ج- الضعفاء

لسان الميزان
ميزان الاعتدال في نقد الرجال
الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي

د- تراجم كتب مخصوصة

تهذيب التهذيب لابن حجر
تهذيب الكمال

هـ - الطبقات

الاستيعاب
صفوة الصفوة
الطبقات الكبرى
الإصابة لابن حجر

و- أخرى

تهذيب الأسماء

٤- العلل والحكم في الحديث

علل الترمذي
كشف الخفاء

٥- مصطلح الحديث

رسائل في الجرح والتعديل
الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب

٦- الفقه وأصوله

الرياض النضرة

٧- السيرة والتاريخ

تاريخ الطبري
حياة الصحابة
دلائل النبوة للأصبهاني
التاريخ الكامل لابن الأثير
تاريخ فتوح الشام للواقدي
تاريخ الخلفاء للسيوطي
فضائل الصحابة لابن حنبل
الأخبار المنثورة لابن دريد
النهاية والبداية لابن كثير
الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي
نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري
الرياض النضرة في مناقب العشرة

٨- المعاجم

القاموس المحيط
المصباح المنير
المعجم الوجيز
معجم البلدان
خزانة الأدب

٩- وبعض المراجع الأخرى

فهرس

- إهـــــداء المؤلـــــف ٧
- صـــــورة المؤلـــــف ٩
- مقدمـــــة المؤلـــــف ١١
- نبذة عن فضائل الصحابة الكرام
  أولاً : مـــن هـــو الصـــحابي ؟ ١٧
  ثانيـاً : بيـان فضـل ومكانـة الصـحابة ١٩
  ثالثاً : عقيدة أهل السنة والجماعة فيما جرى بين الصحابة ٣٠

الخليفة الأول : سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه

- نسبه ٣٥
- لقبه وتسميته ٣٥
- سـمته ومكانتـه فـي قـريش ٣٦
- زوجاتـــــــه وأولاده ٣٦
- قصة إسلامه ٣٧
- هجرتـه مـع رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ٣٩
- ذكـر بعـض مناقبـه وفضـائله ٤١
- البيعة لأبي بكر بالخلافة
  ذكـر مـا ورد مـن نصـوص تشـير إلـى خلافـة أبـي بكـر ٥٧
  اجتمـاع الأنصـار فـي سـقيفة بنـي سـاعدة ٦١
  البيعة الخاصة ٦٣

البيعة العامة ٦٦
خطبة أبي بكر بعد البيعة ٦٨
تحوله للإقامة بالمدينة ٦٨
ذكر سبب تسميته بخليفة رسول الله ٦٩
• إنفاذ جيش أسامة ٦٩
• أخبار من ادعى النبوة من الكذابين وما آل إليه أمرهم ٧٢
خبر طليحة الأسدي ٧٣
خبر مسيلمة الكذاب ٧٦
خبر سجاح وما كان من أمرها مع مسيلمة ٧٨
خبر الأسود العنسي ٨٠
• ذكر غزوة أبي بكر وقتاله أهل الردة وعبس وذبيان ٨٧
• عقد أبي بكر الألوية وتجهيز الجيوش لقتال أهل الردة ٩٠
• كتاب أبي بكر إلى أمرائه على الجند ٩١
• كتاب أبي بكر إلى المرتدين ٩٢
• ذكر بعض أخلاقه وحياته في خلافته ٩٥
ورعه وخشيته من الله ٩٥
حلمه ورحمته ٩٦
حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ٩٦
زهده وتواضعه ٩٧
• الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر
فتوح العراق
إرسال خالد بن الوليد إلى العراق ٩٨
موقعة ذات السلاسل وفتح الأبلة ٩٩
وقعة الثنى ١٠٠
وقعة الولجة وأليس ١٠١
وقعة الفرات وفتح الحيرة ١٠١
فتح الأنبار وعين التمر ١٠١
وقعة دومة الجندل ١٠٢
موقعة مُصَيَّخ ١٠٢
فتح الثنى والزميل ١٠٢
موقعة الفِراض ١٠٣
فتوح الشام ١٠٣
مسير خالد بن الوليد إلى الشام ١٠٥
فتح بُصرى ١٠٦

وقعة أجنادين ١٠٦
معركة اليرموك ١٠٧
• ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر من غير ما ذكرناه ١٠٨
• وفـــاة أبـــي بكـــر الصـــديق ١١١

الخليفة الثاني : سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

• نسبه ١١٧
• كنيتـــــه ومولـــــده ١١٧
• صفاته الذاتية ١١٧
• زوجاته وأولاده ١١٨
• قصة إسلامه ١١٩
• هجرته إلى المدينة ١٢٤
• ذكـــر بعـــض مناقبـــه وفضـــائله ١٢٤
• ذكر موافقة عمر للقرآن الكريم ١٣٠
• البيعة لعمر بالخلافة ١٣٦
• ذكر سبب تسميته بأمير المؤمنين ١٣٨
• ذكـر بعـض أخلاقـه وحياتـه فـي خلافتـه ١٣٩
تفقده لأحوال رعيته ١٣٩
زهده في الدنيا ١٤٣
شدة خوفه من الله تعالى ١٤٧
حلمه وتواضعه ١٤٩
عدله وصلابته في الحق ١٥٠
• ذكر بعض ما جاء في صفة عمر في الكتب السماوية ١٥٧
• ذكر بعض كرامات عمر ١٥٩
• من كلامه ونصائحه ١٦٢
• الفتوحـــات الإســـلامية فـــي عهـــد عمـــر ١٦٤
فتوح بلاد الشام
فتح دمشق ١٦٥
فتح فِحْل ١٦٦
فتح بلاد ساحل دمشق ١٦٧
فتح بيسان وطبرية ١٦٨
وقعة مرج الروم ١٦٨
فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر ١٦٨

فتح معرة النعمان واللاذقية ١٦٩
فـتح قِنَّسْـرين ودخـول هرقـل القسـطنطينية ١٧٠
فتح حلب وأنطاكيا وغيرهما من العواصم ١٧١
فتح قيسارية وحصن غزة ١٧٤
وقعة أجنادين وفتح بلاد فلسطين ١٧٤
فتح بيت المقدس ١٧٦
قصة إسلام كعب الأحبار ١٨٧
خروج الروم لمقاتلة المسلمين ومسير أبي عبيدة إليهم ١٩٢
فتح الجزيرة وما تبعها ١٩٤
فتوح العراقين وما والاهما من بلاد فارس ١٩٦
وقعة النمارق ١٩٧
وقعتي السقاطية والجالينوس ١٩٨
معركة قس الناطس ١٩٩
وقعة أليس الصغرى والبُوَيْب ٢٠١
خبر سوقي الخنافس وبغداد ٢٠١
خبر غزو بني تغلب بصفين ٢٠٢
معركة القادسية ٢٠٤
فتح المدائن الغربية (بُهْرَسير) ٢٢٠
فتح المدائن الشرقية التي فيها إيوان كسرى ٢٢٢
وقعة جلولاء وفتح حلوان ٢٢٥
فتوح بقية بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر ٢٢٦
فتح بلاد الأكراد ٢٢٨
فتوح بلاد الترك ٢٢٨
فتوح بلاد مصر وإفريقيا ٢٢٩
- ذكر ولاة عمر وحكامه على الأقاليم الإسلامية ٢٣٠
- توزيع الفروض والرواتب على المسلمين ٢٣١
- بناء الكوفة والبصرة ٢٣٤
- بناء المسجد الحرام ٢٣٦
- ذكر خبر عام الرمادة ٢٣٧
- ذكر طاعون عمواس ٢٣٩
- قدوم عمر إلى الشام ٢٤٠
- إخراج اليهود من جزيرة العرب ٢٤٢
- مقتـــل عمـــر بـــن الخطـــاب ٢٤٣

الخليفة الثالث : سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

- نسبه ومولده ٢٥٥
- صفاته الذاتية ٢٥٥
- زوجاته وأولاده ٢٥٦
- إسلامه وهجرته ٢٥٦
- ذكر بعض مناقبه وفضائله ٢٥٧
- البيعة لعثمان بالخلافة ٢٦٢
- ذكر عماله وولاته على الأمصار وما كتب إليهم ٢٦٤
- ذكر بعض أخلاقه وحياته في خلافته ٢٦٦

شدة حيائه ٢٦٦
زهده وتواضعه ٢٦٨
خوفه من الله تعالى وشدة تقواه ٢٦٨
صلته للرحم وكرمه ٢٦٩

- الفتوحات والغزوات الإسلامية في عهد عثمان ٢٧٠

فتوح مصر
ذكر إعادة فتح الإسكندرية ٢٧٠
فتوح إفريقيا ٢٧١
فتوح أرمينية وجزء من بلاد فارس
فتح أرمينية وأذربيجان ٢٧١
فتح كابل ٢٧١
إعادة فتح خراسان وكرمان وسجستان وكابل ٢٧٢
غزو طبرستان ٢٧٢
فتوح بلاد الترك ٢٧٢
غزو معاوية الروم ٢٧٣
موقعة ذات الصواري ٢٧٣
فتوح الأندلس وجزيرة قبرص ٢٧٤

- خبر جمع القرآن في عهد عثمان ٢٧٤
- خبر عثمان وأبي ذر الغفاري ٢٧٦
- ذكر ما وقع في خلافة عثمان من غير ما ذكرناه ٢٧٨
- وقوع الفتنة ومقتل عثمان ٢٨٠

ابتداء أمر الفتنة ٢٨١
بداية الحصار وما كان من أمر الصحابة ٢٨٣
اشتداد الحصار والاتفاق على قتل عثمان ٢٨٥
تسَوُّر النفر الثلاثة وقتل عثمان ٢٨٧

الخليفة الرابع : سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه

- نسبه وكنيته ٢٩٧
- صفاته الذاتية ٢٩٧
- إسلامه ونشأته ٢٩٨
- زوجاته وأولاده ٢٩٨
- ذكر بعض مناقبه وفضائله ٣٠٠
- ذكر بعض كراماته ٣٠٧
- البيعة لسيدنا علي بالخلافة ٣١٠
- ذكر بعض أخلاقه وحياته في خلافته ٣١٤

شجاعته وقوته ٣١٥
زهده وتواضعه ٣١٦
عدله وصلابته في الحق ٣١٧
ورعه وتقواه ٣١٩
سعة علمه وحفظه للقرآن ٣٢٠

- من كلامه ونصائحه ٣٢٢
- معركة الجمل

اجتماع السيدة عائشة والزبير وطلحة في مكة على المطالبة بدم عثمان ومسيرهم إلى البصرة ٣٢٥
مسير علي إلى البصرة وإرساله القعقاع طليعة له ٣٢٧
وصول علي إلى البصرة ومراسلته طلحة والزبير ٣٢٨
ابتداء وقعة الجمل ٣٣٠
مقتل طلحة ٣٣١
مقتل الزبير ٣٣٣
رجوع الناس واقتتالهم حول الهودج ٣٣٥
عقر البعير وانتهاء المعركة ٣٣٦
دخول علي البصرة ومبايعة أهلها له ٣٣٨
خروج عائشة من البصرة ورجوعها إلى مكة ٣٣٩

- معركة صفين

إرسال علي إلى معاوية وما كان من جوابه ٣٤١
خروج علي للقاء معاوية وما كان بينهما من مراسلات ٣٤٣
حصول الموادعة بين علي ومعاوية ٣٤٥
ذكر الحروب التي كانت بصفين ٣٤٦
مقتل عمار بن ياسر ٣٤٧

رفع أهل الشام المصاحف وكتابة العهد بين الطرفين ٣٤٨
اجتماع الحكمين وما كان من أمرهما ٣٥٢
- خبر ظهور الخوارج ٣٥٦
- خبر مقتل سيدنا علي ٣٦٠

- خاتمة الكتاب ٣٦٧
- أهم المصادر والمراجع ٣٦٩
- الفهرس العام للكتاب ٣٧٢